الفصل 6 تخصص اللسانيات

الوحدة : التواصل و بناء الخطاب

الأستاذ نورالدين رايص

القسم الأول :ظاهرة التواصل العالمية

توطئة :

لكي نعرف هذه الظاهرة و يكون تعريفنا جامعا مانعا يلزم أن نطرق عدة أبواب من التعاريف فهناك :

- التعريف اللغوي
- التعريف بالمثال
- التعريف بالضد
- التعريف بالوظيفة
- التعريف التاريخي
- التعريف بالماهية

1-التعريف اللغوي

فالتعريف اللغوي حتما يدفعنا إلى البحث عن مرادفات اللفظ المعرف، و معلوم أن المرادف يجب أن يكون أوضح من اللفظ المراد تعريفه، و قد نبحث عن اشتقاق اللفظ و امتداداته المعنوية بغية الوصول إلى المعنى المراد و قد نركز على تطور معناه بحسب تدرجه في مساق الاستعمال تاريخيا.

و لا شك أن مرادفات التواصل في اللغة العربية حاليا كثيرة ومن جملتها : الاتصال و التوصيل والإبلاغ والتبليغ والإعلام .. الخ، وكلها تستعمل بمعنى واحد لكن أرجح هذه الاصطلاحات وأوفاها بأداء المعنى المراد هو مصطلح التواصل الرائج حاليا في مشرق العالم العربي و مغربه.

و لفظ التواصل فيه تفاعل فهو يدل على المطاوعة و المشاركة بحيث يشارك المرسل و المستقبل في هذه العملية ، فالمطاوعة و المشاركة بينة جلية .

1.أاستعمال مصطلح التواصل communication في الفرنسية و الإنجليزية دياكرونيا (أو تاريخيا)

أما من ناحية استعمال و تداول هذا المصطلح فحري بنا أن نلجأ إلى ما قيل عنه عند مبرزي هذا العلم ، و الذين أخذناه عنهم ليعطونا شذرات من آرائهم و في ذلك يقول " إيفس فانكين Yves Winkin " : تواصل communiquer و التواصل communication ظهرتا في اللغة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي فالمعنى الأصلي الذي هو " شارك في " قريب جدا مما في اللاتينية و فعلها " communicare و تعني الوضع داخل وحدة ما يحمل - ظاهريا - وحدة الأجسام .

و إلى حدود القرن الخامس عشر اقترب مفهوم : " communier " و " communion " التي تعني المشاركة في الآراء و في العاطفة أو وحدة الشعور ، و هي صيغة قديمة استعملت في القرن العاشر و الثاني عشر ، و هي مشتقة أيضا من فعل " communicare " ، و نستطيع أن نقترب من هذه المصطلحات المصدر الواصف " communier " بمعنى اشترك في تملك شيء ما ، و هذا المصطلح يؤخذ به حاضرا في المعاجم الكبرى ، و انطلاقا من المعنى العام الذي هو " التقسيم إلى اثنين فأكثر " فظهر في القرن الخامس عشر معنى " اقتسم خبرا " .

و ابتداء من نهاية ذاك القرن ، شرع فعل " communiquer " يعني أيضا " نقل مرض ما " مثلا . تلا ذلك قرن من الزمان أعطى معجم " فورتيير : Furetière " مثالا على ذلك " المغناطيس ينقل قوته إلى الحديد " .

و في القرن السابع عشر ظهرت " الأنابيب الناقلة les tubes » communiquantes » فالظاهر أن الاستعمالات الدالة على التقسيم بدأت تسير تدريجيا إلى مستوى ثان ، لتترك مكانها للاستعمالات المركزة حول " نقل " ... ، و أصبحت القطارات و التليفونات ووسائل الإعلام تدريجيا وسائل للتواصل " Moyens de communication " يعني وسائل لتمرير من (أ) إلى (ب) أي للنقل .

إن معنى النقل هو الذي أصبح سائدا و مسيطرا على كل المعاني الأخرى في الفرنسية المعاصرة .

إن التطور العام لهذا المصطلح في الإنجليزية يشبه إلى حد ما ، ما حدث في الفرنسية ، فعندما ظهرت هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية في القرن الخامس عشر فإن جذرها اللاتيني " communis " أخصب و اغتنى كثيرا في المعنى ، و هو مرادف ل : communion (مشاركة ...) .

و يعني فعل المشاركة ، و فعل " توحد : mettre en commun " و في منتهى القرن الخامس عشر أصبحت " communication " مادة لفعل " توحد " و بعد ذلك بقرنين من الزمن بقي محافظا على نفس المعنى .
خلال القرن الثامن عشر ، و بعد تطور وسائل النقل - أصبح هذا المصطلح جمعا ، بحيث يعني شبكة الطرق و القنوات و السكك الحديدية .
و صار هذا المصطلح منذ بداية الثلث الأول من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية و كذا في بريطانيا يعني مصانع الطباعة و السينما و الراديو و التلفزيون .
و شاع هذا المفهوم في فرنسا و بالضبط في مرادفات الفنانين ، و في المرادفات الصحفية من مثل قولهم : " Passons à la communication pourquoi avoir lié financièrement Europe 1 à Matra express 26 Juillet 1962 "
لكن هذا المعنى لم يؤخذ به في المعاجم الكبرى للغة الفرنسية ، بل عكس ذلك أضافت زيادة " Le grand Robert " سنة 1970 تعريفا جديدا للتعريفات الأربعة الموجودة ، فبعد :

1 - إرسال شيء ما لشخص ما .
2 - التحدث عن شيء ما .
3 - التحاور مع شخص ما .
4 - الانتقال من مكان إلى آخر .

أضاف روبير " Robert " معنى خامسا علميا و هو: تدخل العلاقة الديناميكية في عمل ما ، و بكلمة أوضح هي نظرية التواصل و الضبط الآلي أو السبرنتيكا ويعني التواصل مع الآلات La cybernétique .
ثم نجد أن كلمة communication تعني الإعلام و التواصل و قد حدث هذا لأول مرة في تاريخ دلالة هذا المصطلح بحيث قطع هذا المفهوم الجديد علاقته الكلية مع الماضي "[1].

[1] Bateson, Birwhistell Goffman Hall, Jackson, Soghflen, sigman, Walz lawick : La nouvelle communication, Textes recueillis et presentés par Yves winkinp : 13.

و نفس المعنى نجده في معجم وسائل الإعلام ، " Dictionnaire des media " [2]، حيث أن معنى communication تطور من الأصل اللاتيني إلى أن أصبح مع نظرية التواصل نظرية للإعلام ، فهي التي تشعبت عنها معان أخر تخص المعلوميات والسبرنتيكا وغيرها .

1.ب*استعمال مصطلح " التواصل " " communication " سانكرونيا في العلوم الإنسانية

إن التواصل يقول "جون دوبوا" هو تبادل كلامي بين متكلم محدث لملفوظ موجه إلى متكلم آخر ، و هذا المخاطب " Interlocuteur " يلتمس الاستماع إليه أو جوابا ظاهرا أو باطنا ، و ذلك حسب نوع ملفوظه " .

وقد قال عن التواصل في موضع آخر بأنه " بين شخصي : Intersubjective " .

و بحث عن تعريفه من وجهة علم النفس اللساني : " Psycholinguistique " فقال : عملية التواصل هي ربط المتكلم الدلالة بالأصوات و يتم عكس ذلك بالنسبة للمستمع بحيث يربط الأصوات المنطوقة بدلالتها . [3]

أما مفهوم التواصل الاجتماعي الحديث فيعني كل شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية التي توجد فيها مشاركة واعية للأفراد و الجماعات ، و يمكننا التمييز فيها بين :

- قنوات التواصل .
- شبكات التواصل التي تخضع لبنية الأفراد أو الجماعات التي تربطها علاقة ما .
- أنماط التواصل التي تخضع للتفاعل بين بنية الشبكات و البنية الاجتماعية .

[2] Jean Baptiste Figes, Christian Pagine, Pierre conille, Bernard Ferry : Dictionnaire des média . P : 52 .

[3] Dictionnaire de linguistique : 96 .

مما يفرض حتما أن نفكر في الإنسان الاجتماعي ، و منذ كان الإنسان وهو اجتماعي . إذن فأبسط أشكال التواصل كانت ظروفها متوفرة منذ الزمن الغابر ،وهي المقابلة وجها لوجه ، مقابلة آدم مع زوجه حواء ، فأي سلوك منهما يحتاج إلى تأويل سواء كان هذا السلوك صوتيا أم غير صوتي .

فإذن ، كان الإنسان و كان معه غيره ، و احتاج الإنسان إلى أن يتفاهم مع ذلك الغير - و الحاجة أم الاختراع - فطفق يحاول بشتى الوسائل كي يبلغ قصده ومراده ، رائده في ذلك -وفي كل مرة -" بدل أدنى جهد للحصول على أكبر منفعة " .

و تساءل عالم اللسانيات جاكبسون قائلا أنه لو لم يخترع الإنسان اللغة،وأراد أن يعبر بالأشياء الموجودة كلها -فرضا- فكيف سيكون موقفه ؟ .[1]

فأجاب بما أورده من قصة الحكيم " بالنبربري " قائلا : " هل تذكرون جميعا الحكيم بالنبربري Balnibarbari في رحلات جولفير Les voyages de Gulliver ؟ لقد قرر ما يأتي " بما أن الكلمات ليست إلا بدائل للأشياء فسيكون أجدى نفعا لكل الناس أن يحملوا معهم الأشياء التي سيكونون في حاجة إليها للتعبير عن المسائل الخاصة التي سيحتاجون لمناقشتها ... إذا كانت مشاغل الإنسان كبيرة و هامة و متنوعة الأشكال ، فإنه سيكون ملزما - و لو نسبيا - أن يحمل على ظهره كيسا كبيرا من الأشياء ، و يوشك أن يسحق تحت ثقله ، و يصعب أن نتكلم [استعمل جاكبسون فعل تكلم (Parler) دون تحفظ و الأولى أن يقول تواصل] [2] .

بأشياء كالحوت الكبير Baleine ، و نحتار أكثر لو أننا تكلمنا عن كل الحيتان ، و يستحيل عمليا أن نتكلم - و بأي شكل من الأشكال - عن جميع الحيتان ، و عن الحيتان الغائبة ، و لنفترض أيضا أن نتوصل - و بمعجزة - إلى جمع كل حيتان العالم ، فكيف سنتواصل بكل هذه الأشياء و هي حاضرة كلها ؟

و ما برح المنطق الرمزي يذكرنا بأن - الدلالات اللسانية الناشئة عن نسق من العلاقات التحليلية للعبارات لا تقتضي حضور الأشياء ... و هكذا بقي حقل الدلالة غير لصيق بأرض الإنسان [3] .

و نستشف من هذه القصة أن لا قيمة لأي تواصل دون التواصل اللغوي ، فهو يغني عن الكثير من المتاعب التي كان على الإنسان أن يتحملها في التواصل مع بني جلدته لولا وجود اللغة ، فاللغة - إذن - أداة اجتماعية هامة ، بل هي الاجتماع بلا منازع .

---

[1] و قد طرح جاكبسون هذا السؤال في مؤتمر جمع اللسانيين في حلقة براغ .

[2] زيادة من عندي .

[3] Jakobson : Essais de linguistique générale T1, P : 42 .

ألا ترى أن الشعوب تستند كثيرا في إثبات هويتها على تواصلها اللغوي الاجتماعي سواء أكان تواصلا كتابيا أم شفويا ، و أهم ما في الأمر أن المرء يتصل بالآخر عن طريق الكلام، و كل إنسان يحب أن يلتقي مع أبناء جلدته ، و هنا تساعد اللغة المرء ، و ليس أكثر إيذاء لأحد الرجلين لا ثالث لهما من سكوت الآخر .

فالرجل الصامت مخلوق رهيب ، و الغريب الذي لا يتكلم لغة البلاد يعتبر عدوا في كل بلاد العالم .

و لقد فرضت قضية بعد المسافات المكانية على الإنسان أن يبحث على أنجع السبل لإيصال معلوماته للآخر، ذاك الآخر الذي هو في أمس الحاجة لما يعرفه غيره.

لقد أيقن جميع المتخصصين في مختلف العلوم و قسم أكبر من الجمهور حاليا أن ظواهر التواصل تحكم كل المظاهر الاجتماعية الأخرى ، و لعل التطور الذي أحرزته وسائل التواصل الكتلي " communication de masse " ، تشكل بوضوح ميزة تسيطر على الحضارة العالمية حاضرا . و قد صرح ميشل فوكو " Michel Faucault " : " أن البحث في الظواهر الاجتماعية يتمركز أكثر فأكثر على عملية التواصل " [1] .

حقا إن التفاهم و التواصل المتبادل يشبه عملية التنفس بالنسبة لأمة ما ، و هذه العملية بالذات هي التي تتحكم في وجودها و حركيتها و حياتها ، إننا نتواصل لضرورة ملحة ، و لأن أي واحد منا لا يعرف إلا القليل و يحتاج لما يعرفه الآخرون .

إن حاجة الإنسان إلى التواصل هي إلى حد ما حاجة فطرية ، إننا نحب أن نرى ما يحدث عند الآخرين لكي ننسى أنفسنا و لكي نجد أنفسنا وسط زحام هذا المعمور .

و من المؤكد أن الحاجة إلى التواصل تبدأ منذ ولادة الإنسان إلى حين وفاته ، فعندما يصرخ الطفل الصغير ، لا يصرخ عبثا و إنما ليعرب عما أحس به من بلل أو مرض أو جوع و كأنه يقول نظفوني أو عالجوني أو أطعموني . إن المخلوق البشري ينخرط منذ ذلك الحين في الإجراء المعقد الذي هو اكتساب قواعد التواصل ، لكنه لا يدرك إلا القليل مما يؤلف بنية هذه القواعد [2] .

كل هذه الأمثلة - و هي غيض من فيض - تدل و لا شك على أن التواصل حاجة لا يمكن أن نتخلى عنها أبدا ما دمنا أحياء . فكل سلوك في الحياة الاجتماعية يعتبر تواصلا . و أن ذلك السلوك يملك خاصية غالبا ما تفلت من انتباهنا ، و هي أن السلوك ليس له ضد ، و بكلمة أوضح لا وجود للا سلوك - كما قال أصحاب

[1] Denis Huis man : Le dire et le faire, P : 12 .
[2] Une logique de la communication, P : 7 .

" منطق التواصل " الذين اهتموا بالفلسفة النفعية للتواصل [1] . حيث إننا إذا اعتبرنا ، في تفاعل ما " Une interaction " ، أن كل سلوك ما هو إلا رسالة ، و أعني بذلك وجود تواصل ما ، فذلك يتبعه أننا لا نقدر على ألا نتواصل سواء أحببنا ذلك أم كرهنا ، و سواء أكان هناك نشاط ما أم حالة جمود ، كلام أم صمت فإن كل شيء سيكون له قيمة الرسالة كما في صراخ الطفل ، فثمة سلوك يؤثر في الآخر ، و لا يستطيع ذلك الآخر بدوره ألا يحرك ساكنا إزاء ذاك التواصل الحاصل و آنذاك ينصاع فيتواصل .

علينا أن نفهم أن الحادث الوحيد الذي يجعلنا لا نتكلم ، أو لا نعير اهتماما للغير ، لا يعتبر شيئا مستثنى مما قلناه سابقا ، و مثال ذلك أن نجد رجلا جالسا إلى مائدة غاصة بالناس و هو ينظر أمامه و لا يلتفت لا يمنة و لا يسرة .

و عندنا كذلك مسافر على متن طائرة جالس على أريكته مغلق العينين ، فمما لا شك فيه أن كلا منهما يرسل رسالة ما ،وأعني بذلك أنهما امتنعا عن التحدث لأي شخص كان ، و لا يريد أن يخاطبهما أحد بصفة مطلقة .

آنذاك يحدث أن يفهم مجاوروهما الرسالة ، و يتحركون - عادة ردا عليها بتركهما و شأنهما . و الواقع أن هذه الحالة تشبه حالة حوار ما .

و لقد أثبتت الأبحاث الهامة التي أجراها " لوفت Luft " في هذا الصدد معنونا إياها بالحرمان من الحافز الاجتماعي Privation de stimulus social أننا إذا وضعنا غريبين في غرفة ما ، و اتفق أن أجلسنا كل واحد منهما في ركن منها ، مع سابق إخبارهما ألا يتكلما ، و أن لا يحاولا التواصل بأي وجه من أوجه التواصل . فإننا سنجد بعد مرور التجربة ، و بعد مناقشتهما أنهما عانيا الكثير من الحرج الذي وجدا فيه في تلك اللحظة ، و هو ما قاله الباحث الذي أجرى الحوار معهما : " ... إن أمامه ذلك الآخر بكل ما فيه من وحدة و كيان و سلوك و إن كان صامتا ، و في هذه النقطة بالذات يوضع الإنسان أمام اختبار مع نفسه فهو يتساءل مثلا : كيف سيتحرك ذلك الآخر بمحضره ؟ و كيف سيجيب على تلك الرسائل الدقيقة غير الكلامية التي يرسلها ؟

هل يحاول فهم نظراته الحائرة المستفهمة ؟ أو الحري به أن يتجاهله ببرودة دم ؟ هل يشكل وضع ذاك الآخر علامات لتوتره مما يؤدي به إلى بعض القلق بمحضره ؟

[1] نفس المصدر ، ص : 72 .

هل هو مستريح ؟ و يعني ذلك أنه يقبله أو أن الآخر سوف يعامله كشيء لا وجود له مطلقا ؟ ثمة أصناف من السلوك تدرك بسهولة أثناء هذه التجربة ... " [1] .

و السلوك و التواصل عند هؤلاء المؤلفين الذين أشرنا إليهم فيما سبق شبه مترادفين . و لقد حددوا في مؤلفهم أنه علينا " أن نفهم - و بكل وضوح - منذ البداية أن هذين المصطلحين - أي التواصل و السلوك - يعتبران عمليا كالمترادفين " [2] . ذلك أن تشكل السلوك عندهم و الناقل له هو التواصل على أن دراسته " تشبه في حد ذاتها السيميوطيقا - أي دراسة أنظمة العلامات " [3] .

و في سنة 1909 و من خلال كتاب " النظام الاجتماعي social organisation " قعد عالم الاجتماع الأمريكي و رائد علم النفس الاجتماعي شارل كولي : Ch.cooley التواصل على هذا النحو : " إنه الميكانيزم الذي تتواجد و ترتبط من خلاله العلاقات الإنسانية فهو يضم تعبير الوجه و المواقف و الحركات و تنغيم الصوت و الكلمات و الكتابات و المطبوعات ... و الرادار و التلغراف و التليفون ... و كل ما يبحث فيه من خلال الزمان و المكان إلى ما لا نهاية " [4].

و قد حلل " جون لوهيس J.Lohisse " هذه القاعدة قائلا : " إنها القاعدة التي وجدناها - لحد الآن - أكثر كمالا و أكثر أهمية بحيث أننا نجد فيها عناصر عديدة . " بادئ ذي بدء : نجد أن فكرة التواصل هي الأساس الوجودي للعلاقة الإنسانية فالتواصل يحمل العلاقة الإنسانية من المثالية إلى الواقعية ، من اللازمني إلى التاريخي المحدود . إذن بدون تواصل ستكون العلاقة الإنسانية كصورة نبحث لها عن حدود . و بعد ذلك نجد فكرة النسق التي تصبح بواسطتها العلاقة بين البشر فعلا من الأفعال ، و في هذا الميكانزم يصير الترميز أخيرا من مثل الكلمات ، المنقوشات ، الصور... الخ ، وسائل نقل للمعلومات موضوع العلاقة " [5] .

و أخيرا يستنتج " فلامون C.L. Flament " أن أنظمة التواصل هي من أهم مؤلفات أو مكونات الحياة الاجتماعية ، لأنه بدون تواصل لن توجد أي فئة أو أي

---

[1] Une logique de la communication, P : 45 - 46 .

[2] - نفسه ص 16 .

[3] - نفسه ص 16 .

[4] Roger Mucchielli : Communication et réseaux de communications, P : 32 .

[5] - نفسه ص 32 .

جماعة ، و أفراد تلك الجماعة لن يكونوا سوى أشخاصا منعزلين نفسيا ، إذا لم يتوفروا على قسط و لو قليل من التبادل الدال [1] .

إن ظواهر التواصل ذات أهمية كبرى في علم النفس الاجتماعي ، بحيث إذا نفى أو ألغى هذا العلم الحديث عن التواصل فكأنما ألغى شيئا أساسيا . و من الواضح أن لا غنى عنه ، أو لربما يتحدث عنه لوحده و يأتي الحديث عن الظواهر الأخرى في ركابه ، لأن كل ما هو إنساني يؤدي إلى التواصل .

و يجدر بنا أن نلاحظ هنا أن التواصل مجال متعدد التخصصات إلى أقصى حد ، فلئن كانت هناك نظريات و مفاهيم تخص التواصل ، و كان هناك أساتذة للتواصل باحثين في ميدانه فإن جانبا كبيرا من نظرية التواصل ، استمد من تخصصات و ميادين معرفية أخرى ، و ممن يعملون أو عملوا فيها من مثل : العلوم السياسية ، و الاقتصاد ، و علم الاجتماع ، و الأنطربولوجيا ، و التاريخ ، و الاثنوغرافيا ، و علم النفس و فروعه ، و اللسانيات و فروعها ، و السيميولوجيا ، و غيرها من العلوم الإنسانية ، و بذلك تكتسي دراسة التواصل حلة الموسوعية من حيث مصادرها .

و قد أكد الدكتور " هدسون " عالم اللسانيات الاجتماعية " أنه من الصعب دراسة بنية ما ... دون منهج يعتمد على عدد كبير من العلوم المختلفة [2] .

فالتواصل بنية - و لا شك - من البنيات المعقدة التي تفرض لدراستها التسلح بمعارف شتى .

2-التعريف بالمثال :

أما التعريف بالمثال بالنسبة لظاهرة كالتواصل الحاضرة في الوجود كله ، فأمثلتها عديدة في عالم الإنسان و عالم الحيوان و عالم الاختراعات و المبتكرات ، و من جملة ذلك التواصل الفطري و التواصل القصدي .

فالتواصل الفطري القاصر الذي لا يتطور عند الكائنات الأخرى من طيور و حيوانات و حشرات و حيتان، وهو ما نلاحظه عند تلك الكائنات متمثلا في صرخاتها و شطحاتها و نظراتها و حركاتها و لمساتها و إفرازاتها ... الخ. فإذن التواصل ضروري و حاجة ملحة في حياتها . و مثال ذلك ما قام به كارل فون فريش من مراقبة لسلوك النحل يقول : " تقوم الممونة بأداء دائرة بعد أن تتخلص من حمولتها ، فتعدو بخطوات سريعة على الرف - حيث تكون - في دوائر ضيقة ، مغيرة بكثرة اتجاهات دورانها ، راسمة على هذا النحو قوس دائرة أو قوسين في كل مرة مراوحة باتجاه

---

[1] - نفسه ص 32 .

[2] - علم اللغة الاجتماعي تأليف د. هدسون ترجمة محمود عباد، ص : 210 .

اليسار و باتجاه اليمين ، و تتم هذه الرقصة وسط جمهور النحل ، و تكون جذابة و مدهشة ... ، و تبدأ العاملات القريبة من الراقصة ترقص وراءها و تحاول أن تبقي قرونها على اتصال ببطن النحلة و تتبعها في شقلباتها في أداء جيد إلى درجة أنها تصير لها ذيلا ، و تجاري - دون انقطاع - حركاتها الهائجة ، و تدوم هذه الدوامة بضعة ثوان (نصف دقيقة أو حتى دقيقة كاملة) و بعدها تتوقف رقصاتها عن الرقص فجأة و تفلت من أتباعها و غالبا ما تفعل ذلك بهدف الذهاب لبصق بعض العسل في مكان آخر من الرفوف و أيضا في مكان ثالث حيث تعيد الرقصة نفسها ،و عندئذ تتجه فجأة و بسرعة إلى فتحة الخلية و تطير باتجاه مصدر الإقاتة التي اكتشفته لتجلب منه مجددا حمولة جديدة و تؤدي - في كل مرة - المشهد نفسه .

ففي الظروف العادية تؤدي الراقصة الرقصة في ظلام الخلية المغلقة فلا تستطيع بقية النحل رؤيتها . و لئن لاحظت تهيجها و تبعتها عن قرب في كل تحركاتها فذلك بفضل إدراكها اللمسي و الشمي . و الآن ماذا تعني هذه الرقصة الدائرية ؟ ظاهر أنها تجعل النحل القريب منها في ذروة الانفعال فإذا تأملنا - مليا - إحدى العاملات التي ترافق الراقصة ، لاحظنا أنها تتهيأ للطيران و تتبرج قليلا و تنساب باتجاه ثقب الطيران و تترك الخلية . و منذ هذه اللحظة لا ينقضي وقت طويل حتى ينضم نحل آخر إلى النحلة الأولى التي اكتشفتها . و الآتيات الجدد ترقص أيضا عندما تعود أدراجها إلى الخلية محملة . و بقدر ما يكثر عدد الرقصات بقدر ما يتهافت عدد كبير من النحل " [1] .

إن ملاحظة سلوك النحل حمل الباحثين - منذ مدة قصيرة من الزمن - على الاعتقاد بوجود نظام تواصلي قائم بينها .

كما أن بين الطائر و أخيه يمكن الجزم حتما بوجود تواصل فطري بين " أبو الحناء " rouge. Gorge الأوربي عند دفاعه عن مجاله الحيوي بتغريده ، كما أن الباز يعلم بطيرانه المتعرج بقية الطيور المحيطة بالخطر الذي يهددها [2] .

كما تبث أن سمك البحر أو حيتانه في تواصل فطري مستمر " و اهتم العلماء مؤخرا برصد أصوات الدولفين في أعماق المحيط ، و قد تبين لهم أن هذا الحيوان يؤدي بعض الأصوات المختلفة التي تعبر حينا عن الحزن و حينا عن الفرح و حينا ثالثا

---

[1] ميشال زكريا 1984 : الألسنية : قراءات تمهيدية ص 18 - 19 .

[2] ميشال زكريا 1984 : الألسنية المبادئ و الأعلام ص 20 - 28 .

عن طلب النجدة إلا أن النتائج هنا تتجه أيضا اتجاه الإقرار بوجود تنظيم اتصالي [1] حيواني مغلق يملكه الدولفين ، و يحتوي أيضا على لائحة محددة من الأصوات الثابتة اللا متغيرة التي يفيد كل منها واقعا محددا بمجمله " [2] ثم إن السلمون الحوت البحري المعروف الذي يقطع مسافات في البحر طويلة يقوم بسلوكات تنبئ بما لديه من قدرة على التواصل مع فصيلته .

كما أن القرد - و خصوصا أرقاها فكريا الشمبنزي - يقوم بعدة صرخات " منها صرخات سرور تقارب ال هاهاها ، و تصدر عنها عندما يطعمها مدربها أو يغير ماءها ، و منها صرخات واهنة عندما تحزن ، و قد لاحظ بعض الباحثين حصول ردة فعل شاملة تغير سلوك القرود و السعادين [3] خلال فترة الطعام عندما تصدر عن أحدها صرخة قوية يتردد صداها في حديقة الحيوانات ، مما يحمل على الاعتقاد أن هذه الحيوانات تتجاوب - في الواقع - مع هذه الصرخة التي تكون ... (إشارة صوتية) [4] .

فإذن من اليقين أن نقول أن أنظمة تواصل الكائنات ما دون الإنسان أنظمة تنتمي إلى التواصل الفطري الذي يعتمد الصرخات المحدودة و السلوكات الجسدية المتنوعة و الومضات الضوئية [5] .

و التواصل القصدي هو ما ابتكره الإنسان و لا زال يبتكره من أنظمة تؤسس هذا التواصل و تطوره و هي الأنظمة الخاضعة لحواسه التي هي منافذ عقله فبدون هذه الحواس يكون دماغ الإنسان كعلبة سوداء أو كمتاهة نبحث لها عن حدود .

لقد استطاع الإنسان أن يوظف تبعا لذلك جهازا آخر يصلح لوظائف أخرى و هو الجهاز التنفسي الذي يعزف عليه أنغام كلماته و ينشئ و يعيد الكثير من رسالاته الكلامية .

إن الفرق بين التواصل الفطري و التواصل القصدي يتجلى في كون التواصل القصدي في تطور مستمر أما الآخر فإن إمكانياته محدودة ، و من جراء ذلك تنشأ علاقات لهذا التواصل كثيرة من بينها في التواصل الفطري تواصل .

حيوان ⟵ حيوان

حشرة ⟵ حشرة

طائر ⟵ طائر

---

[1] هذا ما أسميه بنظام التواصل .

[2] نفس المرجع ص 23 .

[3] فصيلة من القرود .

[4] نفس المرجع المشار إليه آنفا .

[5] لدى قنديل البحر و بعض الحشرات .

سمكة ⟵ سمكة

و لدراسة تواصل الحيوانات بتفصيل يمكننا العودة إلى دراسة أنظمة العلامات و بالضبط إلى سيميولوجيا الحيوانات La zoosémiotique .

و هناك نوع آخر ينتمي هو أيضا لدراسة التواصل هو دراسة تواصل الخلايا الحية و هو ما يعرف " بالبيونيكا Bionique " و لا شك أن المتأمل في جسد الإنسان أو الحيوان سيرى أن هذه العملية قائمة في جسده حيث تسافر العديد من الرسائل من جهاز الإبصار عبر شبكة العين و العصب بصري إلى مركز الإبصار بالدماغ ، كما تسافر العديد من الرسائل السمعية من الجهاز السمعي الذي هو الأذن بما اشتملت عليه إلى العصب سمعي حتى مركز السمع بالدماغ ليختزن الدماغ سرا أو يحدث أمرا ، و هكذا دواليك يمكن أن تجد هذه العملية في جميع حواسنا التي قلنا عنها أنها منافذ العقل ، فإذن هناك علاقات تواصلية بين :

ج. البصر ⟵ الدماغ
ج. السمع ⟵ الدماغ
ج. اللمس ⟵ الدماغ
ج. الذوق ⟵ الدماغ
ج. الشم ⟵ الدماغ(1)

و قد تحدث العلاقة العكسية انطلاقا من الدماغ إلى سائر الجسد . ثم هناك مثال آخر عن تواصل الإنسان مع الآلات،وهو ما يعرف بالدراسة السبرنتيكية La cybernétique بحيث يقوم الإنسان حاليا ببذل أدنى جهد ليحصل على أكبر منفعة من جراء فعل بسيط صادر عنه ، كأن يضغط على أزرار ، و يتجلى ذلك في أصغر آلة إلكترونية و هي الحاسبة أو جهاز الهاتف المحمول، أو غيرهما من الآلات التي يعج بها عالمنا اليوم فيحدث بذلك أوامر يتم الاستجابة لها فورا ، و من جملة ذلك أيضا أن ترى مهندسا يحرك و يسير معملا بكامله من خلال غرفة فيها كمبيوتر ، فالعلاقة التواصلية هنا تتجسد في حدوث عملية التواصل بين :

إنسان ⟵ آلة
و بين آلة ⟵ آلة

و بدون شك فأمثلة ظاهرة التواصل عديدة و كثيرة و من أجل حصر تعريفها أكثر نلجأ إلى :

3-التعريف بالوظيفة :

و من المؤكد أن للتواصل وظائف يقوم عليها ففي عالم الحيوانات تجد أن التواصل مهم جدا في حياتها اليومية و من جملة ذلك عدة وظائف و هي كالآتي :

- البحث عن القوت أو الغذاء و مثالنا على ذلك ما تقوم به النحلة من رقصات من أجل إخبار أليفاتها بأن هناك حقلا لرحيق الزهور ، كما أن النمل يفرز مواد كيماوية يسطر بها الطريق المؤدية التي سوف يتبعها النمل الآخر في اتجاه قوته الذي وجدته إحداهن و هلم جرا .

- الدفاع عن المجال الحيوي و عن النفس : فالكلاب تنبح من أجل إخبار معلميها بأن غريبا حل ، والديك الحبشي أيضا يصدر صرخات حادة مخبرا بالخطر القادم ... و القردة تصرخ بصوت مزعج لتدرأ عنها استحواذ الغير عليها و تطلب بذلك النجدة من جماعتها و هكذا دواليك . يكثر التواصل تبعا لهذه الوظيفة عند كثير من الخلق .

1- ج تعني جهاز

- الحفاظ على النوع و حب البقاء : تقوم القطة بحركات مغرية أمام القط لجذبه جنسيا كما أن القط يتبول كثيرا هنا و هناك و تشم القطة ذلك فيحدث لها هيجانا يدفعها للقيام بحركات تدل على رغبتها الجامحة في الجماع، كما أن الطاووس يحرك ذيله - و هو أجمل من الطاووسة - ليغري أنثاه بالتزاوج .

و حب البقاء يتجلى في المحافظة على الصغار الذين هم نتيجة العلاقة الجنسية : فالطفل عندما يصرخ - رغم أنه لا يعلم الكلام- فإنه يقول بأنه جائع أو مريض أو مبلل أو ما شابه ذلك ، فتهب الأم ملبية نداءه ، و أفراخ الطيور حينما تفتح مناقيرها مزقزقة ، فإنها تتهافت على قوتها الذي يحمله أبوها أو أمها و الأمثلة عديدة .

و المؤكد أن الوظيفة التي يقوم عليها التواصل عند الإنسان زيادة على الحاجة الطبيعية - كما ذكرنا - حاجات متطورة ، أرقى من ذلك لأن الإنسان ضعيف بنفسه قوي بأخيه .

4-التعريف بالضد :

و بالأضداد يفهم المراد ، و بضدها تتميز الأشياء : إننا لا يمكن أن نحيا بدون تواصل ، فقد أجريت أبحاث عدة من أجل إثبات العكس . فحصل أنه كلما كان هناك اجتماع إلا و نتج عنه سلوك ينبئ بالتواصل، بحيث جمع الباحثون في تجربة ما شخصين في غرفة من الغرف و أوصوهما ألا يتكلما لمدة معينة ، و بعد ذلك لاحظوا أن هذين الشخصين - بعد استخبارهما - أكدا أنهما لم يقدرا على ذلك ، و قاما بتبادل رسائل بديلة عن الكلام من مثل الحركات ، و كان الواحد منهما يفكر في الآخر طوال تلك المدة . لذلك

تأكد الباحثون أننا لا نستطيع ألا نتواصل On ne peut pas ne pas communiquer.

5-التعريف التاريخي :

هو جواب عن سؤال : هل التواصل حادث أم أنه قديم قدم التاريخ ؟ إننا نجد أن عملية التواصل لم تنشأ اليوم فقط بل كانت حاضرة منذ الزمن الغابر و توالت تباعا إلى يومنا الحالي ، و مثال ذلك أن الكائنات الحية كلها كانت تقوم بهذه العملية بصفة فطرية منذ أقدم العهود و توالت رسائلها محمولة من مجموعة إلى أخرى، و من جيل إلى جيل ،ومن فئة إلى أخرى في تواصل عبر الزمن ، و كذلك الشأن في التواصل القصدي بحيث نرى أن الإنسان استفاد من تجارب الأمم الماضية من جراء كسبه المعرفي بالطريقة المباشرة أو بالطريقة غير المباشرة ، و تتجلى الأولى في احتكاكه بالغير ، و أما الثانية بأخذه من رسائله المكتوبة أو الرمزية المعلومات التي بنى عليها حضارته اليوم .

5.ألتواصل البشري :

وجد علم المنطق و قواعده ليعصم الفكر من الوقوع في الخطأ ،ووجد علم التواصل و منطقه ليصون عند معرفة قواعده و كيفية اندماج عناصره في عملية التفاعل البشري - تحقيق التفاهم ومن ثم حصول النجاح لفعل التواصل .

و ظهرت أهمية التواصل كعامل مهم في استمرار الحياة وازدهارها على وجه الأرض منذ زمن بعيد ، و لعبت وسائل الاتصال دورا كبيرا في نمو الفكر الإنساني و تقدم الحضارة الإنسانية ، و اتخذها كثير من العلماء و الباحثين معيارا عند المقارنة بين الحضارات و الشعوب المختلفة بحيث يقاس مدى رقيها بما أحرزته من تقدم في هذا المجال .

و لو نظرنا إلى تاريخ الإنسانية لرأينا كيف استعان الإنسان منذ بدء الخليقة بأساليب متنوعة ، ووسائل كثيرة للتعامل في الحياة والتفاهم مع الناس بالتعبير عن آرائهم و أفكارهم و ما يجول في خواطرهم من أحاسيس ومشاعر . لم تكن الكلمة المنطوقة هي أسلوبهم الوحيد في ذلك رغم أن التواصل المنطوق المسموع المرئي يعد أسبق تواصل إنساني و أوسعه انتشارا ، و يعد ما ينتجه الفرد العادي من كلام منطوق أكثر بكثير مما ينتجه من تواصل مكتوب أو غير مكتوب . و لقد لجأ الإنسان إلى الرموز و الإشارات و جعل منها لغة التفاهم كما استعان

بالوسائل المحسوسة في التعامل و في إتمام كثير من عمليات البيع و الشراء لأن التواصل يشكل صنفا من جنس التبادل ضمن العلاقات الاجتماعية لذلك كان الإنسان في أمس الحاجة إلى التواصل و من ثم نرى أن التواصل تتجاذبه أبعاد ثلاثة :

البعد المكاني .

البعد الزماني .

و بعد التبادل .

و يمكن رسم ذلك في التصميم التالي :

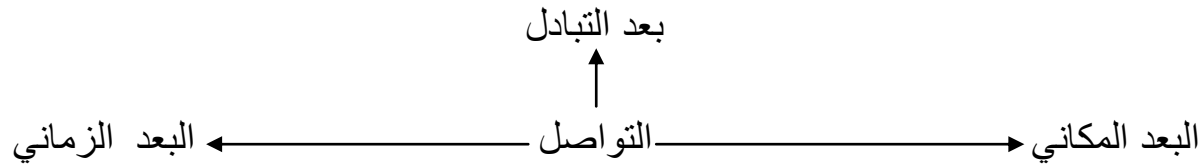

5-أ-1 <u>بعد التبادل</u> :

فلئن كان التواصل شكلا من أشكال التبادل كما حدد ذلك علماء الأنطروبلوجيا ، فالتواصل هو الهدف ، إذ عندما تقوم عملية التبادل تتحرك معها على الفور - وبشكل مواز- عملية التواصل ، فلا يحدث تبادل دون تواصل ، و يشرحه جون كازانوف (Jean cazanoeuve) بقوله : " تعني communiquer في الاشتقاق الفرنسي تحويل ما هو فردي إلى ما هو جماعي ، و هذا هو الشرط الوحيد للحياة الاجتماعية .

و بصفة عامة فإن التواصل ، يرتكز على تبادل مشحونة بدلالات ، و يمكن أن يظهر تحت أشكال متنوعة بحيث كما لاحظ ذلك " كلود لفي شتراوس " في كتابه الأنطربلوجيا البنيوية - أن التواصل يمكن أن يشمل أيضا تبادل النساء بين الجماعات و كذا الحاجيات و الخدمات أو تبادل الكلام .

إن التواصل يردنا إلى جنس التبادل الذي يشكل التواصل منه صنفا من جهة ، و من جهة أخرى ، فإن هذا الصنف يشكل الشرط الوحيد لوجود أصناف التبادل الأخرى . فبتواصلنا نتبادل رسائل أو معلومات ، و بتبادلنا لحاجيات ذات طبيعة متنوعة نتواصل. إن فهم التواصل يتمركز على جدلية التبادل و هي تدور على الأقل بين متبادلين Co-échangistes كما يقول علماء الاقتصاد ، بحيث إن الرسائل المشحونة بالدلالة تشكل الوسيلة الوحيدة القارة للتواصل " [1] .

[1] Denis Huisman : Le dire et le faire, p : 15.

إن التواصل على هذا النحو يشكل " الميكانزم الذي تتواجد و ترتبط من خلاله العلاقات الإنسانية " [1] . كما قال " شارل كولي Ch.cooley " ، إذن فالتواصل هو الأساس الوجودي للعلاقة الإنسانية . و قد قال ميشيل فوكو Michel Faucault : " إن البحث في الظواهر الاجتماعية يتمركز أكثر فأكثر على عملية التواصل " [2] .

إن التفاهم و التواصل المتبادل يشبه عملية التنفس بالنسبة لأمة ما وهذه العملية بالذات هي التي تتحكم بالذات في وجودها و حريتها و حياتها إننا نتواصل لضرورة ملحة ، و لأن أي واحد منا لا يعرف إلا القليل و يحتاج لما يعرفه الآخرون .

5-أ-2البعد المكاني :

أما البعد المكاني فإنه شديد الارتباط بالبعد السابق بحيث إننا نتبادل المنافع المادية في مسافات قد تقصر و قد تبعد . فإذا قصرت احتجنا في ذلك إلى أبسط الطرق ليصل بعضنا بعضا من مثل السير على الأقدام ، لكن ما العمل إذا بعدت المسافة ؟ إن الإنسان منذ قديم الزمان ، و هو يفكر أن يبدل أدنى جهد ليحصل على أكبر منفعة ، و من ثم تراه قد سخر الدواب و صنع الفلك التي تجري في البحار بما ينفع الناس ، و سخر الطير من مثل الحمام الزاجل لإيصال الرسائل و استغل النار و الدخان و الآلات الموسيقية النفخية منها و النقرية على قمم الجبال و في السهول و الغابات لإخبار القبيلة و الحاكم بالخطر القادم .

و ما زالت كل هذه الوسائل أو بعضها معتمدة إلى يومنا الحالي ، رغم تطور وسائل المواصلات ، البرية ، و البحرية ، و الجوية . و رغم ابتكار المواصلات السلكية و اللاسلكية ، كما استغل الإنسان الأمواج الهرتزية و فكر في الأقمار الاصطناعية ، و توالت الاختراعات ، و أضحى العالم يعج بالابتكارات الحديثة ، التي ما فتئت أن قربت البعيد و يسرت كل ما هو عسير المنال ، و لم نعد نقرأ الرسائل التي تأتينا عبر البريد فقط، بل صرنا نقرأها عند وصولها عبر التلغراف و التلكس و الفاكس ، بل لم نعد نقرأ إنما صرنا نسمع عبر التلفون و الراديو بحيث تنقل لنا الأخبار طرية على التو و قد نحاور و نناقش و نتبادل الرأي ، بل إننا لم نقتصر على المسموع و بقيت في الإنسان حاجة إلى المرئي ، و من ثم طور وسائله فيما فكرفيه و دبر، حيث تاقت نفسه لأن يسمع و يرى طبقا للمثل سائرا : " ليس الخبر كالعيان" أو تبعا لقولهم : " ليس من سمع كمن رأى " . و من ثم تلقى الإنسان الخبر

---

[1] Reger mucchielli : communication et reseaux de communication, p : 12.

[2] Denis Huisman : Le dire et le faire, p : 15.

مشفوعا بالصورة المتحركة عبر معيد الإرسال إلى جهاز الاستقبال الذي هو التلفاز ، ثم طورت الوسائل إلى غاية أن صرنا نحاور و نناقش عبر الشاشة المرئية أي عبر الحاسوب الخاضع لشبكة الأنترنيت .

5-أ-3البعد الزماني :

أما البعد الزماني ، فإن الإنسان لم يفكر في أن يتواصل في الحال بل فكر في الأجيال التي سوف تخلفه على وجه البسيطة ، فرغم أن الرسائل الشفوية اللغوية يورثها الجيل السابق للجيل اللاحق في تواصل دائم و مستمر فإن خوف الإنسان على مر الزمان من اندثار أثر رسالته كما في قول العرب : " الكلام أقوى هدرا و الكتابة أبقى نظرا " ، و مثيله قول الإفرنج : " La parole s'envole et l'écrit reste " ، مما حدا بهذه الأمم و غيرها إلى أن يدونوا معارفهم في مهارق الأولين وصحف الأقدمين ، و من ثم وجدت الصور و الرسومات التوضيحية و المسلات و النقوش منذ آلاف السنين ، و عثر عليها في كثير من الآثار القديمة ، و يمكن أن نشاهد ذلك في معابد قدماء المصريين ،و في النقوش على الحجارة و في مسلات الحروف المسمارية ، و هي تصور الحياة في هذه المرحلة من تاريخ الإنسانية و تشرح المناسك و الطقوس الدينية و توضح عادات و تقاليد ممارسة أمور الحياة ،و تسجل معتقداتهم و إنجازاتهم ليستفيد الخلف من السلف في تواصل دائم و مستمر عبر الأجيال ، و من جملة ذلك ما أوصى به الرسول محمد (ص) في خطبة حجة الوداع حين قال : فليبلغ منكم الشاهد الغائب ... " و من خلال ذلك يتبين أن على الصحابة أن يبلغوا الرسالة إلى التابعين و من التابعين إلى تابع التابعين إلى يومنا الحالي ، و هكذا مرت جميع الرسائل السماوية و المعتقدات الإنسانية من جيل لآخر .

5-ب أنماط التواصل :

من المؤكد أن أنماط التواصل تقوم على علاقات تربط المرسل بالمستقبل أيا كان هذا المرسل أو المستقبل ، و نحكم على هذه العلاقة بأنها تواصل أو نمط من التواصل ، إذا كان يتضمنها قصد تواصلي ، و من جملة هذه الأنماط ما رآه " بنفنست " و هو يدرس سيمولوجيا التواصل القائم بين :

- تواصل طبيعي
  - إنسان ← إنسان
  - إنسان ← حيوان
  - حيوان ← حيوان
- تواصل تقني
  - ثم إنسان ← آلة

و آلة ⟵ آلة

الله ⟵ العالمين : تواصل متعالي

و العلاقات الثلاثة الأولى يمكن وصفها بأنها علاقات طبيعية ينتج عنها تواصل طبيعي ، بينما العلاقتان الأخيرتان ، فإننا نقول عنهما أنهما يشكلان التواصل التقني ، أو ينجم عن تشابك العلاقات توالد علاقات أخرى معقدة ،وآنئذ يختلط ما هو طبيعي بما هو تقني كما يتشابك ما هو تقني بما هو طبيعي .

و نلاحظ كذلك أن هناك نمطا خاصا لم يعره علماء التواصل كبير اهتمام و هو التواصل المتعالي القائم بين الله و العالمين .

و هكذا فإن أنماط التواصل الإنساني تتوزع بين صنف الإخبار و صنف الحوار ، فالإخبار يسري في اتجاه واحد بمعنى أن المرسل و المستقبل يحتفظ كل واحد منهما بدوره المنوط به .

و يتمثل ذلك في أن الإخبار يكون في حالة التواصل الجماهيري أو اتصال شخص بمفرده بشخص آخر أو استماع شخص بمفرده أو مجموعة أفراد لخبر خطيب ،أو وسيلة من وسائل نقله كالراديو و التلفزة و ما إلى ذلك و يمكن أن يبين ذلك في رسم بياني كالآتي :

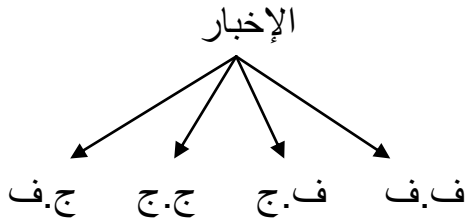

و نقصد بالرمز - ف : فرد

- ج : جماعة

و يتمثل صنف الحوار في كونه ذو طبيعتين : إما حوار ذاتي أو حوار جماعي . فالحوار الذاتي Le monologue يقوم فيه الحوار مع الذات المتكلمة نفسها ،و لا تتعداها لغيرها، و يكون ذلك في حالة التفكير و التأمل ،و في حالة الإنشاد و الترنم و ما إلى ذلك .

أما الحوار الجماعي -واعتبارا للعدد الناشئ عنه هذا الحوار- فهو ينطلق من العدد " اثنان " -و هو أصل الاجتماع- لذلك فإن الحوار الاجتماعي ينقسم إلى حوار وجها لوجه ،أو حوار فرد مع جماعة ،أو حوار جماعة مع فرد ،أو جماعة مع جماعة ، و يمكن تبيان ذلك في الرسم البياني الآتي :

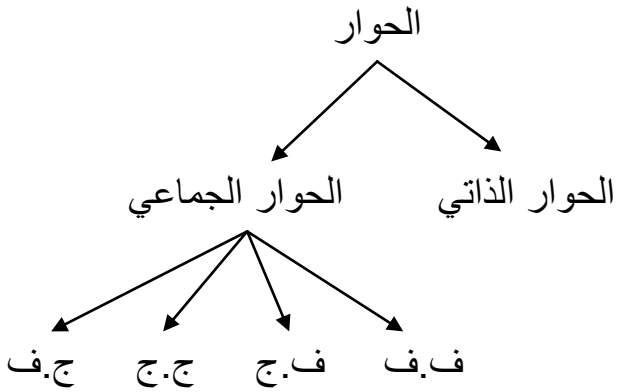

علما بأن التواصل و أصنافه الوضعية ، إما أن تكون مباشرة أو تكون بواسطة أو مركبة . و من ذلك ينشأ التواصل المتسلسل غير المباشر كما في حالة الترجمة و ما عداها من الحالات الأخرى .

أما في حالة التواصل المتعالي الذي يحدث بين الله و العالمين ،فإنه وقع كما حدده الكبير المتعالي بقوله جل علاه : (و ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم ، و كذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان لكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [1] .

و هكذا يتحدد التواصل المتعالي في الخطاب الإلهي المبتدئ من الله عز و علا إلى النبي المرسل إما وحيا -أي إلهاما من الله- أو من وراء حجاب ، كما هو الشأن مع كليم الله موسى أو أن يبعث الله ملكا كما فعل مع محمد (ص)، و من ثم يبلغ الرسول أمته ، ليبلغ الشاهد الغائب على التوالي ، كما فعل الصحابة و التابعون رضوان الله عليهم.

و هكذا تتعقد شبكة التواصل و خيوطها في مثل هذا الصنف ، و يمكن التمثيل لذلك بالرسم البياني التالي :

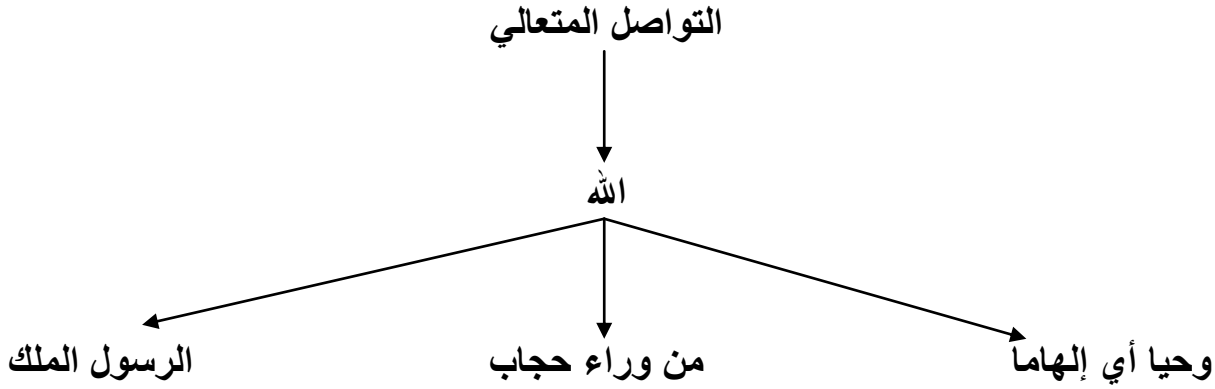

[1] سورة الشورى 51 - 52 .

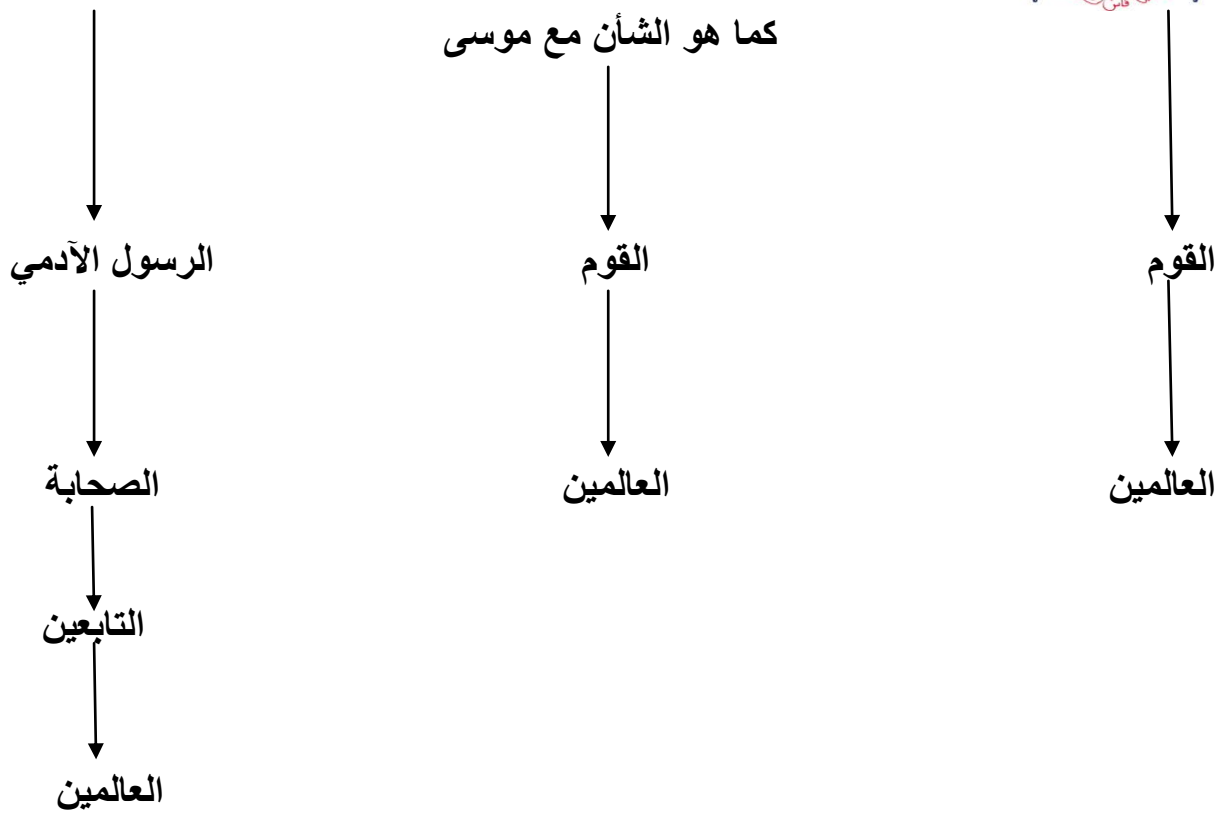
كما هو الشأن مع موسى
القوم
العالمين
القوم
العالمين
الرسول الآدمي
الصحابة
التابعين
العالمين

و على هذا الأساس يتم التواصل بين الله - عز شأنه - و الملك، و بين الملك و الرسول ، و بين الرسول و العالمين . فالملك و الرسول - إذن - واسطة بين الله و عباده في تبليغ ما أنزل إليهم من أحكام و عبادات ، فكأنهم سمعوا ذلك من الله مباشرة . و قد أثبت الغزالي - حجة الإسلام - أننا نقول : " سمع فلان كلام المتنبي ، و إن سمعه من غيره "[1] و احتج كذلك بالآية الكريمة " و إن أحد المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله "[2] و إن كان لم يسمعه مباشرة من الله .

و هذا شبيه بما يعرف حاليا بالوسيط المعزز Le relais و يسند إليه تقوية و تعزيز الرسالة، و مثالنا على ذلك المركز الإذاعي الكبير يعزز الرسالة و ينشرها في رحاب كبيرة عبر الأثير. كما أن المترجم الذي يقف واسطة بين متكلم لغة و متكلم لغة أخرى يقوم بنفس الدور.

و طريق فهم المراد من الرسالة يكون خاضعا لمستويات . و الظاهر أننا حينما نختبر التواصل جيدا في مثل هذه الحالات نجد أن دور بعض الأشخاص ثانوي لكنه هام جدا ، فحينما تصلهم الرسائل قاصدة إياهم يعززونها بموافقتهم و ضمانهم و دفاعهم عنها،هم في الحقيقة وسطاء ذوو أهمية بالغة ، فبين الشركات نجد الممثل ، و في حالة قضايا المحاكم نجد الوكلاء ، و في حالة الأحزاب السياسية نجد النواب ،و في حالة المحطات الإذاعية الصغرى هناك محطات إذاعية كبرى ، و في حالة مركز الإرسال التلفزيوني هناك القمر الاصطناعي الذي يستقبل الرسالة الملقاة إليه من محطة إرسال ما ليقويها و يبعثها في وضوح و جلاء تامين إلى منطقة ظل شاسعة في رحاب المعمور و هلم جرا.

فالرسول - إذن - مكلف بتبليغ رسالة ربه و هو الوسيط بين المرسل الأول و المستقبل النهائي - أي الله العالمين - و هكذا يصير هذا الوسيط و كأنه المرسل الأول . فإذن يشكل نمط التواصل المتعالي أحد هذه الأنماط .

---

[1] - الغزالي : المستصفى ج1 ص 337 .

[2] - نفسه.

5-ج التواصل التقني

بحثا عن بدل أدنى جهد للحصول على أكبر منفعة-ثانية- لم يدخر الإنسان جهدا مذ و جد على وجه البسيطة ، و نمط التواصل المحكوم بالأبعاد الثلاثة المذكورة أعلاه ،من بعد التبادل في علاقته مع البعد الزماني و المكاني ، لم يصل إلى ما سوف نراه إلا بعد مخاض من التطور التاريخي في تعامل الإنسان مع حاجياته المتبادلة مع أخيه الإنسان .

و من أجل أن يضبط الإنسان سلوكياته المختلفة و مظاهر الحياة المتنوعة، حاول تحليلها و تصنيفها ثم تقعيدها ليسير الناس على منوال واحد موحد .

و على غرار ذلك نشأت علوم التواصل التي سوف تحكم لنا منطق التواصل لأنه " من الواضح أن الإنسان منخرط منذ ولادته في الإجراء المعقد لاكتساب قواعد التواصل ، لكنه من الجائز ألا يعني إلا قليلا ما يؤسس بنيه هذه القواعد أو لنقل عملية التواصل الإنساني " كما ذكر أصحاب منطق للتواصل .

إن دراسة التواصل و تداوله كما يقول هؤلاء يكتسي طابع الموسوعية [1] إذ و لاشك تتوزع مشاربه لتدل على غناه ، لذلك كانت هناك ثمة علوم للتواصل ، و بقدر ما يتدخل فيها و يتحكم تساهم هي في إثراء منظومته فلا هو بالسيميولوجيا و لا هو باللسانيات و لا هو بالأنطربلوجيا و لا هو بالتاريخ و لا هو بعلم النفس و لا هو بعلم الاجتماع ولا هو بعلم التربية و لا هو بعلم الإعلام ، و لا هو بالعلوم الأخرى الدقيقة كالرياضيات و البيونيكا و الطب و الهندسة و هلم جرا ، إنه ثمة شيء من هنا و هناك إنه يشمل مظاهر الحياة الإنسانية التي يكمل بعضها بعضا ، لذلك نشأت نظرية التواصل لترتيب هذه الفوضى و تصنيف ما يجب تصنيفه و تقعيد ما يجب تقعيده خدمة لمصالح كل هذه المجالات المعرفية.

5-د نظرية التواصل و تلويناتها :

إننا نسعى إلى الرقي إلى مستوى التنظير لكسب مفتاح مغاليق الأمور ، لذلك كانت الرياضيات تشتمل على عدة مفاتيح ، لأن الإنسان لما يرتقي لمستوى التجريد الرمزي يكون قد مر بأطوار عدة أوصلته إلى هذا التفكير ، و من ثم تأمل الإنسان في ظاهرة التواصل الوجودية في شتى مجالات الحياة : كالحيوان و فصائله المتنوعة و الحشرات ومثيلاتها،والأسماك و أنواعها و الطيور مع اختلافها ، كما لاحظ الإنسان تواصل الخلايا

1-p.watzlawisck ,J.Helmick Beavin,Donp.Jakson:trad fr.Janine Morche ,p7

الحية في أجسادها و بنياتها ، مما شكل لديه انطباعا على وجود التواصل الفطري في الكون لا محالة .

و يمكن تصميم ذلك فيما يأتي :

حيوان ⟵ حيوان [1]

حشرة ⟵ حشرة

سمكة ⟵ سمكة

طائر ⟵ طائر

إضافة إلى اتصال الخلية ⟵ خلية أخرى.

و الإنسان واحد من جملة هذه الحيوانات المذكورة آنفا لكنه أرقاها على الإطلاق لما امتاز به من تطوير حياته الاجتماعية، و من جملة ذلك اكتسابه للغة و بحثه عن أنظمة علامات أخرى بديلة دعته إليها مقتضيات الحاجة الملحة مما أفرز لنا نوعا من تواصل آخر هو ما يدعي بالتواصل القصدي ، وتشعب عنه التواصل التقني الذي كانت تحكمه منذ الزمن الغابر المسلمة العالمية " بذل أدنى جهد للحصول على أكبر منفعة " .

و بذلك أرسى الإنسان دعائم تواصله بأخيه الإنسان في شكل مباشر أو غير مباشر يمكن التمثيل له بما يأتي :

في التواصل القصدي الطبيعي :

إنسان ⟵ إنسان [2]

التواصل القصدي التقني :

إنسان ⟵ آلة ثم آلة ⟵ آلة

و من ثم ظهرت نظرية التواصل بتلويناتها و تفريعاتها .

فلما نشر كلود شانون Claude Shannon سنة 1939 مقاله الشهير " التحليل الرمزي للوسائط و مدارات الربط "

" Analyse symbolique des relais et des circuits de connexion "

كانت هناك محاولات قد سبقتها لإنشاء آلات كهربائية قادرة على إنجاز عمليات منطقية ، في حين شرح شانون - و لأول مرة - كيف يمكن لمحاولات و براهين جملية أو قضياتية أن يعبر عنها بأجهزة كهربائية و روابط كهربائية .

---

[1] - إن حصل هذا بشكل فردي أو جماعي .

[2] - في الشكل الفردي أو الجماعي .

مما جعل دخول أبحاثه حيز التطبيق إلى اختراع كالن Kalin و بروكيت Burkheat للحاسبة الإلكترونية الأولى سنة 1947 و هي ما يشكل أقدم عقل إلكتروني في عصرنا الحالي .

فمن هو شانون ؟

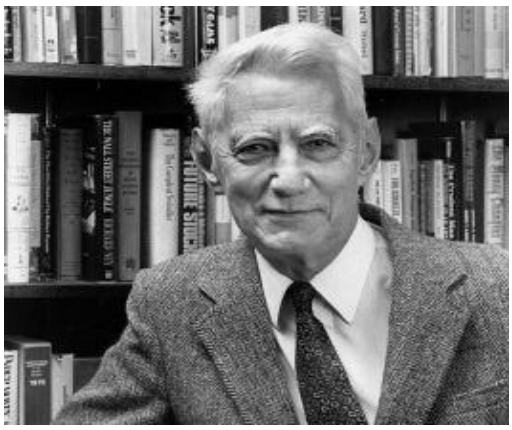

كلود إلوود شانون ازداد في 30 أبريل 1916 بولاية ميشيكن الأمريكية و توفي في 2001 بميدفورد ماساشويط ، و هو مهندس كهربائي و رياضي أمريكي و يرتبط اسمه بالتصميم الشهير المعروف بتصميم شانون المتداول كثيرا في العلوم الإنسانية و الذي ينكره دائما . درس الهندسة الكهربائية و الرياضيات بجامعة ميشيكن سنة 1932 و ناقش بحثه في الجبر " البوليني " سنة 1938 في معهد ماسشوسيط للتكنولوجيا MLT ، و فيه يشرح كيف نصنع الآلات معززة باستعمالنا لجبر بول Boole لوصف حالة الآلات المعززة (1 منغلق و 0 منفتح) .

عمل شانون 20 سنة في معهد ما ساشوسيط التكنولوجي MLT - أي من 1958 إلى 1978 و بموازاة مع أنشطته الأكاديمية ، اشتغل أيضا بمختبرات " بل Bell من 1941 إلى 1973 و أثناء الحرب العالمية الثانية اشتغل شانون مع المصالح السرية للجند الأمريكي مركزا على تفكيك الرسائل السرية بطريقة أوتوماتيكية في شفرة العدو المحفوفة بالتشويش .

ونجم عن ذلك نشره سنة 1948 لمقال سماه :"نظرية رياضية للتواصل" أعيد نشره ثانية سنة 1949 في كتاب مع إضافات لأستاذه فارن ويفر ويركز هذا الكتاب على إشكالية نقل الرسالة .

و فارن ويفر عالم أمريكي مزداد سنة 1894 و متوفى 1978 و هو رياضي و مدير أبحاث ، و قد عرف أنه من أوائل المفكرين في الترجمة الأوتوماتيكية، وهو أحد الوجوه المهمة التي طورت البحوث العلمية ،و قدمتها في مؤسسة روكفل Rock felle .

إن المشكل الأساسي في نظرهما هو أن نعيد إنتاج رسالة اخترناها في نقطة بداية كان مصدرها الإنسان .

و تصميم نظريتهما أتيا به على الشكل التالي :

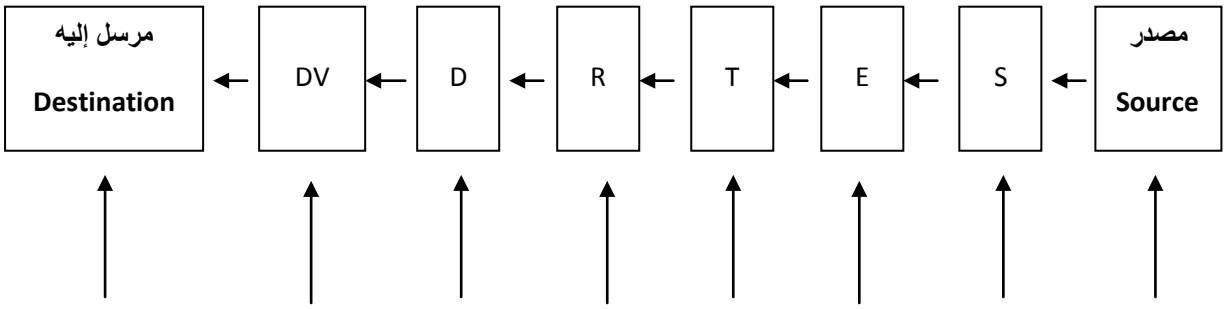

التشـــويـــش Le bruit

مفتاح الرموز :

S : المختار Sélection

E : المركب Encodeur

T : الناقل Transmetteur

R : المستقبل Récepteur

D : المحلل Décodeur

DV : المترجم Développeur [1]

وصادف أن جندت الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية مبالغ كبيرة وإمكانيات جمة وهائلة للبحث عن أفضل الوسائل وأسرعها لتدريب الجنود على

[1] - د. نور الدين رايص 2007 : نظرية التواصل و اللسانيات الحديثة .

استخدام الآلات الحديثة ،ولما كانت الظروف تقتضي سرعة إجراء عملية التدريب ، وتجنب الإسراف في المجهود المادي والبشري،اتجه العلماء إلى البحث في سيكولوجية التدريب،وهي التي تفرض دراسة سلوك المدربين في مواقف عملية قريبة أو شبيهة كل الشبه من مواقف الجندي في الميدان وقت استخدام الآلة ، و قد نتج عن هذه البحوث أن لاحظ بعض العلماء أن هناك شبها ملحوظا بين الإنسان كجهاز ذاتي للتحكم و التوجيه ، و بين نظم الضبط الذاتي " الكهروميكانيكية " ،كما تتمثل في الآلات الحاسبة و العقول الإلكترونية و غيرها .

و كان نوربر فينر Norbert Wiener من أوائل من لاحظوا هذا الشبه .

فمن هو نوربر فينر Norbert Wiener ؟

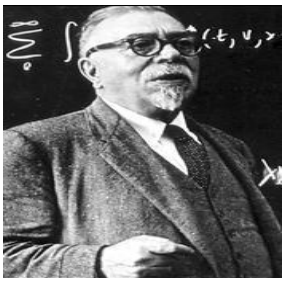

هو رائد السبرنتيكا الحالية ازداد في كلومبيا سنة 1894 و توفي سنة 1964 إنه عالم رياضيات أمريكي أخذ دراسته في هارفارد و كامبردج و جوتنجن و كلومبيا ، وكان ضليعا في الرياضيات فدرسها في معهد ماستوسيكا للتكنولوجيا ابتداء من سنة 1919 MLT .

لم يكن فينر مهتما بالرياضيات فقط بل بالفيزياء الرياضية أيضا ، و انطلاقا من سنة 1920 شرع في تدريس حركية براون Mouvement brownien مدخلا عليها قياسا سماه مقياس فينر ، وأثناء الحرب العالمية الثانية أنجز أشغال بحث تخص التقنيات المضادة للدفاع الجوي ، واهتم بالحساب الأوتوماتيكي و بالاستجابة ، ومن ثم أنشأ علم السبرنتيكا ، و في السنة التي نشر فيها شانون مقاله الشهير - أي 1948 - نشر فينر كتابه السبرنتيكا ولقي نجاحا منقطع النظير ، و ألح على أنه لا يجب اعتبار الآلة كهدف أخير لكنها فقط وسيلة لتحقيق مطالب الإنسان بمعنى أنها جزء من النسق الإنساني الآلي ، و نشر فينر عدة كتب تبين سيرته الذاتية وحلل فيها مسؤولياته العلمية كباحث في عصره .

و استخدم كلمة سبرنتيكا لوصف هذه العلاقة و هي تسمية أطلقت على الرجل المتحكم في الآلة انطلاقا من جذرها اليوناني Kybernite، وعرفت السبرنتيكا نجاحا كبيرا ، و نسب الجمهور إليها صنع الإنسان الآلي والإرشاد الأوتوماتيكي فهي إذن

" نظرية الأنساق المعقدة التي تراقب نفسها بنفسها و هي أيضا نظرية التواصل الآلي و الحيواني " [1] .

و أهم ما في الأمر في ما أورده فينر هو الفعل العائد أو الاستجابة Feed-Back " بحيث أن تسلسل الأحداث يكون موجها أوتوماتيكيا حسب أوامر متتابعة و ذلك آت من الميكانيزم ذاته أي من التوجيه الذاتي Auto régulation و هو مجال تطبيق السبرنتيكا " [2] .

و بعيد المنهج التقني في التواصل -وعلى غرار ذلك- أتى نموذج لاسويل السياسي و هو التصميم المعروف بالتصميم الميكانيكي الشهير المبني على أسئلته الخمسة المتداولة و هي :

من يتكلم ؟ عم يتكلم ؟ إلى من يتكلم ؟ بأي وسيلة ؟ ما هي النتائج ؟

فمن هو هارولد لاسويل ؟

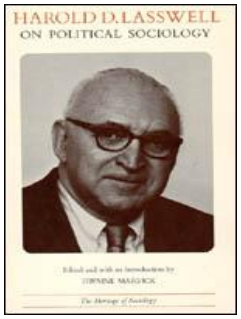

هارولد دويت لاسويل (13 فبراير 1918 - دجنبر 1978) زعيم علم السياسة الأمريكية و منظر في عالم التواصل، كان عضوا في مدرسة شيكاغو الاجتماعية و طالبا في جامعة يال في تخصص العلوم السياسية .

و هو رئيس الأكاديمية العالمية للعلوم و الفنون (WAAS) و رئيس الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية (APSA) و له مواقف خاصة من الديمقراطية المتداولة آنذاك ، وهو معروف بأسئلته التواصلية الخمسة المذكورة آنفا،وعلى الصعيد السياسي معروف أيضا بتعريفه للسياسة أنها :من يحصل على ماذا متى و أين ؟

و يزعم لاسويل أن الظاهرة التواصلية تقطع إلى أجزاء منسقة ، و كل نسق تواصل ينتسب إلى تحويل رسالة مادية - أو صارت مادية - بين المرسل E و المستقبل R و ذلك ما يتجلى في التصميم التالي :

---

[1] - Roger Mucchielli : Communication et réseaux de communication p : 16 .

[2] - نفسه .

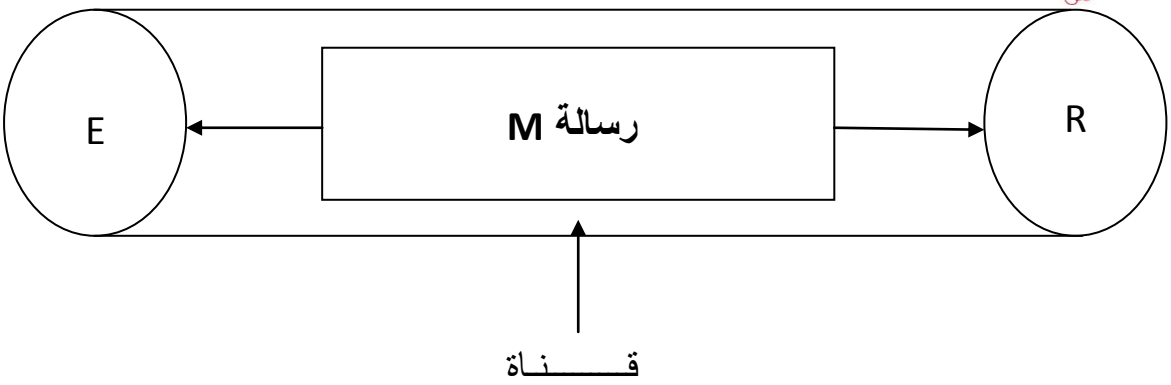

و في حالة المستقبل الوسيط أو المعزز Récepteur relais سنسمي نقطة وصول الرسالة بالمدخل input و نقطة انطلاقها ثانية بالمخرج output و الفاصل بين المدخل و المخرج علبة سوداء Boite noire تقوم بدور التحليل و تصميم ذلك كما يلي:

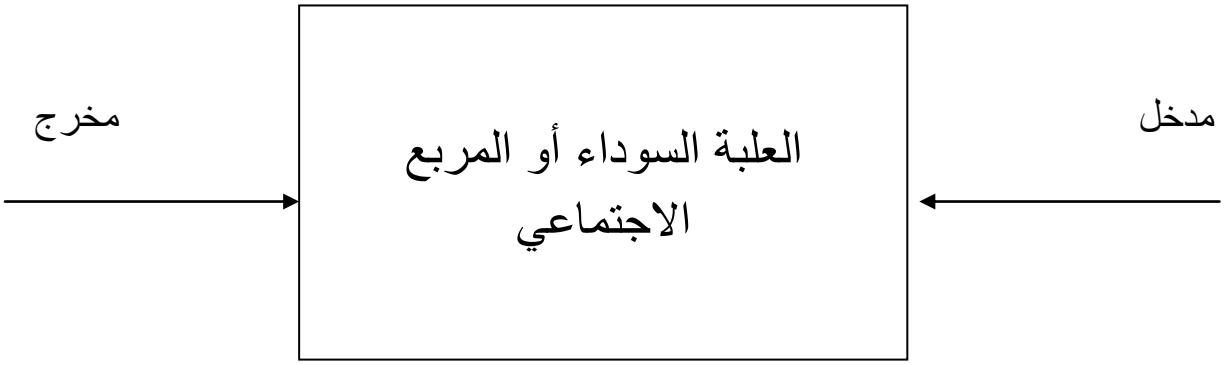

و قد رسم لاسويل عند حصول التواصل دوائر تحدد نجاح فعل التواصل و فشله بحسب قدرات المرسل و المستقبل [1] .

و قد انتشر تصميم شانون فيما تلاه من أبحاث مكتسبا تغيرات بحسب المجال الذي طبق فيه ووظف فيه ، و من جملة ذلك ما ورد في نموذج إسكاربي R.Escarpit المعروف بالنموذج الميكانيكي Le modèle mécanique ،وهذه صورته ويليها التصميم الذي أتى به:

[1] - أنظر نظرية التواصل و اللسانيات الحديثة ص : 51 .

قناة

Canal

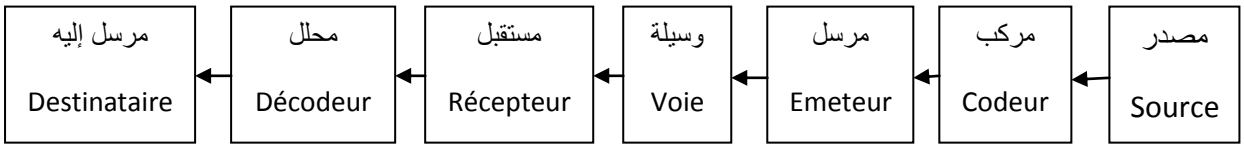

فنقل الخبر - إذن - يتم انطلاقا من المصدر إلى المرسل إليه مرورا عبر الطاقة التوجيهية Energie Vectrice التي تعبر من المرسل إلى المستقبل ،و يسجل المركب Le codeur في التوجيه الطاقي التغييرات المنبعثة من المصدر، ويعمل المحلل Le décodeur على تحديدها ثم بعثها إلى المرسل إليه، وبين المرسل و المستقبل وسيلة هي التي تشكل الجزء أو الكل من الناقل conducteur ،وهذه الوسيلة تنقل الطاقة المتغيرة. أما القناة Le canal فتشكل مجموع الجهاز الكائن بين مخرج المصدر و مدخل المرسل إليه ، و يشرح إسكاربي قائلا أن هذا الرسم البياني لا ينطبق على المواصلات السلكية و اللاسلكية فقط بل حتى على التخاطب البين - شخصي . ثم توالت النماذج تارة مقلدة و أخرى مغيرة بعد أن سحب المفهوم الرياضي منها و أبقي على ما يناسب المجال الذي استعملت فيه النظرية.

و من ثم أتانا نموذج رومان جاكبسون اللساني الشهير الروسي نشأة والأمريكي دارا وقرارا ،وهذه صورته :

وتصميم نموذجه كالآتي:

و هكذا -كما ذكر جاكبسون في مؤتمر جمع اللسانيين سنة1956- قال : " أتى زمن المهندسين "، فاستعار الناس منهم نظريتهم و اصطلاحاتهم و صاغوها بحسب ما يناسبهم و يحلو لهم .

-نموذج جاكبسون التواصلي ووظائف اللغة

لعل أخذ جاكبسون بالنموذج الرياضي للتواصل فيه تجاوز ومحاولة للتطوير لخدمة أهداف لسانية وأدبية جمالية واجتماعية، وهو ما يظهر عند تساؤله عن الوظائف التي يريدها كل عنصر من عناصر النموذج التواصلي.

وهنا تندمج اللسانيات بالسيميوطيقا لتتآلف في شكل "سلوك جديد يحتوي على نظرية عامة للعلامات وخصائصها المشتركة"[1].

إن الفكرة الأساسية لجاكبسون –والتي تطورت بفعل تصميمه الشهير للتواصل - هي نقل المقامات الاجتماعية في إجراء وحيد، أما الجزئيات الواقعية الأخرى فإنها لا تؤثر في شمولية الإجراء ومن ثم "ستوصف المقامات الاجتماعية طبقا لمقام شامل situation

[1] - langage et communication sociales p : 26.

canonique وهو المصطلح الناسخ للتعبير الرياضي "المعادلة الشاملة Equation canonique"[1].

ففي مجال اللسانيات التطبيقية، نجد أن هذا التصميم ذائع الصيت لدى كثير من اللسانيين والأدباء، لأن جاكبسون حلل فيه العلاقات بين اللسانيات والشاعرية موظفا الأدوات النظرية لمهندسي التواصل.

وبذلك أظهر جاكبسون الوظائف الستة للعناصر الستة التي يعتبرها مكونة لكل قضية لسانية.

وهناك اختلافات واردة عند من ترجم نموذج جاكبسون التواصلي والعناصر المكونة له[2]، وسنأتي بذلك النموذج كما ورد عند صاحبه، وهكذا نجد جاكبسون يقول: "يبعث المرسل رسالة إلى المستقبل ولكي تكون الرسالة مؤثرة (أو فاعلة) فإنها تحتوي على مرجع contexte تحيل عليه وهذا ما يدعي في اصطلاح غامض شيئا ما بالمرجع le référent، المرجع الذي يحسه المستقبل وهو إما كلامي أو قابل لأن يكون كلاميا"[3].

ويلاحظ في هذا الموضع بالذات أن جاكبسون وقع في خلط مما جعل كثيرا ممن ترجموا له –سواء في الفرنسية أوالعربية- في لبس كذلك، فزعم أنه شرح ما يقصده بمصطلح contexte. لكنه لم يزد المسألة إلا غموضا حيث أورد مصطلح Référent المرجع في شرحه للمصطلح الأول، ومعلوم أن هذا المصطلح عند المناطقة والدلاليين عامة يقصد به المرجع المادي، أي ماهو خارج لساني Extralinguistique، ويا ليته اقتصر على ذلك ولم يضف الشرح التالي: "...المرجع الذي يحسه المستقبل، وهو إما كلامي أو قابل لأن يكون كلاميا". وهذا القول يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن مصطلح contexte يتراوح بين معنيين:

-إما أنه الموضوع الذي يدخل- بالطبع في تصور الإنسان المتكلم.

-وإما أنه المرجع المادي الذي يحيل عليه اللفظ أو الرسالة.

وهذا موضع يحار فيه العقل، فإما أن ذلك راجع إلى ترجمة نيقولا روفي، وإما أنه راجع إلى المؤلف ذاته، مما أوجد اللبس حتى في كتابات "بيير كيرو" الذي ترجم له أنطوان أبو زيد، كما هو الحال في غيرها من الترجمات.

---

[1] - نفس المرجع ص: 26.

[2] - انظر كتابي: نظرية التواصل واللسانيات الحديثة 2007.

[3] - R. Jakobson : Essais de linguistique générale T1, p. 213-214.

ثم تابع جاكبسون قوله: "ثم هناك الرسالة التي تضم نظاما code موحدا ومشتركا بين المرسل والمستقبل (أو باصطلاح آخر مركب الرسالة l'encodeur ومحللها le décodeur). وأخيرا تضم الرسالة اتصالا contact وقناة فيزيائية canal physique وارتباطا نفسانيا Psychologique connexion بين المرسل والمستقبل، ذلك الاتصال الذي يمكنهما من تأسيس التواصل والمحافظة عليه".[1]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الاتصال contact –كما سيورده كذلك في تصميمه- مفهوم مبهم وغامض، والسبب في ذلك أنه أورد عدة مصطلحات للدلالة عليه فسماه بالاتصال contact، والقناة canal الفيزيائية، والارتباط النفسي.

ومعلوم أن هناك فرقا كبيرا بين القناة الفيزيائية الموجودة عند مهندسي التواصل وبين الاتصال أو الارتباط النفسي الذي شرحه في الأخير على أنه يؤسس التواصل ويحافظ عليه. فالقناة الفيزيائية التي تحمل الرسالة، وهي إما الهواء في حالة اللغة المنطوقة، أو الأسلاك أو غيرها من المواد التي تصلح لنقل الرسائل.

أما ما فسر به الاتصال contact أو الارتباط النفسي الذي يجمع بين المرسل والمستقبل وينشئ بينهما علاقة بواسطة القناة –كما وردت عند مهندسي التواصل- فسيتضح أمرها فيما سيأتي عنده من وظائف.

وظائف الرسائل اللغوية

بناء على التصميم الذي أشرنا إليه سابقا والمستمد من نظرية التواصل الرياضية، يعمد جاكبسون إلى تحديد ستة وظائف لسانية، ويجعل هذا التحليل منطبقا على كل أنماط التواصل،وبقدر ما يقوم تركيزنا على عنصر معين من تلك العناصر الستة، بقدر ما يكون للرسالة الكلامية وظيفة مختلفة عن مثيلاتها،وبذلك ترتبط كل وظيفة منها بصورة وثيقة بعنصر من عناصر التواصل الستة ،وقد قال جاكبسون في هذا المضمار: "يوجد لكل عنصر من عناصر التواصل الستة وظيفة لغوية مختلفة. ولنقل –منذ الآن- إننا و إن كنا نميز المظاهر اللغوية الستة هذه، فمن الصعب أن نجد رسائل تؤدي وظيفة واحدة فقط، ويكون تنوع الرسائل في التمايز التدريجي بين الوظائف وليس في سيطرة وظيفة ما أو أخرى. فالبنية الكلامية للرسالة ترتبط –قبل كل شيء- بالوظيفة السائدة، ولئن يكن التركيز على المحتوى (أو الوظيفة المسماة تعيينية أو إدراكية أو مرجعية) هو المهمة السائدة بالنسبة

[1] - نفس المرجع ص: 214.

لرسائل عديدة.فينبغي على اللساني اليقظ أن يأخذ بعين الاعتبار المساهمة الثانوية للوظائف الأخرى بهذه الرسائل"[1].

وبذلك تيسر عبور نظرية التواصل من اللسانيات إلى أساليب التعبير.

ـالوظيفة التعبيرية أو الانفعالية

تحدد هذه الوظيفة العلائق بين الرسالة والمرسل، فعندما نتصل بالغير عبر الكلام أو أي نمط من أنماط الدلالة، فإننا نرسل –في الحقيقة- أفكارا تكون نسبية طبقا لطبيعة المرجع، إلا أنه باستطاعتنا أيضا أن نعبر عن موقفنا إزاء هذا الشيء فنحسه جيدا أو سيئا، جميلا أو بشعا، مرغوبا فيه أو منفرا، محترما أو مضحكا،ولكن لن يسعنا أن نخلط بين التمظهر العفوي للعواطف والشخصية والمنشأ الاجتماعي، وبين طريقة الاستعمال التي تدرج فيها هذه العواطف لإنجاز هذا التواصل.

فإذن تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي تتمحور على المرسل وتشير بصورة مباشرة إلى موقفه من مختلف القضايا التي يتكلم عنها.

وقد فسر لنا جاكبسون هذه الوظيفة قائلا: "إن الوظيفة المسماة "تعبيرية" أو الوظيفة الانفعالية التي تتمحور حول المرسل تهدف إلى التعبير المباشر عن موقف الفرد مما يتكلم عنه فهي تنزع إلى إعطاء الانطباع بوجود انفعال ما، صحيح أو مصطنع.

لذلك يتبين لنا أن التسمية "وظيفة انفعالية Emotive" التي اقترحها "مارتي" تفضل على التسمية "الوظيفة العاطفية"، وتتمثل الناحية الانفعالية الصرفة في اللغة في حروف التعجب. وهذه الحروف تبتعد عن أساليب اللغة المرجعية عبر تمثيلها الصوتي حيث نلاحظ فيها تتابعات صوتية خاصة كما نلاحظ أصواتا غير مألوفة في بقية المواضع. وفي الوقت نفسه عبر دورها التركيبي، فحرف التعجب ليس عنصرا من عناصر الجملة، إنما يعادل الجملة التامة، فمثلا تل اتت ! قال "ماكنتي Maginty" فهذا الكلام التام الذي تفوهت به إحدى شخصيات "كونان دويل Conan Doyle" يتكون من "صوت امتصاص" للتعبير عن استطابة الشيء، فالوظيفة الانفعالية الواضحة الجلية في حروف التعجب، تميز إلى حد ما كل أحاديثنا في المستويات الثلاثة: الصوتي والتركيبي والمعجمي.

[1] - Essais de linguistique p. 214-215.

فإن حللنا اللغة من وجهة نظر المعلومات التي تحملها، فلا يحق لنا أن نحصر مفهوم المعلومات بالمظهر الإدراكي في اللغة. فالمتكلم الذي يستعمل عناصر تعبيرية كي يشير إلى السخرية أو الغضب ينقل –في الظاهر- خبرا.

ومن المؤكد أن هذا السلوك الكلامي لا يمكن تشبيهه بنشاطات غير إشارية كمثل النشاط الغذائي الذي أشار إليه "شاتمان" من باب التناقض: "أكل الليمون الهندي". فالفرق في اللغة الفرنسية بين [si] وبين [: si] مع مد مفخم للصائت، هو عنصر لغوي [vi] أنتم، وبين [: vi] يعلم.

ففي حال الزوجين الكلاميين الأخيرين، الخبر المتميز ذو طبيعة صوتية، في حين أن الخبر المتميز في حال الزوجين الكلاميين الأوليين ذو طبيعة انفعالية".[1]

-الوظيفة الندائية أو التأثيرية:

وهي وظيفة تخمينية أو أمرية تحدد العلاقات بين الرسالة والمستقبل لأن غاية كل تواصل هو الحصول على رد فعل أو استجابة من هذا المستقبل،ويمكن أن يتوجه النداء أو الأمر إلى ذكاء أو عاطفة المستقبل بحيث يتضح التمييز –على هذا المستوى- بين الموضوعي والذاتي، والمعرفي والعاطفي، علاقة تبرر التعارف القائم بين الوظيفة المرجعية التي سنتحدث عنها فيما بعد والوظيفة العاطفية و"تندرج ضمن الوظيفة المرجعية كل أنظمة الرموز التأشيرية والبرامج العملاتية (عمل، تكتيك عسكري...الخ) التي تهدف إلى تحريك مشاركة المستقبل. وهذه الوظيفة اتخذت لها أهمية كبرى مع الإعلام (أو الإخبار) الذي انعدم فيه محتوى الرسالة المرجعي إزاء الإشارات الهادفة إلى إثارة المستقبل، سواء أكانت تلك الإشارة تتم عبر محاولة تشريطه، متوسلة التكرار أم كانت في توجيه تفاعلات عاطفية لا واعية" كما قال بيير كيرو[2] .

وهكذا تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي تتوجه إلى المستقبل لإثارة انتباهه أو لتطلب منه القيام بعمل معين وتدخل الجمل الأمرية ضمن هذه الوظيفة الندائية وقد قال فيها جاكبسون "إن التوجه نحو المستقبل في الوظيفة الندائية يجد تعبيره النحوي الصرف في النداء وفي الأمر اللذين يبتعدان من وجهة النظر التركيبية والصرفية وغالبا ما يكون ذلك أيضا من الوجهة الصوتية... فجمل الطلب أو التحضيض تختلف أساسا عن الجمل التصريحية. فالجمل التصريحية بالإمكان إخضاعها لمعيار الصدق أو الكذب، في حين أن جمل الطلب أو

[1] - نفسه 216.
[2] - لسيميا، أنطوان أبو زيد ص: 11.

التحضيض لا تخضع لمثل هذا المعيار ففي مسرحية أونيل O'neill، السبيل، la fontaine "عندما يقول نانو Nano في لهجة أمر عنيفة: "اشربوا" لا يستطيع فعل الأمر أن يثير السؤال: "أصحيح هذا أم لا"؟.

وبإمكان هذا السؤال أن يفرض نفسه –بالمقابل- بعد جمل من مثل: "كنا نشرب" و "سنشرب".

أضف إلى ذلك أن الجمل التصريحية بعكس الجمل الطلبية- يمكن تحويلها إلى جمل استفهامية مثال ذلك: هل شربنا؟ هل سنشرب؟.[1]

-الوظيفة المرجعية

وهي قاعدة كل تواصل، إنها تحدد العلاقات القائمة بين الرسالة والموضوع الذي ترجع إليه، لأن المسألة الأساسية تكمن في صياغة معلومة صحيحة عن المرجع، وتكون موضوعية ويمكن ملاحظتها والتأكد من صحتها.

ذلك هو هدف المنطق وسائر العلوم التي هي بمثابة أنظمة إشارات تبقى مهمتها الأساسية تجنب أي التباس ممكن بين العلامة والشيء ذاته، بين الرسالة والحقيقة المرمزة.

إذن فهذه الوظيفة تظهر في الرسائل ذات المحتوى، وهي التي تتناول موضوعات وأحداثا معينة، وتشكل هذه الوظيفة التبرير الأساسي لعملية التواصل. ذلك أننا نتكلم وغايتنا الإشارة إلى محتوى بعينه، نرغب في إيصاله إلى الآخرين، وتبادل الآراء معهم حوله.

وقد أورد جاكبسون هذه الوظيفة عندما تحدث عن الوظائف الكلامية عند بوهلر Buhler قائلا: "إن النموذج التقليدي للغة كما وضحه بوهلر" بصورة خاصة، يقتصر على وظائف ثلاث: الوظيفة الانفعالية والوظيفة الندائية والوظيفة المرجعية.

ويطابق القمم الثلاثة لهذا النموذج المثلث الزوايا، المتكلم أي المرسل والمخاطب أي المستقبل والغائب أي الشخص أوالشيء الذي نتكلم عنه.

ومن خلال هذا النموذج المثلث الوحدات،بإمكاننا أن نستنتج بعض الوظائف الإضافية، وهكذا بالإمكان أن نفهم الوظيفة السحرية أو التعزيمية من حيث هي تحويل الشخص غائب أو شيء غير متحرك إلى مستقبل لرسالة ندائية مثل:

"عسى أن تجف الشعيرة، تفو، تفو تفو " وهي عبارة سحرية ليتونية.

[1] - Essais de linguistique générale T1, p :216.

" أيها الماء، يا ملك الينابيع، أيها الفجر ، اجرف الحزن إلى ما وراء البحر الأزرق، عسى ألا يعود الحزن أبدا يثقل قلب خادم الله الرقيق، عسى أن يذهب الحزن، أن يغرق في البعد " وهو تعزيم من شمال روسيا.

" أيتها الشمس توقفي على كابوون gaboan وأنت أيها القمر على وادي أيالون ! وتوقفت الشمس وهمد القمر ".

وقد أقررنا بوجود ثلاثة عناصر تكون التواصل اللغوي. وتتطابق هذه العناصر الثلاثة مع الوظائف التواصلية الثلاثة "[1].

وهكذا نرى أن جاكبسون يوضح العنصر الثالث ألا وهو المرجعle referent، أولا بنسبته الوظيفة المرجعية إليه أثناء تطرقه للعلاقات بين اللسانيات والشاعرية، وثانيا بتبنيه لما يقصد بالمرجع مع ذكره للأمثلة التوضيحية التي زادته بيانا، والظاهر أن "المرجع" عند اللسانيين كما عند المناطقة غير "الموضوع"_ أي موضوع الرسالة _ فإذا كان الأول يصح أن يكون ماديا (العالم بما يشتمل عليه) ومجردا عن المادة(كلفظ الإنسانية مثلا) أو (متخيلا كعرائس البحر) فإن الثاني لا يكون إلا صوريا في ذهن الإنسان يعكس ما هو موجود وغير موجود، وذلك ما يراه فلاسفة اللغة أيضا.

أما حينما نقابل مصطلح contexte (والغالب أنه يستعمل عند اللسانيين بمعنى السياق اللغوي، سياق الجمل أو السياق المقامي الاجتماعي) contexte situationnelle ويقصدون به مقتضى الحال (كما عند اللغويين العرب) والظروف التي أحاطت بالملفوظ من متكلم ومخاطب وزمن ومكان وحدث... الخ بمصطلح Référent مرجع فإن المعنى بالضرورة سيختلف تماما وسيؤدي بنا إلى خلط لا مخرج منه.

ـوظيفة إقامة الاتصال أو الوظيفة الانتباهية

وتهدف هذه الوظيفة إلى تأكيد وتثبيت أو إيقاف التواصل، ويصنف جاكبسون بناء على ذلك كل العلامات التي تنشئ التواصل أو تسعى إلى إطالته أو إيقافه، كما تعمد إلى التأكد من فاعلية التواصل مثل ما يحدث عند قولنا ونحن نتكلم هاتفيا: "ألو، أتسمعني؟" أو إلى لفت انتباه المتحدث أو التثبت من عدم إهماله الخط الهاتفي: "قل أتسمعني؟" أو الإشارة بأسلوب مسرحي: "اصغ إلي جيدا" فيجيب المستمع في الطرف الآخر "هم...هم، أو نعم...نعم".

[1] -Eassais de linguistique générale T1 p : 216-217.

وقد أخذ جاكبسون هذه الوظيفة عن ما ليونفسكي. وبالجملة فإن هذه الوظيفة تظهر في الرسائل التي تراعي إقامة الاتصال وتأمين استمراره، وتقوم هذه الوظيفة على تعابير تتيح للمرسل إقامة التواصل أو قطعه، وبالتالي تلعب دورا مهما في كل أشكال التواصل مثل: الطقوس والاحتفالات والأعياد والخطب والأحاديث سواء أكانت عائلية أم غرامية حيث تنعدم أهمية محتوى الرسالة ويصير مجرد التواجد في نفس المكان وتأكيد المرء على ارتباطه بالمجموعة هدفي التواصل الأساسيين.

فالكل يكرر في هذه الأحاديث الكلمات والحركات ذاتها، كما أنهم يستعيدون نفس الأخبار والروايات.

إن المرجع في رسالة إقامة الاتصال ذاته، وقد حدثنا جاكبسون عن هذه الوظيفة قائلا: "كم من رسالة تستعمل بصورة أساسية لإقامة التواصل أو إطالته أو قطعه، وكذا للتحقق من أن المدار الكلامي يعمل... وللفت انتباه المستمع أو للتأكد من أن التواصل لم يضعف...وهذا التأكيد على الاتصال (وظيفة إقامة الاتصال كما يسميها ما لينوفسكي) بإمكانه أن يتيح الفرصة لتبادل العديد من العبارات الطقوسية وحتى عند محادثات كاملة موضوعها الوحيد إطالة الحوار وقد لاحظت "دروتي باركر Dorthy Parker ورود أمثلة معبرة: "إذن قال الشاب" إذن: قالت "إذن" ها نحن هنا ! "قال" ها نحن هنا أليس كذلك؟ ! "قالت" أعتقد جيدا أننا هنا" قال. "هوب: ها نحن هنا إذن" قالت: "إذن"، قال، "آه نعم"، قالت.

فالمجهود لإقامة الاتصال وإبقائه نموذجي حتى عند العصافير المزقزقة، وهكذا –إذن- تكون وظيفة إقامة الاتصال الوظيفة الوحيدة التي تشترك فيها هذه العصافير مع الإنسان، وهي الوظيفة الكلامية الأولى التي يكتسبها الأطفال، فعند الأطفال تسبق النزعة إلى التواصل القدرة على إرسال الرسائل الحاملة للمعلومات وعلى استقبالها.[1]

-الوظيفة البيانية

وقد سماها أنطوان أبو زيد[2] بالألسنية التعددية" وبين نقلا عن بيير كيرو على أنها تهدف إلى تحديد معنى العلامات التي تستعصي على فهم المستقبل.

وتظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي يكون محورها هو اللغة نفسها فتتناول بالوصف الرسالة ذاتها، وتشتمل هذه الوظيفة على عناصر البنية اللغوية وتعريف المفردات وشرحا.

---

[1] - نفسه، ص:217.

[2] - السيمياء، بيير كيرو ترجمة أنطوان أبوزيد ص: 13.

إن الوظيفة البيانية ليست الأداة العلمية اللازمة فقط التي يستعملها علماء المنطق واللسانيون، بل إنها الوظيفة التي تقوم بدور أساسي في لغة كل يوم. كما أن السيد "جوردان Jourdain يقوم بأداء النثر دون أن يعلم بذلك، فنحن نمارس الوظيفة البيانية" من دون أن نلاحظ هذه الخاصية في نشاطنا. ففي كل مرة يرى المرسل أو المستقبل أنه من الضروري التحقق من أنهما يستعملان بصورة جيدة، تنظيم الرموز نفسه، ويتمحور الكلام حول نظام الرموز code يؤدي بذلك وظيفة الشرح). ومثال ذلك ما وقع في هذا الحوار.

أنا لا أتبعك، فماذا تريد أن تقول؟ يسأل المستمع، أو يسأل في أسلوب راق: ماذا يعني ذلك؟ ويسأل المتكلم مسبقا: أتفهم ماذا أريد أن أقول؟

فلنتصور حوارا مغيظا كهذا؟

- السوموفور s'est fait coller
- ولكن ماذا يعني se faire coller؟
- Se faire coller يعني sécher
- و "sécher"؟
- تعني "sécher" سقط في الامتحان
- ومن هو السوموفور، يلح السائل الذي يجهل المفردات الطلابية
- السوموفور يعني طالب السنة الثانية.

إن الخبر الذي تقدمه جمل المعادلات هذه، يتناول فقط نظام المفردات في اللغة الفرنسية، فوظيفة هذه الجمل هي حصرا –وظيفة بيانية- فكل مسار لاكتساب اللغة- وخاصة اكتساب الطفل- يتم بعمليات "بيانية"1.

-الوظيفة الشعرية (أو الجمالية)

وقد حددها جاكبسون على اعتبار أنها العلاقة القائمة بين الرسالة وذاتها، ويستشف من تفسيره ذاك، أنها الوظيفة الجمالية بامتياز، إذ أن المرجع في الفنون هو الرسالة التي نغض الطرف فيها عن الجانب التواصلي كي نراها كصورة من الصور، كشكل من الأشكال أو بنية من البنيات نبحث في مميزاتها الجمالية. فإذن تظهر هذه الوظيفة في الرسائل التي تتمحور على الرسالة نفسها كعنصر قائم بذاته. ولا تنحصر هذه الوظيفة في الشعر فقط، بل تتعداه لتشمل الرسائل الكلامية ككل، وهكذا يقول جاكبسون عن هذه الوظيفة بعد أن أتم الحديث عن جميع العناصر التي تكون نموذجه التواصلي اللساني" لقد عرضنا كل العناصر التي تندرج في عملية التواصل اللغوي باستثناء عنصر واحد هو الرسالة نفسها، وما يميز

الوظيفة الشعرية للغة هو هدف الرسالة كرسالة، والتأكيد على الرسالة لذاتها، ولا تمكن الاستفادة من دراسة هذه الوظيفة إذا أهملنا مسائل اللغة عامة.

ومن جهة أخرى يقتضي تحليل اللغة أن نراعي بجد الوظيفة الشعرية، وكل محاولة لحصر إطار هذه الوظيفة في الشعر أو حصر الشعر في هذه الوظيفة، لن يؤدي إلا إلى تبسيط مفرط وخادع. فالوظيفة الشعرية ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام فهي فقط الوظيفة السائدة والمحددة، بيد أنها تلعب في النشاطات الكلامية الأخرى بوضوح الناحية المحسوسة في الإشارات والأشياء، واللسانيات حينما تبحث كذلك في الوظيفة الشعرية فإن بحثها لا يقتصر على مجال الشعر فقط، ومثال ذلك:

" – لماذا تقولون دائما جان وماركريت، ولا تقولون ماركريت وجان؟ هل تفضلون "جان" على أختها؟

– أبدا ولكن الإيقاع هكذا أفضل".

ففي متتاليتين من كلمتين معلومتين... يرى المتكلم إعطاء حق التقديم للاسم الأقصر، ذلك من دون أن يصارح نفسه بذلك، وهكذا يتشكل أفضل ترتيب للرسالة، وفيه مثال آخر، اعتادت فتاة شابة أن تتحدث دائما عن "أفرد البشع L'affreux Alfred " فلماذا البشع؟

- لأنني أكرهه
- ولكن لم لا الفظيع والشنيع والشرير والكريه؟
- لا أعرف ولكن البشع Affreux تناسبه أكثر.

ومن دون شك في ذلك فهي تطبق مبدأ الجناس.لنحلل بإيجاز الشعار السياسي "I like Ike أنا أحب أيزنهاور" فهذا الشعار يتكون من ثلاث كلمات ذات مقطع واحد، ويحتوي على ثلاث صوائت مزدوجة يتبع كل منها بشكل تماثلي فونيم صامت /l-k-k/ فتنسيق الكلمات الثلاثة يظهر تنوعا، حيث لا يوجد صامت في الكلمة الأولى في حين هناك صامتان حول صامت مزدوج Diphtongue في الثانية، وفي الكلمة الثالثة هنا صامت أخير. وقد أشار هايمز Hymes إلى تغلب نواة noyau /أي ay/ في بعض سونيات (sonnet قصيدة من 14 بيتا) كيتز/Keats .

فتتابع العبارة بين I like وبين Ike يتوقفان في القافية، وثاني الكلمتين الأخيرتين يندرج تماما في الأول (رجع القافية Rime en écho) حيث تندرج /ayk/ في /layk/... فالتتابعان

يشكلان مجانسة صوتية. والكلمة الأولى من الكلمتين في المجانسة الصوتية تندرج في الثانية /ay/، /ayk/ وكأنها استعارة جناسية للمحب يلفه الموضوع المحبوب.

فالدور الثاني للوظيفة الشعرية يقوي متانة هذه العبارة الانتخابية وفعاليتها، وكما أشرنا إلى ذلك من قبل، فعلى الدراسة اللسانية للوظيفة الشعرية أن تتجاوز حدود الشعر، ومن جهة أخرى ليس بإمكان التحليل اللساني للشعر أن يقتصر على الوظيفة الشعرية ...، فالشعر الملحمي الذي يرتكز على الغائب يبرز مساهمة الوظيفة المرجعية، والشعر الغنائي الموجه نحو المتكلم يرتبط بصورة حميمية بالوظيفة الانفعالية، والشعر في المخاطب مطبوع بالوظيفة الندائية، ويتصف بكونه التماسي أو إرشادي وفقا لكون المتكلم تبعا للمخاطب أو المخاطب تابعا للمتكلم".[1]

وهكذا يبرز جاكبسون العلاقة التي تربط الوظيفة الشعرية بالمتكلم وكذا بالمخاطب، لأنه دون تذوق للرسالة ونقد لها وتمييزها عن غيرها، فلن تقوم لهذه الوظيفة قائمة.

ومن ثم يبرز جاكبسون طبقا لعناصر عملية التواصل وظائف الرسائل اللغوية ويجملها في التصميم التالي:

الوظيفة المرجعية

الوظيفة الانفعالية... الوظيفة الشعرية الجمالية ... الوظيفة الندائية أو التعبيرية

وظيفة إقامة الاتصال الانتباهية

وظيفة ما فوق اللغة البيانية

وبالجملة فإن جاكبسون متأثر بوضوح في نموذجه التواصلي اللساني بمهندسي التواصل،وبعده توالت النماذج معلقة و منتقدة لنموذجه ، كما انتقد نموذج شانون وويفر بما طرحه " ولبور شرام Wilbur Schramm " من نموذج بديل .[2]
و نموذج كاتز و لازارسفيلد Katz-Lazarsefeld المنتقد إعلاميا لما ورد عندهما أيضا [1] و كذلك نموذج نيوكمب Théodore Newcomb -عالم النفس الاجتماعي

[1] - نفس المصدر.

[2] - Wilbur Schramm : How communication works ? In the Process and effects of mass communication . Edited by : W. Schramm (Urbana, IL, University of Ilinés Press 1954 .

الأمريكي -الذي ركز فيه على حاجة الناس عموما إلى الانسجام في المعتقدات والمشاعر والسلوك، وذلك في كتابه The Acquaintance of communication.

ثم تطورت النظرية إلى نموذج دانس Franck E.X. Dance الموصوف بالحلزوني لدراسة التواصل الإنساني وهو الذي قدمه سنة 1967 مضيفا البعد الزماني للتواصل .

كما أتت أوريشيوي Orecchioni بنموذج بديل منتقدة ما أتى به جاكبسون، بحيث ركزت على الجانب اللساني الاجتماعي الذي يبين اختلاف الناس في نظمهم اللغوية و ما ينجم عن ذلك من مستويات عوض التقابل أو الاشتراك في النظام الذي نص عليه جاكبسون .

كما انتقد هايمز و كابرز O.Hymes - Gumperz ما ورد عند جاكبسون و عاب عليه إهمال المقام كما ردا نجاح فعل التواصل إلى القدرة اللغوية بدل القدرة التواصلية انطلاقا من توجه اثنوغرافي [2] .

و هكذا توالت النماذج معززة بعضها بعضا منتقدة أو معدلة أو مضيفة ما ينقص النماذج الأخرى إما في نفس الحقل المعرفي أو خارجه و لعل استعراض هذه النماذج بتفصيل و الاطلاع عليها في مصادرها و مراجعها يبين الشيء الكثير فيما اتفقت فيه و اختلفت .

6-التعريف بالماهية:

6-1 عناصر التواصل

عناصر التواصل و هي :

أ - **المرسل** و هو الباعث أو البات و يكون إما شخصا أو جماعة أو جهازا من الأجهزة الإلكترونية المعروف في عالمنا اليوم .

أما الدور المنوط به - فهو الدور الناشئ عن ضرورة الاجتماع - فهو تركيب الرسائل في نظام من الأنظمة اللغوية وفي غيرها حسب معطيات القنوات قنوات التواصل و القواعد المعروفة ، و لا يكون المرسل مرسلا إلا بوجود المستقبل ، فمن هو المستقبل ؟

ب - **المستقبل** : و هو متلقي الرسالة ، و يكون إما شخصا فردا أو جهازا أو جماعة .

---

[1] - Elitu Katz and Paul F . Luzersefeld ; Personnal influence ; The part played by people in the flow of mass communication (New York ; Free Press 1956) .

[3] - انظر نظرية التواصل و اللسانيات الحديثة ص : 202 .

أما الوظيفة التي يقوم بها فهي تحليل الرسالة و تنفيذ ما ورد فيها أو رفضه بالاستجابة له ، لكن هل ينحصر التصنيف في أن يظل المرسل مرسلا فقط و المستقبل مستقبلا؟

نعم يحصل هذا في حالة الإخبار لكن في حالات التواصل التي تخضع للحوار فإن المرسل يصير مستقبلا، والمستقبل يصير مرسلا .

فالأمة مثلا- في التواصل المتعالي - تسمع من النبي و آنذاك تكون مستقبلة ،و تغدو فيما بعد مرسلة لأنها مكلفة ، " بأن يبلغ الشاهد الغائب " كما أمر بذلك الرسول عليه أزكى الصلاة و السلام على مر العصور ، علما بأن النبي مرسل و مستقبل في آن واحد ، فهو مستقبل للرسالة ، إما وحيا بطريقة الإلهام أو من وراء حجاب بطريقة الوسيط الذي هو الملك جبريل عليه السلام ، فالرسول إذن مستقبل و مرسل إلى الأمة التي بعث فيها ، كما كان الملك مرسلا و مستقبلا أيضا ، فهو يستقبل الرسالة من الله ليرسلها تارة أخرى إلى النبي . أما الله -عز و جل- فهو مرسل في هذه العملية فقط لأنه يبعث أوامره ، و أحكامه إلى عباده ، و لكننا يمكن أن نقول إنه مستقبل و ذلك حينما يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو القائل سبحانه : " ادعوني أستجب لكم " .

و يتم خلال إنجاز عملية التواصل الوضعية القائمة بين الناس أو السماوية مراعاة عدة أمور منها :

***متغيرات المرسل المستقبل**

+من الناحية الاجتماعية :

أ - عدد المرسلين و عدد المستقبلين : أفرادا كانوا أم جماعات .

ب - الجنس ذكرا كان أم أنثى .

ج - العمر : أي الفروق في السنوات بين المشتركين في عملية التواصل و هي فروق يجب مراعاتها جيدا أثناء الموقف الكلامي ، لا سيما إذا كان المشتركون من أجناس مختلفة أو أصناف مختلفة و مثال ذلك : طفل ، معلم ، شرطي ، طالبة ، جد ... الخ .

د - درجة التعارف كالتي بين الأم و ابنتها و بين أقارب أو زملاء في مهنة ما ... الخ .

+ من الناحية النفسية :

القدرة الحسية و هي من الأهمية بمكان في حدث التواصل ، ذلك أن الحواس هي منافذ العقل .

إن أصناف الناس الذين سوف ندعوهم في هذا الموضع بالذات بالمتخاطبين Interlocuteurs .

- أي المرسل- المستقبل في آن واحد سيكونون خاضعين لتصنيف الحواس ، و كذا القدرة الكلامية لأنها ضرورية في عملية التواصل ، بل لها المكانة الكبرى .

فعندنا مثلا أفراد تجتمع فيهم كل الصفات الحسية ، و كذا القدرة الكلامية ، و عندنا آخرون لا يتوفرون إلا على بعض الصفات دون البعض الآخر ، و عندنا كذلك أناس لا يملكون أية خاصة ، و هذه الحالة نادرة و النادر لا حكم له . و هكذا نجد الأفراد مصنفين إلى :

1 - البصير السميع المتكلم العاقل .

2 - البصير السميع الأبكم العاقل .

3 - البصير الأصم الأبكم العاقل .

4 - الأعمى السميع المتكلم العاقل .

5 - الأعمى الأصم الأبكم العاقل : و هذا الأخير يعتمد على حواسه المتبقية لديه في اكتساب معرفة الأمور ، و هي الشم و الذوق و اللمس .

6 - البصير السميع المتكلم الأحمق (و الحمق درجات ، كما كانت القدرات الحسية درجات) و من ثم تعلم أن هناك أصناف و مراتب للناس في هذه القدرات ، و مثال ذلك أن نجد الناس يتفاوتون في القدرة السمعية كالأصم و الأطرش و ما إلى ذلك ، ومن ثم تجد الإنسان لا يسمع بذلك إلا على بعد و مسافة معينة ، و تبعا لوضع خاص لا يكتنفه الضجيج و لا غيره .

و كذلك هنالك درجات متفاوتة بين الناس في القدرة الكلامية ، فمنهم الفصيح البليغ المفلق و منهم اللجلاج (المتردد في الكلام) و التمتام (التمتمة رد الكلام إلى التاء و الميم) و الألثغ (الذي يحول لسانه من السين إلى التاء) و ذو الحبسة (الذي لا يسمع قوله) و الحكلة (الذي لا يسمع صوته) و ذو اللفف (بطيء الكلام) و ذو العجلة (سريع الكلام)، كما ذكر الجاحظ في كتابه البيان و التبيين .

و كذلك الشأن في القدرات الحسية المتبقية ، فالناس إذن ليسوا سواء ، و إدراك هذا يختلف عن إدراك ذاك ، و ما يشعر به هذا حسنا يراه الآخر قبيحا ، لذا قال الجاحظ : " و كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل السخيف و المليح و الحسن و القبيح و السمج و الخفيف و الثقيل ، و كله عربي ، و بكل قد تكلموا و بكل قد تمادحوا و تعاتبوا ، فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، و لا بينهم في ذلك تفاوت ، فلم ذكروا العي و البكي و الحصر و المفحم و الخطل و المسهب و المتشدق و المتفيهق و المهماز و الثرثار و المكثار و الهماز ؟

و لم ذكروا الهجر و الهذر و الهذيان و التخليط ، و قالوا رجل تلقاعه و تلهاعة و فلان يتلهيع في خطبته ، و قالوا فلان يخطئ في جوابه و يختلف في كلامه ، و يناقض في

خبره ؟ و لولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي البعض و البعض الآخر بهذه الأسماء " [1] .

فإذا وضعنا تصميما للتواصل القائم بين هؤلاء الأفراد ، و حاولنا أن نثبت أن عملية التواصل حقا قائمة بينهم سنجد ما يلي :

- لنتخذ الأرقام التي أعطيناها مقدما لأولئك الأفراد المذكورين سابقا في مقدمة الحديث عن القدرات الحسية ، و لنعتبر هؤلاء الأفراد عناصر لمجموعة تدعى : " ج "

ج = [1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6].

حيث إن :

1 هو البصير السميع المتكلم العاقل .

2 هو البصير السميع الأبكم العاقل .

3 هو البصير الأصم الأبكم العاقل .

4 هو الأعمى السميع المتكلم العاقل .

5 هو الأعمى الأصم الأبكم العاقل .

6 هو البصير السميع المتكلم الأحمق .

و لنفرض وجود العلاقة التالية ج × ج = زيد تواصل مع عمرو.

حيث إن علامة + تدل على حصول التواصل . و العلامة 0 تعني أن التواصل لم يحدث .

و العلامة ≈ تدل أن التواصل حادث أو ممكن الحدوث بوسيلة من الوسائل .

ج × ج		1	2	3	4	5	6
	1	+	+	+	+	≈	≈
	2	+	≈	0	0	0	0
	3	+	0	≈	0	0	0
	4	+	0	0	≈	0	0
	5	≈	0	0	0	0	0
	6	≈	0	0	0	0	0

[1] - أبو عثمان الجاحظ : البيان و التبيين ج 1 / ص 80 .

كانت هذه بعض الأمثلة الموجودة في التواصل الاجتماعي و هو غيض من فيض و قليل من كثير ، يمكن تبيانه في علاقات عدة ، كأن تكون العلاقة متمثلة في ج × ج × ج .... إلى ما لا نهاية له من العلاقات التواصلية الجارية بين أعضاء المجتمع .

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن بين الناس فروق على المستوى العقلي و النفسي ، فإذا أردت أن تتواصل مع شخص ما - أو بالأحرى أن تتفاهم معه - عليك أن تعرفه كما اشترط الإمام الغزالي ذلك بدوره فقال : إن على السامع أو المستقبل - بصفة عامة - أن يكون عالما و لابد " بثلاثة أمور هي : المتكلم ، و بأن ما سمعه من كلامه ، و بمراده من كلامه " [1] .

سواء أكان هذا السامع ملكا أم نبيا أم أمة من الأمم فمن الشروط الأساسية إذن معرفة المتكلم حتى يتم نجاح فعل التواصل ، و من ذلك أن تختار الكلام الذي يناسب مخاطبك كي تصل رسالتك إليه في أحسن الظروف ، و تكون متيقنا من فهمه إياك . فكثيرا ما يحدث سوء الفهم من جراء عدم معرفة مستقبل الرسالة ، فليست حظوظ الناس سواء على الصعيد المعرفي .

إن عملية التأويل لا تتم عندهم على مستوى واحد ، و المرء يكون في حالة نفسية مختلفة متنوعة ، و عقول الناس أشد اختلافا مما تحسبه أنت في نفسك ، فلا ترسل الكلام على عواهنه حتى تعرف مستقبلك و تتأكد من معرفته إياك ، لأن ذلك من منطق التواصل .

+ - من ناحية القدرة العقلية أو المعرفية :

كي تصل الرسالة إلى مستقبلك و يفهمها كما أردتها ، و تصل إلى قصدك الذي رمته ، و تكون أنت في راحة من أن رسالتك قد وصلت على أتمها ، عليك أن تعرف مستقبل رسالتك ، فمن يكون هذا المستقبل ؟ أعاقل هو أم أحمق ؟ أذكى هو أم غبي ؟ أمعتوه أم عبقري ؟

صحيح قول العوام كل الصحة : قالوا بعد تجربة السنين " من حسب الناس سواء فليس لحمقه دواء " .

أيا منا ينكر هذه الفوارق و الحقائق ، أيا منا ينكر أن يكون الناس طبقات و مراتب فيما يفهمون و يستقبلونه من رسائل ؟

و لشد ما نصح العقلاء و الحكماء ، بأن يخاطب الناس على قدر عقولهم و ما يفهمون ، و منهم الفيلسوف الفقيه ابن رشد الأندلسي ، الذي ما وجد حلا لمشكلة التأويل سوى

---

[1]- أبو حامد الغزالي : المستصفى 1 / 733 .

في تصنيف الناس إلى طبقات متفاوتة من حيث درجات الفهم . فما يدركه هذا لا يقدر عليه الآخر ، و ما يسمعه هذا حسنا ، يراه الآخر قبيحا شنيعا . و ما يراه هذا خطأ ، يراه الآخر صوابا ، و هذا يفهم الكلام في ظاهره ، و الآخر يبحث له عن باطن . و هكذا قسم " ابن رشد " الناس إلى مراتب ، بحيث ارتأى أن النظر في علوم الأوائل أو الفلسفة أو المنطق ليس مباحا للجميع ، بل إن طلبها من قصيري النظر الذين لا يستوعبون ما قيل و ما كتب ، من شأنه أن يؤدي بهم إلى المروق و الخروج عن الحكمة و الشريعة معا .

و بناء على ذلك يفترض " ابن رشد " وجود مراتب فكرية للناس مختلفة ، كما يفترض تبعا لذلك تنوع الخطاب الإلهي بتنوع تلك الفئات أو المراتب من الناس ، و عليه فإن " طباع الناس متفاضلة في التصديق ، فمنهم من يصدق بالبرهان و منهم من يصدق بالأقاويل الجدلية ، و منهم من يصدق بالأقاويل الخطابية . و قد اشتملت الشريعة على كل هذه الأصناف من الخطابات و النتيجة الحتمية لهذا التقسيم ، استحالة إعطاء معرفة أو تعليم واحد لتلك الفئات الثلاثة مجتمعة إذ أن ما يشفي غليل الخواص " أي أهل البرهان " قد يكون سما قاتلا بالنسبة لأهل الجدل فضلا عن العوام أو الجمهور . و من ثم وجب وضع قاعدة لتمييز مبلغ علم الجمهور و العوام من الشريعة و منتهى علم الخواص منها "[1] .

واعتبر " ابن رشد " هذه المسألة أساسية في حل مشكلة التأويل، إنه لا يهتم بالمخاطبين ذوي العاهات ، بل يركز انتباهه لما عم و شمل ، و لشد ما أشار القدماء في كتبهم إلى تلك الفوارق . و ما يهمنا هنا هو : هل يتواصل هؤلاء الأفراد فيما بينهم و بين الأفراد الآخرين ؟

لا يمكن الحسم بتاتا في هذا الموضوع ، إلا إذا أجريت دراسة دقيقة تبين نسبة التفاهم بينهم ، و على أية حال يبقى التواصل بين الفئة المتوسطة الذكاء قائما و لو نسبيا . لكم نحسب الناس جميعا لكن عقولهم شتى لا يحصيها سوى خالقها مما يجعل الناس يتفاضلون في فهم الرسائل الملقاة إليهم ، فتلتبس الأمور على البعض حتى يحتاجوا لمن يبينها لهم ، و تتضح للبعض الآخر حتى يخالوا أنهم أدركوا كل شيء ، و ما أدركوا إلا النزر اليسير .

و أهم شيء يجعل المرسل في حيرة من أمره ، هو كيف يستطيع معرفة قدرة مستقبله العقلية ؟

[1] - ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة و الشريعة من الاتصال ص 26 .

حقيقة أنه من الأمور الصعبة أن نميز بين الناس و نحن نتواصل معهم لأول وهلة ، لكن حكماء العقلاء و ذوي الخبرات و المهارات ، استعملوا معايير للحكم على الأشخاص . فلقد قالوا : "تكلم أقل لك من أنت" ، بحيث إن المرسل لا يعرف مستقبله ، إلا حينما يتكلم أو يعبر بأي وجه من أوجه التعبير - هذا في حال عدم وجود علاقة تربطهما سواء كانت هذه العلاقة أسرية أم مهنية أم غير ذلك - و أما إن سكت فيبقى المرسل غالبا في حيرة ، بل يسائل نفسه ألف سؤال ، و بالخصوص إذا تحلى المستقبل بأناقة في الملبس و الحركات و السكنات ، و من ذلك ما روي عن أبي حنيفة أنه كان يلقي درسا في جامعه ، إذا برجل يقبل على حلقته في هندام أنيق و يجلس في حضرته ، و كان من عادة أبي حنيفة أن يمد رجله حين يعيى من قبضها أمام مستمعيه ، و بعد أن مر ردح من الزمن على إلقاء درسه أحس بالإعياء ، و لكنه استحى أن يمد رجله في حضرة السيد لأنه لم يعرفه ، و بقي قابضا رجله على مضض . و بعد مدة سأل السيد أبا حنيفة سؤالا تافها ، إذاك فهم أبو حنيفة أن الذي بين يديه ليس ذا شأن عظيم ، فقال قولته المشهورة : " كفاني فيك يكفوني " و مد أبو حنيفة رجله . فحين تكلم هذا الشخص المجهول بحضرة أبي حنيفة فهم مقامه و أولاه ما يستحقه . و على أية حال فإن هذه المعايير تبقى نسبية يستعين بها الناس على معرفة من يتواصلون معهم ليختاروا لهم الرسالة التي يفهمونها جيدا .

و هكذا دواليك ، نتمكن من معرفة مستقبلنا و نضع له محلا من رسائلنا ، و نختار ما يلائمه ، و ما ينفر منه، و بذلك سنتمكن من التواصل و التفاهم معه نسبيا في جميع الحالات ، و قلت نسبيا ، تحسبا لما يمكن أن يعترض هذه المعرفة من تشويش و معيقات تحول دون معرفتنا بمستقبلي رسالتنا .

***تصميم التواصل البسيط**

(مقتبس من نظرية التواصل)

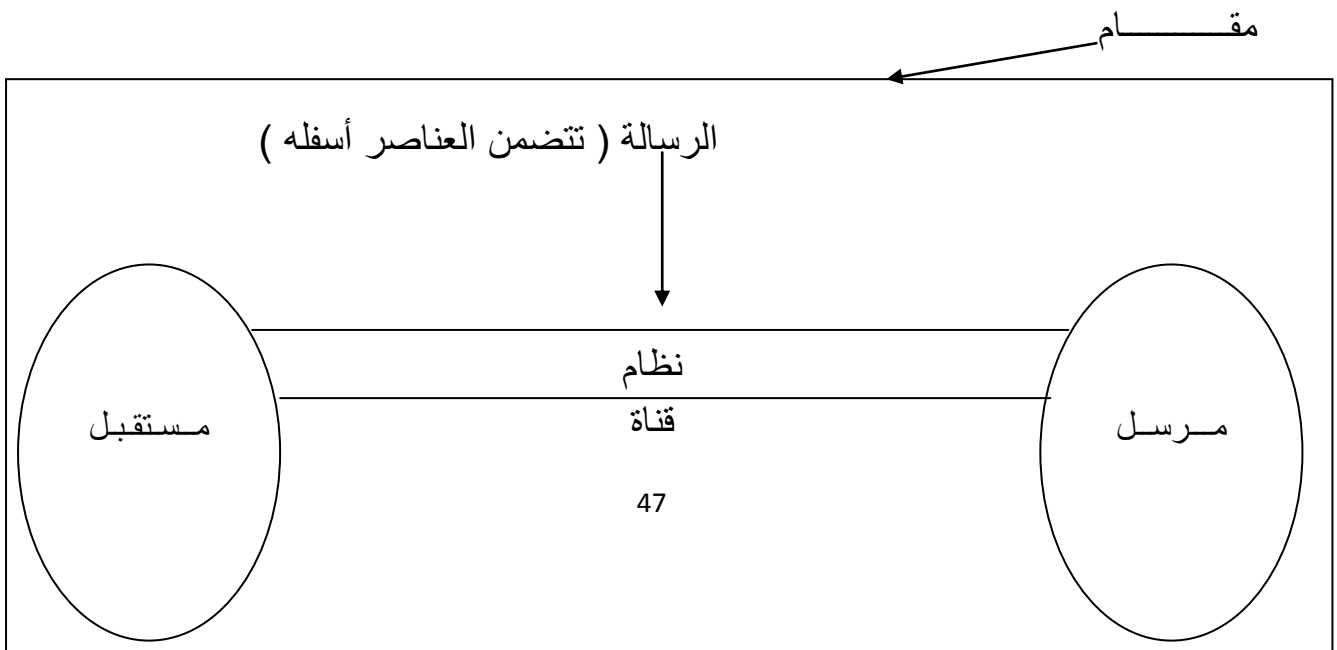

طاقة

موضوع الرسالة

إن تحديد قدرتنا المعرفية من الأهمية بمكان أثناء إنشاء عملية التواصل الناجح ، و من جملة ذلك تلك القدرة اللغوية التي هي أداة للفكر ، فإذا كان جسر الرسالة اللغوي الحامل للمعلومات يستند إلي من جهة فإنه يستند إلى مستقبل رسالتي من جهة أخرى ، لذلك فدائرة معارفه يجب أن تشترك مع دائرة معارفي حتى يكون التقابل Symétrie قائما بيني و بينه في النظام اللغوي . و من جملة ذلك ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : " و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم " [1] . و في آية أخرى يبرهن على فشل عملية التواصل باختلاف لسان الرسول الذي هو النظام اللغوي الذي تمرر به الرسالة على لسان القوم الذين أرسل إليهم بقوله تعالى : " آعجمي و عربي ... " [2] . و في آية أخرى " لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، و هذا لسان عربي مبين ... " [3] و يتبين أن هناك عدة حالات سوف نمثلها بدائرتين معرفيتين للمرسل Re [4] و المستقبل Rr [5] .

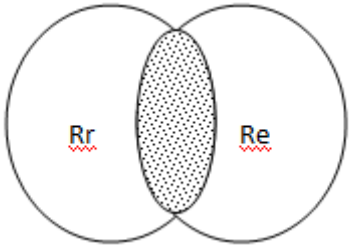

- <u>الحالة الأولى</u> : لا تتقاطع دائرتا المعارف هنا إلا بشكل ضعيف (انظر مكان التقاطع في التصميم) و في هذه الحالة يكون التواصل صعبا و التفاهم ضعيفا ، و المستقبل لا يحلل إلا جزءا يسيرا من الرسالة ، مثل حوار إنجليزي مع عربي درس الإنجليزية لمدة سنة .

[1] - سورة إبراهيم/26
[2] -سورة فصلت/43
[3] -سورة النحل/103

[4] - Répertoire de l'émetteur :Re .
[5] - Répertoire du récepteur: Rr .

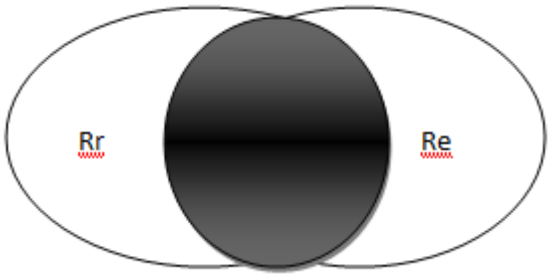

- الحالة الثانية : و تتقاطع فيها دائرتا المعارف بشكل واسع و آنئذ يتم التواصل بسهولة و يكون التفاهم قويا و في هذه الأثناء يحلل المستقبل مجموع الرسالة تقريبا مثال ذلك حوار محامي مع قاضي .

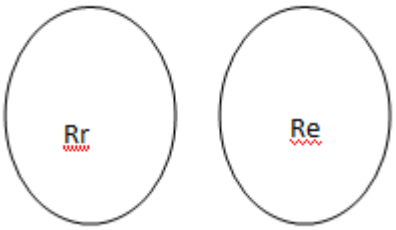

- الحالة الثالثة : و تكون فيها دوائر المعارف فيها أجنبية و غريبة بشكل جذري (الإطار المرجعي أو الإيديولوجيات أو الأنساق اللغوية أو الأنظمة الأخرى المستعملة) و لا يتم التواصل بين الأشخاص بتاتا .

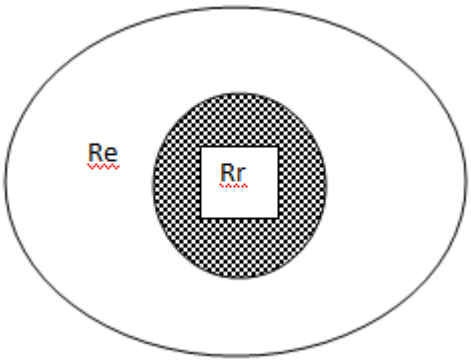

- الحالة الرابعة : و في هذه الحالة يستخدم المرسل عددا كبيرا من العلامات تتجاوز حدود معرفة أو تجربة المستقبل و من السهل على المرسل آنذاك أن يضبط التواصل و يحافظ على نوعية تفاهم المستقبل ، و إذا عكسنا في هذا الرسم وضعية المرسل و المستقبل فسيصير تفهم المستقبل للرسالة تاما و في أحسن حال و ذلك حسب الرسم البياني في :

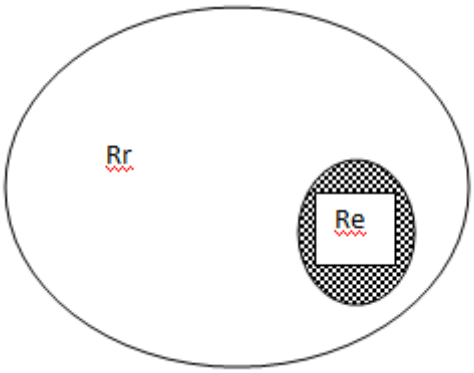

- الحالة الخامسة : و مثال ذلك أن يخاطب الطفل الصغير أمه و التعلم يمثل هذا الرسم و هي العملية التي يحاول المستقبل خلالها استيعاب دائرة معارف المرسل .

و سوف نرى فيما يلي العناصر التي تؤلف نسق التواصل وتعمل فيه ، و هي كالآتي :

ج- الرسالة :

و قد سماها آخرون : إرسالية ، و أطلق البعض الآخر عليها مرسلة أو بلاغ ، غير أن الشائع عنها هو اصطلاح الرسالة .

و الرسالة في نسق [1] E.M.R التواصلي تحتل أهمية بالغة ، فهي بما تنطوي عليه من معلومات و مهارات في ذهن المرسل أولا ، و لا يمكن وصولها إلى المستقبل ما لم تتم عملية التواصل عبر وسيلة من الوسائل و هي مؤلفة من أربعة عناصر هي :

- النظام Le code
- القناة Le canal
- الطاقة L'énergie
- موضوع الرسالة Le thème

ج.1- نظام العلامات

و هو ما يدعى في اصطلاح آخر بالشفرة و السنن و الراموز و القن. و يتولى المرسل صياغة الرسالة في شكل علامات أو أصوات أو رموز أو إشارات مناسبة يستطيع المستقبل تلقيها و إدراكها و تفسيرها، مما يفرض التقابل في معرفة النظام - أي نظام العلامات- لأنه إذا لم يكن النظام متعارفا عليه أو متفقا عليه فلا نجاح لفعل التواصل . إذن فالنظام مؤلف من علامات يتم صياغتها وفق قواعد متعارف عليها إما صوتية

[1] - E : Emetteur : المرسل .
M : Message : الرسالة .
R : Récepteur : المستقبل .

أو مكتوبة أو إشارية أو لمسية . و مثال ذلك اللغات الطبيعية و أنظمة العلامات الأخرى السيميولوجية المتداولة .

و تبعا لقدرات الإنسان الحسية ، فإننا نلمس تقسيما أوليا لأنظمة التواصل لديه ، و من جملة ذلك :

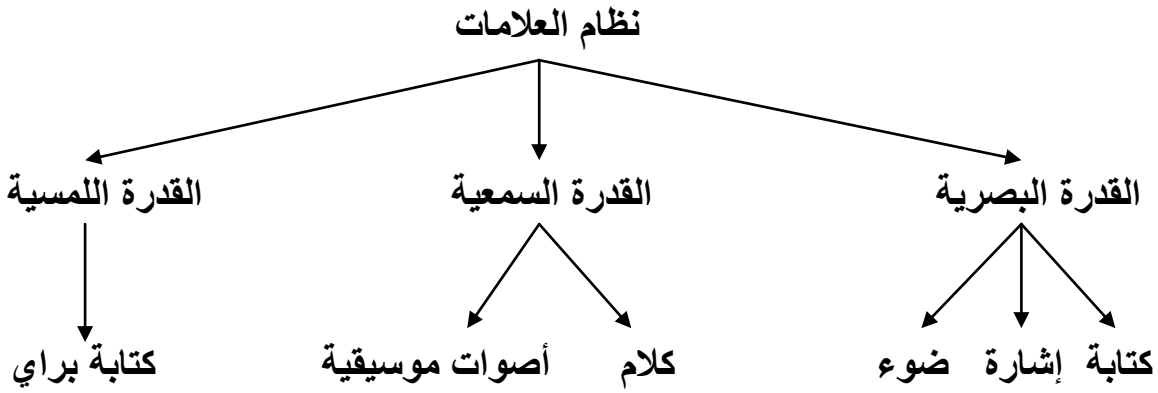

1 - الأنظمة البصرية التي تعتمد الصورة المرئية :

- نظام الكتابة .
- صور و رسوم .
- نظام الإشارات (إشارات الصم و البكم ، إشارات الشرطي ، إشارات رئيس الجوقة السيمفوني ... الخ) .
- النظام الحركاتي .
- النظام التجاوري ... الخ

2 - الأنظمة السمعية :

- الأنظمة اللغوية .
- الموسيقى المستعملة كنظام علامات .
- أصوات أخرى ... الخ .

3 - الأنظمة اللمسية :

- كتابة براي :

و لا يمكن للنظام أن تقوم له قائمة طالما لم تعرف القناة و الطاقة ، فما هي القناة ؟

ج.2 - القناة :

و هو مصطلح تقني في نظرية التواصل مأخوذ من قناة الماء و قد انتقل هذا اللفظ إلى الفرنسية و الإنجليزية بنفس المعنى، و عاد إلى العربية بعد أن حمل معنى آخر أتى به المهندسون لتعيين الوسيلة التي تنتقل فيها إشارات النظام أثناء عملية التواصل .
و هي كل مادة مستعملة لنقل رسالة من المرسل إلى المستقبل . إنها السند المادي أو الفيزيقي - كما يقول "دوبوا" Dubois - اللازم لبروز النظام في شكل رسالة ،ومثيل ذلك الهواء بالنسبة للأصوات الكلامية ، والحجر والورق والسبورة والشاشة الإلكترونية بالنسبة للتواصل المكتوب والأسلاك الكهربائية بالنسبة للتواصل التلغرافي والتلفون السلكي ، والأمواج الهرتزية المغناطيسية ، والأقمار الاصطناعية بالنسبة للراديو والتلفزيون والرادار وهو ما يمثل التواصل اللاسلكي ،ويمكن التمييز بين القنوات الطبيعية مثل الهواء و الضوء التي يكون فيها الإنسان مستقبلا للرسالة مباشرة ، و ذلك بفضل أجهزة حواسه الطبيعية ، كالسمع و البصر وغيرهما ، و بين القنوات الطبيعية أو التقنية التي يكون فيها المستقبل المباشر هو الآلة كالتلغراف و التليفون و الراديو و التلفزيون ... الخ .
و هي ما يشكل امتدادات لحواس ، و لضمان سريان الرسائل من المرسل إلى المستقبل ، يجب الاعتماد على الرسائل السمعية مثل ما ينتجه جهاز النطق البشري من تموجات صوتية ، و على الأذن و ما تخلقه من ذبذبات سمعية ... الخ .
أما الوسائل البصرية ، فهي الحافز الضوئي أو الإدراك الخاص بشبكة العين .
فالقناة بالمعنى الضيق إذن ، هي تلك الوسيلة المادية أو العضوية لنقل رسالة ما ، و من جملة ذلك : الهواء و الضوء .
أما القناة بالمعنى الواسع - كما قال بذلك مارشال ماك لوهن - فهي تشكل مجموع الوسائل لنقل إشارة ما من مكان إرسالها إلى مكان استقبالها ، و تشمل القناة آنذاك نظام العلامات أيضا ، و هكذا ففي التواصل بالإشارة المرئية ، يشكل نسق الإشارات (الهواء و الضوء و الجهاز المرئي و الوسائل المادية للإشارة) قناة ، و مثال ذلك الصحيفة ، و في هذه الحالة فإن القناة تأتي مرادفة لوسيلة الإعلام Mass-média .

ج.3 - الطاقة :

لا يمكن لأي قناة من قنوات التواصل أن تعمل إلا إذا توفرت على عنصر الطاقة ، و مثال ذلك الجهاز الصوتي للإنسان ، فإذا كان الإنسان حيا و بمعنى آخر مزودا بطاقة - أي بقدرة- وهي نتيجة امتزاج الحرارة الجسدية بالروح - فإن الجهاز الصوتي يستمد هو أيضا قسطه من الطاقة الإجمالية التي يتوفر عليها الجسد .
أما إذا كان الإنسان ميتا ، أي إذا انعدمت منه الطاقة الحية المحركة ، فإن جهازه الصوتي يبقى معطلا . كذلك الأمر بالنسبة للجهاز السمعي و لأجهزة أخرى طبيعة

أو اصطناعية ، فإذا لم تشحن هاتفك المحمول بالطاقة الكهربائية فإنه لن يشتغل .

ج.4 - موضوع الرسالة :

و يكون إما مرجعا ماديا أو تصورا عقليا واقعيا أو تخيليا جائزا أو غير جائز بالعقل . و يظهر ذلك فيما يعكسه المبنى من معنى ، و المعاني كما يقول أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين : " و المعاني بعد ذلك على وجوه ، منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك : قد رأيت زيدا . و منها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك : قد زيدا رأيته ، و إنما قبح ذلك لأنك أفسدت النظام بالتقديم و التأخير ... و منها ما هو مستقيم النظم و هو كذب مثل قولك : حملت الجبل و شربت ماء البحر ... ، و منها ما هو محال فاسد ، و ليس كل فاسد محالا . ألا ترى أن قولك : قام زيد ، فاسد و ليس بمحال ... و المحال ما لا يجوز كونه البتة كقولك : الدنيا في بيضة ... ، و أما قولك حملت الجبل و أشباهه فكذب و ليس بمحال ، إن جاز أن يزيد الله في قدرتك في تحميله ، و يجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا ، و هو قولك رأيت قائما قاعدا ، و مررت بيقظان نائم ، فتصل كذبا بمحال ، فصار الذي هو الكذب هو الحال بالجمع بينهما ، و إن كان لكل واحد منهما معنى على حياله ، و ذلك لما عقد بعضها ببعض حتى صار كلاما واحدا ... ، و منها الغلط و هو أن تقول : ضربني زيد و أنت تريد ضربت زيدا فإن تعمدت ذلك كان كذبا ... " .

و هكذا فموضوع الرسالة يحيل على حقائق حية و هي واقعية و متخيلة أو مجردة أو مستحيلة ، و هو المعنى أو المغزى أو المضمون أو دلالة النص ... الخ .

د- المقام :

اختلفت الآراء في تسمية هذا العنصر من عناصر التواصل ، فسمي بالسياق الاجتماعي و بالظرف و بسياق المقام كما سمي بسياق الحال و بالمقام . هذا من ناحية الاصطلاح ، فما هو المقام ؟

المقام هو مجموعة من الشروط السيكولوجية و السوسيولوجية و التاريخية التي تحدد إرسال رسالة أو عدة رسائل في وقت معلوم من الزمن ، و في مكان محدد من الأمكنة . و هو معلوم لدى المرسل و المستقبل ، و يتمثل بمجموعة من الحقائق التي تقودنا لهذا النظام أو ذاك . فالمرجع المقامي مكون - إذن - من عناصر المقام من المرسل و المستقبل و الظروف الزمانية والمكانية لنقل الرسالة ، و مثال ذلك ما يحدث حين يأمر الأستاذ طلبته : " ضعوا أقلامكم على الطاولة " . إن رسالته تحيلنا على مقام مكاني و زماني إضافة إلى الأشياء الحقيقية التي تحيط بموضوع الرسالة .

و هناك من قسم المقام إلى مباشر وغير مباشر . فالمقام المباشر يشمل فترة و مكان التلفظ ، و على الأخص العلاقة التي تربط المرسل بالمستقبل . و أما المقام غير المباشر ، و هو مجموع العادات و التقاليد في فترة معينة من التطور الاجتماعي لجماعة لغوية معينة .

و بالتالي ، فإن المقام هو مجموع الشروط المادية و الاقتصادية و البيولوجية و الفيزيقية التي نتواصل داخلها ، و للمقام أهمية قصوى في تحليل الرسالة فلا ندرك قيمته إلا حينما نحرم منه ، و ينتج من جراء ذلك العديد من التأويلات، ومن ثم نفقد قصد المرسل و نسيء فهم التواصل القائم .

إذن فالمقام يعمل على درء سوء الفهم ، و إبعاد الغموض الذي يكتنف الرسالة .

2.6إجراءات التواصل

أما القسم الخاص بالإجراءات، فيتجزأ إلى مبحث خاص بإجراء التركيب، ومبحث خاص بإجراء النقل، ومبحث بإجراء التحليل، ومبحث آخر بإجراء إعادة التركيب.

أ- إجراء التركيب Le codage:

وأثناء هذا الإجراء، يتم اختيار النظام الذي يتوقع المرسل أنه سيلقى نجاحا في التواصل مع المستقبل، وعلى أساسه يتم انتخاب واختيار بعض إشارات نظام من الأنظمة السميولوجية، لتركيب رسالة من الرسائل وصياغتها في شكل ما، تبعا لقواعد ذلك النظام السميولوجي الذي اختاره المرسل ليتواصل مع المستقبل.

ب- إجراء النقل Transmission:

ومن خلال هذا الإجراء، يتم نقل الرسالة المؤلفة من معنى ومبنى تبعا لمعطيات وقواعد النظام (مثال ذلك في التواصل المنطوق: رسالة لغوية تنقل عبر قناة الهواء أو الأسلاك التليفونية أو الأمواج الصوتية مزودة بطاقة تحرك القناة) إلى المستقبل بشكل مباشر أو غير مباشر –أي بواسطة- وهناك تتشابك العلاقة.

والنقط البارز في هذه المرحلة هي أن الرسالة –أثناء نقلها- قد تتعرض إلى بعض التشويه أو قد تشوه إجمالا أو تحذف أو يساء فهمها، وذلك بفعل عامل التشويش، فما هو هذا العامل.

التشويش Le bruit:

وقد يقول البعض أن ترجمة Le bruit بالتشويش ليست صائبة، والأصح أن نسميه بالضوضاء، لكن المقصود به عند دارسيه ليس بالضوضاء فقط، وإنما هو كل عنصر يعمل على تغيير الرسالة سواء أكانت صوتية مسموعة أو مرئية مكتوبة، وبذلك نقصد بمصطلح التشويش كل ما يؤثر في المراحل التي تنقل فيها الرسالة، وذلك كالصوت الخفيض أو الممزوج بالموسيقى أو شرود ذهن المستقبل أو خطأ في التركيب...الخ.

فالتشويش إذن لا ينحصر في الاضطراب في التركيب الصوتي فقط، وإنما نعثر على مثل هذا الأمر أيضا في التواصل المرئي (من ذلك مثلا لطخة أو وسخ على ورقة مكتوبة أو حتى على شاشة تلفزيون أو شاشة عقل إلكتروني أو خطأ مطبعي أو تآكل نقش على حجر...الخ.

ويؤدي التشويش إلى الغموض وإلى سوء فهم الرسالة، فتصير الرسالة المستقبلة غير الرسالة المرسلة من جراء ما طرأ عليها من عنصر التشويش.

كما نجد التشويش في الأنواع الأخرى من التواصل، ويمكن ألا يعتبر التشويش في حالات ما مصدر إزعاج، بل يصير هو بنفسه رسالة كالتصفيق في حالة تشجيع أو تأييد في مباراة أو محاضرة.

ويصدر التشويش عادة إما عن:

- قناة التواصل (ضجيج مزعج ومتنوع).
- المرسل أو المستقبل (تبعا لتكوينه أو لحالته النفسية).
- الرسالة (كأن تكون قليلة الوضوح أو ناتجة عن النظام الذي تم اختياره، وكان غير ملائم للرسالة ولوضعية التواصل).

التشويش والغموض:

في الحقيقة ليس التشويش هو الغموض وإنما ينتج الغموض عن التشويش.

وقد نجد مصطلحات توازي الغموض مثل الإبهام واللبس أوالالتباس أو غيرها، وكل ذلك يتعلق بالنصوص المكتوبة أو التي تنتسب للتواصل الكتابي –ولا ينحصر ذلك في التواصل الكتابي فقط، بل يسبقه الغموض في التواصل الشفوي.

وواضح أن الغموض في التواصل الشفوي الكلامي المنسوب للنظام الصوتي راجع لا محالة للتشويش الآتي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك:

- إما من المرسل الذي لم يختر النظام اللغوي الملائم لمستقبله العارف به، أو يكون قد اختار النظام اللغوي لكنه خرج عن دائرة معارف مستقبله، عندما لم يراع سنه الثقافي أو طبيعة تكوينه أو غير ذلك من الأمور الاجتماعية.
- وإما من قناة الرسالة التواصلية، التي قد يطرأ عليها عنصر خارجي يعمل على تغيير ذبذبتها الصوتية، كأن يتكلم المرسل عند حدوث ضجة إثر اصطدام سيارة، أو صراخ طفل أو صياح ديك أو نباح كلب أو سقوط صحن أو غير ذلك. فعوض أن يستقبل المستمع من المرسل الجملة التالية: "أرجوك أقرضني مائة درهم"، يتلقى الضجيج الذي حدث، الجملة التالية: "أرجوك أنقذني..." فقط، فتتغير ويضيع الجزء الأخير من الجملة التي بعث بها المرسل، بل غالبا ما يتجه انتباهه صوب مصدر الحدث الطارئ، أو ربما يوليه قلة انتباه، فيطلب من المرسل إعادة ما قاله وهو ما يسمى إطنابا. لأجل ذلك نلاحظ أن الصحافي المذيع يتخذ مقامه في الأستوديو معزولا بالزجاج كي لا يتسرب إليه عنصر التشويش. علما بأن الذبذبات الصوتية تخترق الحيطان إذا كانت قوية كما تجتاح الأمواج الهرتزية مثل هذه العوائق.
- وإما من المستقبل الذي قد يكون شارد الذهن عند تلقي الرسالة أو ضعيف السمع، فيحتاج المرسل أن يكرر إلقاء رسالته العديد من المرات أو أن يرفع صوته أو يطلب من شخص قريب من المستقبل أن يتوسط له في إبلاغه ما يريد، وربما ينقل له هذا الوسيط تلك الرسالة، كما أرادها وربما يعمل على تغيير مبناها، فتكون الاستجابة ناقصة أو معكوسة أو تافهة مما يؤدي إلى الغموض الذي يسقط فيه المستقبل، ويعمل على فشل التواصل بينهما. وفي حالات أخرى قد يستعمل المرسل وسائط اصطناعية، كمضخم الصوت أو التليفون أو الرادار أو التلغراف...إلى غير ذلك.
- هكذا –إذن- يصدر التشويش من جميع عناصر التواصل أو من بعضها مثل القناة وموضوع الرسالة أو سوء اختيار النظام أو من المقام الذي قد يشوه ما يعوق فعل التواصل.

ج- إجراء التحليل (أو تفكيك الرسائل)

ويسميها آخرون بتفكيك الرموز أو العلامات، وهي عملية إدراك أو فهم أو تعريف أو تفسير أو تأويل للعلامات التي تضمنتها الرسالة تبعا لنفس النظام الذي أرسلت فيه أو في أي نظام آخر.

وهذا الشكل الذي تلقاه المستقبل من الواجب أن يكون مفهوما لديه، حتى يتسنى للعلاقة الاجتماعية أن تكون قائمة، وذلك ما يظهر في الاتفاق والتقابل في النظام –المشار إليه سابقا- وهو معطى من المعطيات الأولية التي على المرسل أن يراعيه تبعا لما علم من قدرة مستقبله على التواصل لكي يتم نجاح فعل التواصل. وفي هذا الإجراء بالذات يستخلص المستقبل ما تحمله الرسالة من معان.

والخطر الأكبر هنا هو أن التفسير يعتمد على شخصية الفرد ذاته. لهذا، فإن مدلولات الرسالة قد تختلف من فرد إلى فرد، ومن مجتمع إلى آخر، حيث يمكن أن نجد تغييرات في المعنى الذي تؤديه العلامات، لذا قيل:"إن المعاني ليست في الكلمات بل في الأشخاص"، لذلك كانت الرسالة المستقبلة غير الرسالة المرسلة. وفي هذا الحال يتعثر التواصل، وهذا هو التشويش الصادر عن المستقبل أو هو ما نتج عن كيفية تلقي المستقبل للرسالة. وترى المرسل في حالة التواصل وجها لوجه دائم الانتظار، لما سيحصل بعد إلقائه لرسالته، وهذا الانتظار للاستجابة يدعى "بالفعل العائد La rétroaction" وفي اصطلاح آخر رد الفعل. لذا يمكن أن تكون استجابة المستقبل بالقبول أو الرفض أو بمجرد الاحتفاظ بالمعلومات في الذاكرة سعيا وراء المزيد من المعلومات.

الفعل العائد : La rétroaction

الفعل العائد ويدعى بالفرنسية la rétroaction وبالإنجليزية Feed-Back وخلاله يحتاج المرسل أثناء الحوار وجها لوجه –مع مستمعه أو مستمعيه، مع مستقبله أو مستقبليه- إلى الفعل العائد، وذلك لكي يطمئن المتكلم –مثلا- على أن رسالته وصلت إلى مستمعه في الغاية والنهاية التي كان يقصدها ويرمي إليها، وأما إن كان الأمر خلاف ذلك، فيحتاج إلى التفسير والإطناب، وإزالة العوائق التي حالت دون وصول رسالته إلى مستقبله.

و من ذلك مثلا أن يمتحن الأستاذ طلبته ليختبر درجة فهمهم للدرس الذي ألقاه عليهم طيلة الحصة ، و يحتاج المتكلم لتحريك رأس المستمع إبداء لاستيعابه .
فالفعل العائد أو رد الفعل يتمثل - إذن - في حركة الإنسان أو سكونه ، و يمكن أن نلقاه في مجالات أخرى مثل السبرنتيكا أو البيونيكا في صفة آلية . فحركة جسم الإنسان تظهر في استجابته للرسالة أيا كان نظامها .
كما أن السكون هو بدوره رد فعل ، فلا غرابة - إذن - بأن نقول أن لا وجود للا تواصل .
فالفعل العائد يمكن أن نستمد أصوله من المذهب السلوكي اللغوي :

حافز ⟵ استجابة لغوية ..... حافز لغوي ⟵ استجابة .

هكذا فالفعل العائد ذو تأثير كبير على نجاح أو فشل التواصل الجاري بين بني البشر . مثلا قال المتكلم " أغلق الباب " (بلهجة عنيفة) ، فلم يستجب المستمع لذلك الطلب ، بل راح يشتمه و يسبه ينحي عليه باللوم على ما بدر منه من سوء التصرف ومن ذلك قوله : ألا تعرف من أكون حتى تخاطبني بهذه اللهجة ؟ و ندم المتكلم و طلب منه الصفح عنه بعد أن علم قيمته وعلو مرتبته الاجتماعية و التمس منه أن يغلق الباب بصيغة تنم عن حسن السلوك و حب و احترام ، فولى المستمع إلى الباب فأغلقها عن طيب خاطر .

و هذا المثال يوضح لنا حالة واحدة من حالات لا متناهية ، يمكن حصولها من ذلك سوء الفهم العائد إلى التركيب اللغوي أو استعمال المفردات الموحشة أو استخدام أسلوب كان يجب أن يترك لعدم مناسبته لمقتضيات الحال ، مثل ما رأينا في المثال السابق ، و ذلك أن المتكلم لم يحسن اختيار الأسلوب الذي يلائم رتبته الاجتماعية ، حيث أنه طلب من مدير المصحة إغلاق الباب في صيغة الأمر ، و بتلك اللهجة العنيفة ، لم يلب المستمع طلبه ، و فشل قصد التواصل بينهما ، و لما تدارك المتكلم الأمر و أصلح خطأه - و نظرا لتسامح المدير - عاد قصد التواصل إلى النجاح .

و هكذا نجد أن التواصل في حوار وجها لوجه يمكن المرسل من أن يتعرف إلى مظاهر الفعل العائد إلى حد ما ، بينما يصعب ذلك في فعل غير مباشر ، إذ بتلك الاستجابة يستطيع المرء أن يتأكد من أن رسالته وصلت إلى المستقبل كما أرادها ، أو وصلت في شكل آخر من جراء ما طرأ عليها من تشويش يضطر معه المرسل إلى معالجة ذلك بفعل الإطناب : la redondance ، و يتم ذلك أثناء إجراء إعادة التركيب .

د - إجراء إعادة التركيب :

يأتي هذا الإجراء لتصحيح أو شرح الرسالة عند المستقبل ، و من ثم يعمد المرسل إلى الإطناب في حالة التواصل الشفوي ، فيكون :

1 - إما تركيبيا في التواصل المنطوق بالزيادة في التعبير و التكرار و الإطالة و الشرح و التبسيط .

2 - تطريزيا برفع الصوت أو تغيير معدل النطق و النبر و الوقف و النغم(انظر التواصل غير الكلامي).

3 - حركيا بالاستعانة بالحركة الجسدية أثناء الكلام ، و ذلك مثل قولنا " هذا " التي ترافقها الإشارة الحركية لأصبع أو الرأس ، و إذا حرمنا منها صار الكلام مبهما ، أو يكون الإطناب عبارة عن إيماءة من وجه بحسب التعبير المتداول بين الناس في مجتمع ما ، بحيث يصير عبوس الوجه إلى بشاشة مطابقة للكلام المنطوق .

4 - تجاوريا ، و ذلك عند احترام البعد المكاني في ثقافة المستقبل لكي يتم تأويل الرسالة كما أرادها المرسل .

و قد يكون الإطناب بتغيير نظام العلامات جملة ، طبقا لما يعرفه المرسل من قدرة المستقبل على التواصل في نظام آخر .

و هذه الإجراءات تكشف لنا أن عملية التواصل تجري في سلسلة مترابطة الحلقات و يؤدي ضعف أي حلقة فيها إلى ضعف السلسلة بأكملها .

كما أنها من جانب آخر تفصح عن تشابك العمل التواصلي ،ويضاف إلى ذلك أن الحدث التواصلي يخضع للسلوك الإنساني ، الذي يتميز هو الآخر بالتعقيد و التشابك حيث تتفاعل في إثارته و تحديد اتجاهاته عوامل متعددة و متداخلة .

هذا في حالة التواصل الشفوي الذي نميز فيه ما هو من قبيل التواصل الكلامي C.V[1] و التواصل غير الكلامي C.N.V[2] .

أما في حالة التواصل الكتابي ، فإن الأمر مختلف شيئا ما عما هو جار في التواصل الشفوي ، ذلك أننا نعيد تركيب الرسالة بتفسيرها أو شرحها أو ترجمتها في نظام لغوي آخر أو نصلح ما بدا لنا قابلا للإصلاح مثل البثر في بعض الكتب أو لطخة ما أو حذف أو ما شابه ذلك من الأمور التي يقع فيها التشويش على القارئ .

إذن ، فوقوع التشويش الآتي من عدة مصادر مثل تداخل شبكات الموجات و الأعطاب المادية و الحسية و الإسقاطات الشخصية و الأخطاء في التحليل ... الخ ، يجعل المراسل يبادر إلى الإطناب لإصلاح ما أفسده التشويش ، و كلما ازداد التشويش إلا ووجب أن نزيد في الإطناب و أن نطيل في الكلام ،وأن نكرر و نوضح و نبين أكثر فأكثر لنقترب بأقصى ما يمكن إلى معارف المستقبل .

القسم الثاني: مهارات التعبير

[1] C.V : communication verbale .
[2] C.N.V : communication non verbale .

1-أ - ما هي مهارات التعبير ؟

هي سلوك جديد يجيب عن حاجة قديمة محسوسة :

- عند الطلبة الذين يكونون عادة عاجزين أو لم يستعدوا بما فيه الكفاية لمواجهة تمارين كالتقرير الشفوي أو الكتابي ، أو عرض ما ، أو تحليل نصوص أو إعداد محضر من المحاضر .

- عند المدرسين الذين غالبا ما تواجههم المشاكل حينما يتواصلون مع أقسام أو مجموعات عمل . إن مهارات التعبير تؤدي بنا أساسا إلى المعرفة و الضبط و الاستعمال الواعي لوسائل منحتها لنا ملكة اللغة للتعبير و التواصل .

1- ب - كيف ندرك مهارات التعبير و نتصرف فيها ؟

أمامنا طريقتان :

- سنسلك طريقة تطبيقية و نفعية تلخص - بالمطلق - مهارات التعبير و اكتساب عدد من الإجراءات لها علاقة مباشرة مع متطلبات الحياة الدراسية و المهنية . إن هذا المسلك يؤدي بنا إلى إنشاء و نقل سلسلة من التحصيل بل الانعكاسات التي توجد في تعليم معياري قسري .

- و سنسلك نظرية تؤدي بنا إلى التفكير في ملكة اللغة و تحليل مختلف هذه العوامل و ميكانزماتها ووظائفها ، و هي بالفعل طريقة لسانية تقودنا إلى تفكير عملي في الممارسة اللغوية .

1-ج - أي طريقة نتبع ؟

الطريق المتوسط بطبيعة الحال :

1 - إسناد اكتساب مهارات التعبير إلى فهم دقيق لميكانيزمات التواصل .

2 - الانطلاق من وصف المظاهر التعبيرية ومن التواصل (وصف يستند على نظرية التواصل كما تبينها اللسانيات الحديثة) من أجل الوصول إلى التطبيق .

3 - لا ينبغي التفريق بين تطبيق مهارة و نقدها التحليلي ، و بكلمة أوضح إدراك الحدود بين التعريفات و قيمتها و أدوار وسائل التعبير والتواصل (و يساعد على ذلك معرفة التطور الحالي للسيميولوجيا) كل ذلك سيؤدي إلى إدراك أنساق التواصل و لربما إلى فهمها و تأويلها .

4 - تحويل الوصف النظري و التحليل و التطبيق لغاية جعله مقبولا على جميع المستويات المعتبرة ، و بطبيعة الحال الانطلاق من المبدأ القائل بأننا لا نتوجه إلى لسانين ، بل إلى طلبة من كل التخصصات .

5 - فتح و توسيع حقل تحليل المجالات المدرسية و الجامعية أو المهنية على مجالات الحياة اليومية و يعني ذلك استغلال مهارات التعبير والتواصل في حقل الإشهار و مجال الإذاعة و التلفزة و الصحف و الأشرطة المرسومة ... الخ .

6 - ينبغي - في أي مستوى - عدم التفريق بين ما هو نظري وصفي و بين ما هو تطبيقي ، و أثناء ذلك إعطاء أمثلة حية مع تبيينها و إيضاحها و إعطاء تمارين مصححة و أخرى قصد الإنجاز .

و هكذا نجد في مهارات التعبير نصائح عملية مستعملة مباشرة ، لكن أيضا - و نتمنى ذلك - الوسائل التي تتيح لنا أن ندرك بوضوح الميكانيزمات اللغوية .

إنها ليست نماذج ثقافية تؤدي بنا هنا إلى فهم لعوامل التعبير بل بالعكس إن التفكير في هذه العوامل هو الذي سوف ينتج تحليل و تفسير أنساق التعبير المعاصرة .

و من ثم نرشد إلى التفكير مليا في مهارات التعبير التي تشكل سلوكا يتعلمه الإنسان ، كما نرشد إلى العلاقات التي ترتبط بأشكال التعبير الاجتماعي و الفردي و ذلك بتعلم كيفية القراءة و الكتابة و الاستماع - أي الإنصات و الفهم - و كذا كيفية التكلم ، و هي ما يشكل الأهداف الأربعة المرصودة في تعلم مهارات التعبير و التواصل .

ومع مهارات التعبير -هذه- نكون قد وصلنا مرحلة التركيب فبعد تقديم ظاهرة التواصل و عرضنا لما فيها من عناصر و مكونات إضافة إلى تناولنا للجانب العاملي فيها ، نصل في هذه المرحلة و بعد التحليل إلى التركيب .

و يتجلى هذا التركيب في التواصل اللغوي فيما سوف نستغله من معطيات نظرية و تطبيقية تخص شق التعبير الشفوي ثم التعبير الكتابي.

1-د التواصل وملكة اللغة communication et langage

من أجل أن نتواصل يستعمل الفرد منا- أساسا- ملكته اللغوية.

لنحاول أن نضبط ما نعنيه من "تواصل خبرا بواسطة الملكة اللغوية"، قد لا يكون دائما فعلا إراديا، ونعني بذلك أن بعض الكلمات تفلت منا، وقد نحدث أنفسنا، وقد نترنم وقد نتعبد...الخ.

كما أن فعلنا –هذا- لا يكون دائما إيجابيا، وفي بعض الأحيان غامضا وعبثا وخاطئا مثل ما يحدث في حالة الغلط والكذب.

لنقل إن الكلام البشري هو نسق التواصل الأكثر غنى والأكثر مرونة –فيما نعلم- وهو أرقى الأنظمة* على الإطلاق.

إن هذه الملكة خاضعة لقدرة لدينا ليست بحوزة الكائنات الأخرى إننا نوظفها من أجل البيان والتعبير، قال تعالى: (خلق الإنسان علمه البيان)[1].

فالكلام البشري هو إقرار بوجود ملكة اللغة فهو ظاهرة ثقافية تتعدد وتختلف من أمة لأخرى. فاللغة التي نستعملها ليست فطرية بل هي مكتسبة خاضعة للاجتماع، إنها لغة خاصة بحضارة بعينها تنتسب إليها، فهي ليست عامة ولا طبيعية.

إذن فتنوع الثقافات واللغات يبين لنا أن اللغة نسق متفق عليه ،لذلك تجد لغات وليس لغة واحدة فقط، إنها تشكل في فكر الإنسان تمثيلا للعالم المحيط به، وتمثيلا له بدوره بتلك العلامات، لكن تبعت مرحلة ابتكار اللغة مرحلة التواصل التي صارت معها اللغة أداة يستعملها الإنسان على مر الأزمان.

1-د-1.التواصل اللغوي:

حينما نقول التواصل اللغوي فإننا نعني بذلك أننا اخترنا لأنفسنا أحد الأنظمة السيميولوجية الأكثر شيوعا في العالم من أجل التواصل بل إنه أرقاها على الإطلاق.

ذلك التواصل الموجود عند الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، ذلك التواصل الذي استخدم فيه الإنسان جهاز المضغ والبلع والتنفس من أجل إقامة علاقة تربطه مع بني جلدته، ذلك التواصل الذي نستغل فيه ثاني أكسيد الكربون الذي ننفثه من أفواهنا لنصدر به أصواتنا على إيقاعات مخارج جهازنا الصوتي الذي تحاكيه آلة النفخ الموسيقية. إن هذه الإفرازات يحكمها دماغ آمر ينتج الملفوظات اللغوية التي تتشكل في اللغات المتداولة على أوسع نطاق في رحاب كثيرة من المعمور.

كل أمة تستغل ما يلائم طبيعتها من أصوات قد تتقاطع الأمم في اختيار الأصوات المعبرة وقد تختلف، قد تأخذ الكثير منها، وقد تدع الكثير، لكنها أجمعت بالصدفة على استغلال الملكة

---

* الأنظمة: ج: نظام وهو نسق من العلامات نستعملها من أجل التواصل.

[1] - سورة الرحمن، الآية 2.

التي آتاها الله إياها لتظهر في شكل لغات ولهجات ولغيات وأصغر من ذلك أو أكبر (ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين).[1]

ومنذ الزمن الغابر إلى يومنا الحالي واللغة لازالت متداولة، وقد تتسع رحاب الناطقين بها وقد تضيق، وقد تتفرع وقد تتقلص، وقد تحيى وقد تموت ،وقد يحدث العكس مثل ما حدث للعبرية، وقد تندثر إلى غير رجعة مثل ما حدث للاتينية وغيرها.

إنها تشكل هوية الإنسان الثقافية وخصوصيته الجنسية، إنها تحيى بحياة قومها وتموت بموتهم، إنها سلوك نلقنه -في تواصل مستمر- للأجيال ونمرر به الرسائل الدينية والخلقية والعلمية المعرفية.

ولكن الإنسان منذ البدء لاحظ أن الكلام لا يدوم لفترة أطول وقد يندثر بذهاب حامليه وانقطاع دابرهم ،ففكر في حيلة تخلد ذكره وتفيد غيره فلجأ إلى حيلة الكتابة.

لذلك نجد أن "الكلام أقوى هدرا والكتابة أبقى نظرا" كما في قول العرب، وفي القول اللاتيني "Verba volant scripta manent". ومن ثمة تجد أن التواصل اللغوي تفرع إلى شق كتابي أيضا.

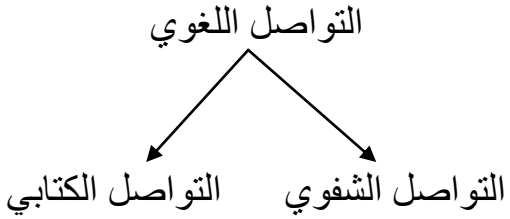

إن الملفوظ الشفوي أقدم زمنا من الرسائل المكتوبة ،وإلى غاية عصرنا الحاضر لازالت بعض الأمم لم تدون رسائلها الشفوية. علاوة على ذلك تنتج الأمم التي عرفت الكتابة الكلام الملفوظ أكثر مما تنتجه صنوه المكتوب.

لذلك فإن التواصل الشفوي ينشطر بدوره إلى تواصل كلامي وغير كلامي ويشار إليه باختزال في اللغة الفرنسية ب: C.V/C.N.V ،ورسم بيانه كما يلي :

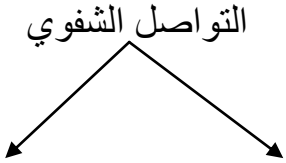

[1] -سورة الروم الآية 21.

1-د-1-1. التعبير الشفوي :التواصل الكلامي

فالتواصل الكلامي لابد أن يخضع فيه المرسل والمستقبل وبصيغة أخص المتكلم والمستمع إلى قواعد استعمال النظام اللغوي المتداول بينهما وآنذاك يتم احترام قواعد المستويات الأربع:

- الصوتية
- الصرفية
- التركيبية
- الدلالية.

وهذا ما تلقنه المتعلم طوال حياته الدراسية منذ البدء وتلقنه العامي في حياته وسلوكه اللغوي الموروث له عبر الزمن دون أن يشعر به، فإذا خرج عن هذه القواعد التي تنتمي إلى المستويات الأربع، فإن في المجتمع سلطة ترده إلى الصواب بقولها له: "قل ولا تقل" dire et ne pas dire.

ولذلك ترانا نحترم القاعدة المشار إليها في قضية التقابل اللغوي بين المرسل والمستقبل -وهي ما نرسي عليه تواصلنا الناجح- وهي ما يدعى بالفرنسية ب: la symétrie.

ورغم ما يظهر من بساطة مفهومها - أي هي من تحصيل حاصل- فإنها ذات أهمية بالغة، ويظهر ذلك في التواصل المتعالي مثلا، حيث أشار الحق سبحانه في قوله: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)[1]ليبرز أهميتها في الاستدلال والإقناع.

ومن ثم نعلم أن النظام اللغوي المتداول بين المتكلم والمستمع ينبني على التقابل و الاشتراك في معرفة مستوياته اللغوية إن بالتلقين اللغوي الشفوي أو بطريقة أخرى.

[1] - سورة إبراهيم الآية 5.

ومن المسلم به أن التقابل في معرفة المرسل والمستقبل بنظام العلامات المستعمل سند قوي لُنجاح فعل التواصل ،وبتأملنا في مفهوم التقابل نجد أنه يظهر في حالة التواصل الكلامي في قدرة المتكلم على صياغة رسالته تبعا لما اكتسبه من سلوك لغوي أخذه عن آبائه وأجداده وممن هم حوله –إن كان متكلما أصيلا في لغة ما- وقد يكون أخذه بالتعلم انطلاقا من الكتابة أو التلقين الشفوي، وأمثال ذلك ما تعلمناه من أحرف طوال حياتنا الدراسية، فنبدأ بالمستوى الصوتي فنتعلم ألفباء اللغة ويرافقها تعلم كتابتها.

ثم نتعلم المستوى الصرفي فنصوغ على نحو ما قاله المعلم ،ونحترم البنيات الصرفية التي توظف فيها تلك الأصوات المستعملة في المستوى الصوتي ،وإن استعملنا أصوات مخالفة لما هو مستعمل في تلك اللغة رددنا إليه بطريقة: هذا صواب وهذا خطأ وما إلى ذلك، حتى إنك إذا أردت إقحام لفظ دخيل فإنك تخضعه إلى البنيات الصرفية علاوة على استعمالك للأصوات المتداولة في لغتك مثل قولك: "البابو"في الدارجة المغربية في مقابل lavaboالفرنسية.

إنك تحترم وتقيس على نحو ما تعلمته من بنيات صرفية فتنشئ على شاكلة ما تلقنته في هذا المستوى ألفاظا تحافظ فيها على الأصل أو الجذر، وتضيف إليه سوابق ولواحق وحشوا وقد تحذف وقد تغير بنية الكلمة بالمطلق،وقد تكرر ما حفظته سماعا بدون إعمال فكر.

أما في المستوى التركيبي الذي يستند إلى ما سبق من مستويات فإنه لابد من أن تراعي بنية الجمل المستعملة في اللغة التي تنطق بها حتى يتم صياغة رسالتك على نحو ما سمعته أو اعتدته أو حفظته مراعيا قواعد تركيب هذه الجمل.

فلا تستطيع في جمل عربية -مثلا- أن تضم فئة الأفعال إلى بعضها في سلسلة لا متناهية دون استحضار فاعل الفعل أو المفعول إن تطلب الأمر ذلك، مثل قولك: دخل خرج نام أكل...الخ، ولا أن تركب بنية فيها الكثير من الأسماء دون أن تسند إليها خبرا أو فعلا مثل قولك: محمد علي شجرة برتقال فأر... إلى ما لا نهاية، كما أنك لا تستطيع ضم أحرف المعاني إلى بعضها إلى غير نهاية مثل قولك: في إلى حتى على...الخ. هذا باختصار ما يمكن قوله عن التواصل الكلامي لأننا نكتسبه صباح مساء ، ونتعلمه إن رغبنا -كلما أمكن ذلك- حينما نأخذ اللغات الغريبة عنا.

مستويات لغوية

من أجل أن نتواصل نتكلم نفس اللغة لكن هل هذه اللغة واحدة أم لغات (مثال العربية)؟

هل عربية المغربي هي عربية السعودي؟

هل عربية الحساني هي عربية الفاسي؟

ألم تتأثر عربيتهم بالمناخ بالسكنى...؟

هل عربية الطبيب هي عربية المريض؟

ألا تتحدد المراتب الاجتماعية وكذا الثقافات واللغات المنسوبة إليها؟

إن هذه الأسئلة –وغيرها- تؤدي إلى اعتبار وجود عدة مستويات لغوية، فالمفردات والتراكيب والنبرات تختلف بحسب هذه المستويات.

قد نميز لغة الكتابة واللغة المنطوقة، وبداخل اللغة يقبل اللسانيون وجود لغة مشتركة –أي مجموعة من الكلمات والتعابير والتراكيب المعتادة والأكثر تداولا- تلك اللغة البسيطة والصحيحة، وفوقها لغة راقية وتحتها لغة عائلية، فوقها أيضا لغة الخطابة وتحتها لغة هجينة أو شعبية وفي بعض الأحيان ساقطة مبتذلة.

إن هذا التمييز على ما يظهر غير قار لأنه يستند أساسا إلى معايير متغايرة متنافرة.

فحينما نقول لغة راقية ولغة شعبية فإن معيارنا اجتماعي، بينما نقول لغة خطابية ولغة هجينة فيكون المعيار آنذاك مقاميا. وقد يستعمل الفرد منا نفس المستويات لما يضطر لذلك، فقد خاطب بشار بن برد مادحا جارته بقوله:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

الخ.

ومدح أحد الشعراء الخليفة قائلا:

أنت شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كواكب

فخطاب الشارع ليس خطاب المنزل، لذلك نرى أن اللغة الراقية تبحث عن المفردات الصعبة المنال وعن التراكيب المنمقة مثل قول المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

والكلام الخطابي جملة ينتقي ويبحث عن أحسن وأجود ما في اللغة من تراكيب ومفردات مثل قول قس بن سعدة الإيادي:

لـيـل داج ونـهـار ســـــاج ،وسمـــاء ذات أبـــراج

واللغات الهجينة والعائلية نسمع فيها عبارات صورية تمثيلية كما نلاحظ فيها تراكيب غير مألوفة ولحنا وتحريفا وتصحيفا للكلام منكر.

ولغة الكتابة عادة ما تكون مرموقة خلافا للغة المنطوقة الشفوية، ففي لغة الكتابة تقل المستويات، وتكون ذات علاقة بالشروط الاجتماعية الثقافية، واللغة الكتابية الهجينة أو الساقطة تشكل سلسلة من الأخطاء في التراكيب والإملاء بينما اللغة المكتوبة الراقية هي بمثابة لغة الأدباء.

إن المفردات الخاصة ببعض الجهات وبعض الحرف وبعض العلوم والتقنيات تؤدي بنا إلى تحديد مستويات أخرى أيضا بحسب معايير مختلفة أيضا، وقد رأينا في تحديد المعايير السابقة أنها لم تكن مضبوطة، لكن الأساس فيها هو أن نعي بهذه المستويات في حدود إنجاح فعل التواصل. ونتساءل كيف لمعلم أن يقيم درسه إذا لم يكن ينطق بكلام في مستوى وعي تلاميذه، ومن ناحية أخرى عليه أن يقودهم إلى استعمال اللغة المشتركة بالرجوع إلى لغة – شيئا ما- فوق العادة غنية بمفرداتها وصحيحة في تراكيبها، ويرافق التواصل آنذاك تصويب للأخطاء وإغناء للرصيد اللغوي والمعرفي، لكن عمل المعلم هنا يتطلب وجود عرف لغوي بمعنى استحضار طريقة جميلة في النطق والكتابة تبعد الأخطاء والشوارد وعامي الكلام وأغلاطه...الخ.

فإذن هناك الكلام الحسن، والكلام القبيح مما يدعونا إلى تمييز مستويات عامية ومستويات راقية في الكلام خلافا لما هو موجود في المستوى العائلي، لأن هذا المستوى –على ما يظهر- أنه ذو صواب شيئا ما وأن فيه شيئا من المرونة اللغوية خلافا للمستوى الراقي.

إن التواصل الشفوي ينقسم إلى عدة مستويات لنأخذ مثالا على ذلك "اللغة العربية"، فهي تنقسم بحسب اللهجات، ولكل بلد لهجته، وينبني ذلك أساسا على المعطيات اللغوية لكل بلد، وبحسب ما طرأ عليها من تطور كما يلي:

- المعطيات اللغوية: الفئات اللغوية الأصيلة في البلد إضافة إلى الفئات المهاجرة في الجزيرة العربية، إضافة لتأثير الجوار.

- التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المؤثر في الجانب اللغوي.

وتبعا للمعطيات السابقة اختيرت اللغة المشتركة آنذاك بين القبائل ورجحت كفة الحجازيين الناطقين بها، واتخذت العربية المشتركة آنذاك لغة معيارية، لكن هل كانت تنطق بها كل الأمم الداخلة في الإسلام.

لاشك أن الأمم الداخلة في الإسلام –بعد طول احتكاكها باللغة العربية وعلى اعتبار أن كل مغلوب تابع لغالبه – سرى فيها فعل محاكاة العرب في نطقهم، وجرى كلامهم على ألسنتهم بعد طول مماحكة وتأثر وتأثير إضافة إلى العوامل الداخلية المؤثرة في لغتهم، مما نتج عنه مزيج من اللغات مع طغيان اللغة العربية التي كانت هي لغة الحكم والعقيدة والقرآن.

ونتيجة لذلك نشأت اللهجات مما ترتب عنه ظهور ازدواجية اللغة بل ثلاثية اللغة في بعض الأحيان في بلد واحد.

وبقيت اللغة العربية لغة الكتابة المعيارية، ولهجة أهل البلد صارت اللغة المشتركة بين سائر أطراف المجتمع في أي بلد من البلدان العربية حاليا وحتى في شبه الجزيرة العربية.

مما أفرز لنا علاقة جديدة في علاقة الفصحى بالمكتوب، وعلاقة المكتوب بالمقروء الذي نسير به دواليب الحكم وتمارس به الشعائر الدينية.

ونجم عن ذلك ظهور فئات اجتماعية في أوساط اللهجة المشتركة، وحاليا نلاحظ مستويات في هذه اللهجة:

- اللهجة الراقية شيئا ما من اللغة العربية المعاصرة.
- اللهجة الشعبية.
- اللهجة العامية.

ملاحظة :

الكتابة عن التعبير الشفوي رهان صعب ، فقد رأينا أن اللفظة هي نقطة لقاء العديد من المؤثرات : اللغوية ،والتفكيرية ،والجسدية والتعبيرية ، فوضع كل ذلك نصب أعيننا يمكننا من فهم كل مؤثر على حدة ،وخير طريقة للتمكن من هذه الوسائل التعبيرية ، هي التداريب المسرحية ،والتعبير الجسدي ومشاهدة النفس على الفيديو كما رأينا .

إن تعلم اللغة عند الطفل ينبع من الرغبة في التواصل، لكنه يصطدم بالقواعد و المفردات الصعبة .

فالكلام عملية تعلم داخلية مستمرة و دائمة ، تدفعنا لنتساءل -باستمرار- عما قلناه قبل قليل و كيف قيل ؟ و لماذا ؟

فالكلمة هي ملك خاص و مطمح للرقي و لهذا يجب أن نتكلم دائما ، بعد قراءة كتاب أو مجلة ، بعد زيارة مدينة أو دولة ، بعد القيام بعمل ما .

فعندما نتكلم نعيش تجربة أفكارنا الخاصة ؛ نعيش الحرية و اللقاء بالآخر ، فالميل اللفظي يجب أن يحمل أفكارنا ،والتفكير يجب أن يأتي بعد و ليس قبل الكلام ، فاللفظة سلطة ، و كباقي السلط لا يجب أن نغلط في استعمالها مع أهدافها . فاللفظة يجب أن ترشدنا إلى أفضل الطرق لتحريرها .

التواصل غير الكلامي:

إن المكونات الكلامية وغير الكلامية للملفوظ تتكامل بدل أن تتعارض، فتواصلنا غير الكلامي يعتبر قديما قدم التواصل الكلامي في كثير من اللغات، ويسمى عند اللسانيين بالعناصر المساعدة للكلام Les éléments paralinguistiques.

إنه بحق جزء جوهري في السلوك اللغوي حيث –كما قال أبركرومبي- "نتكلم بجهازنا الصوتي لكننا نتحاور بجسدنا كله، فظواهر مساعدات الكلام تظهر بموازاة مع اللغة المنطوقة وتندمج معها ويؤلفان سويا نسقا متكاملا للتواصل، ودراسة سلوك مساعدات الكلام يشكل جزءا من دراسة التحاور فلا يمكن أبدا أن نفهم استخدام اللغة المنطوقة في التحاور إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار مساعدات الكلام".[1]

[1] - Jacques Corrage : La communication non verbale p. 77

وقد أوضح عالم اللغة "لينزLyons" أننا أثناء التحاور الذي يكون وجها لوجه يحتاج المتكلم دائما للفعل العائد أو الاستجابة من المستمع، وذلك كي يطمئن المتكلم على أن المستمع يتتبع قوله أو يتفق معه فيما يقوله، وهكذا دواليك نلاحظ أن المستمع يهز رأسه موافقا أو معارضا أو متذمرا أو متأففا كما أن حركات العينين والحاجبين تشكل جميعا جزءا من الاستجابة. إننا لا نقول أن الأمر يقتصر على المستمع فقط بل إنه صادر من المتكلم أيضا، فلا يستغني أحدهما عن استعمال مساعدات الكلام التي صنفت عند بعض علماء التواصل بأنها أنظمة فرعية، وقال آخرون بأنها أنظمة علامات سيميولوجية قائمة بذاتها وسندرسها كما يلي:

*التطريز La prosodie

كان التطريز قديما هو دراسة القواعد التي تنتسب إلى التغيرات الكمية في النطق (الإيجاز والإطناب) والكثافة (صوت غليظ أو رقيق) في القوة، منبور أو غير منبور، وهذا حسب "ليونيل بلنجر".[1]

والتطريز عند ليونيل بلنجر هو التنغيم l'intonation لكن الاصطلاحات تختلف من دارس إلى آخر، فقد سمى الدكتور الحمو la prosodie بالعروض.[2]

لكن- وخشية الالتباس والإبهام الذي قد يثيره هذا المصطلح من شحنة دلالية قديمة- وهي: "العروض في الشعر" آثرنا أن نسمي هذا الصنف من التلوين في النطق بالتطريز.

ويحدد "أندري مارتيني" هذا الجانب الفعال في أفعال الكلام بقوله: "إن الطبيعة الفيزيائية للظواهر التطريزية تضم تحتها جميع الظواهر التي لا تدخل في إطار التحليل الصوتي –أي التي لا تخضع بشكل أو بآخر إلى التقطيع الثنائي- ومن الوجهة الفيزيائية نعني بها بشكل عام تلك الظواهر الصوتية التي توجد بالضرورة في جميع أشكال الكلام المنطوق، وسواء تكلم المرء بشدة ملحوظة أو ضعيفة، فإن هذه الظواهر موجودة بدرجة تزيد أو تنقص، وحالما يصبح الصوت مسموعا يكون لاهتزازات الأوتار الصوتية بالضرورة ذبذبة معينة، وهناك خاصية أخرى يمكن الاستفادة منها تطريزيا هي المد la durée مع العلم أنها تشكل جانبا فيزيائيا من جوانب الكلام المنطوق وهو جانب لا يمكن تجاهله لأن الأقوال تتوالى عبر الزمن، وبما أن الأمر على هذا الحال يصبح مفهوما لدينا أن هذه الظواهر لا تؤدي دورها لغويا من خلال وجودها أو عدمه عند نقطة معينة من الكلام، بل من خلال أشكال ظهورها، وهي أشكال تختلف من جزء إلى جزء آخر من أجزاء الكلام، ونتيجة لذلك كانت هذه

[1] - Lionel Bell enger : 1984, « l'expression orale » p : 46.

[2] - عند ترجمته لكتاب أندري مارتيني: "مبادئ اللسانيات العامة".

الظواهر أقل ملاءمة لوصف الوحدات المقطعة من الظواهر الأخرى (كالغنة أو الانسداد الشفوي) التي قد تظهر أو تختفي في قول من الأقوال.

إن جملة "ضع القدر على الطاولة" ليس فيها غنة ولا انسداد شفوي، ومع ذلك لا يستطيع المرء إصدار مثل هذا الأمر دون أن يستخدم عن قصد أو دون قصد عنصر المد من جانب آخر، علما بأن هذين العنصرين الأخيرين يتغيران من بداية القول إلى نهايته، ومع ذلك تشكل النغمات كما هو معلوم –وهي ظواهر تطريزية لأنها لا تخضع للتقطيع الصوتي- وحدات مقطعة شأنها في ذلك شأن الوحدات الصوتية".[1]

إن جملة مثل "صلي على النبي" (في الدراجة المغربية) تعني الصلاة على النبي فعلا في نغمة، وتعني كذلك الانتهاء من فعل شيء ما بنغمة أخرى، لكن اللفظ يبقى نفس اللفظ.

وعليه يقصد بالتطريز في المعنى الشائع أن الأمر يعني –على الخصوص- اعتقاد ما تقول، لكي يكون للتنغيم حظ من الصحة، ويمكننا أن نقول: صباح الخير بطرق عدة: بموضوعية، بسخرية، باحترام...الخ.

ويبقى التطريز أو الصفات التطريزية من المجالات التي لم يهتم بها المتخصصون كثيرا، بحيث يظل مجالها مجال المتخصص الماهر في اللغة ذي الحظ الوافر في ثقافة اللغة التي يحللها.

ولقد جعل أندري مارتيني للتطريز دورا هامشيا حين قال: "لكنها تظل ظواهر هامشية لأن أي قول من الأقوال لا يكون لغويا إلا بقدر خضوعه للتقطيع الثنائي".[2]

في حين أن التداوليين أولوها عناية خاصة، وأدركوا أن لها مكانة في تحليل الرسالة وألفاظها ومحتوياتها، ومن ذلك قول "أوستين" في الفصل الذي خصه للتطريز سماه بالتشديد على الصوت وإيقاعه وتنغيمه بإمالته وغير ذلك من فنون القراءة: "ونظير هذا ما تتوفر فيه من وسائل جد معقدة وما يستخدم في السينما والمسرح من إعطاء توجيهات إلى الممثلين لتحسين أصواتهم وحركاتهم وأوضاعهم وضبط انفعالهم كتعليمهم كيفية النطق بالتهديد، وقس على ذلك".[3]

---

[1] – مبادئ اللسانيات العامة: لأندري مارتيني، ترجمة د.الحمو ص 76.

[2] - نفس المرجع السابق، ص 96.

[3] - J.I Austin :quand dire c'est faire p.94.

ويضرب لنا أوستين مثالا على ذلك يبين فيه ما يحدثه التغيير والتلوين الصوتي على مستوى الدلالة في التواصل الشفوي، كما يبين الصعوبة التي تواجهنا ونحن نحاول إثبات هذا التلوين على مستوى التواصل المكتوب قائلا:

سيهاجم: إنذار.

سيهاجم؟ سؤال.

سيهاجم ! احتجاج.

وإخراج هيئات الكلام هذا المخرج في لغة التخاطب الشفوي يتعذر نقلها بأسلوب التخاطب المكتوب، فمثلا حينما أردنا الاحتجاج حاولنا أن ننقل إيقاع الصوت، وتنغيمه والتشديد عليه باستعمال علامة التعجب والاستفهام معا (إلا أن هذه الطريقة سخيفة لا تنفع في شيء)، ثم إن علامات الترقيم وطريقة كتابة الحروف الأولى من الكلمات بتطويلها وترتيب الألفاظ، لا يمكن أن يكون ذلك كله عونا لنا في شيء، ولا يفي بغرضنا.[1] على أن أندري مارتيني يعود فيقول تارة أخرى أن لهذه الظواهر أهميتها عندما تحدث عن التنغيم قائلا: "وهكذا لا يستطيع المرء أن ينكر على التنغيم كل قيمة لغوية".[2]

ويرى "جون دوبوا" أن التطريز دراسة للخصائص الصوتية التي تؤثر في متتاليات مختلف اللغات التي لا تنتسب في حدودها إلى تقطيع السلسلة الكلامية إلى فونيمات سواء أكانت دنيا كالمورس أم عليا كالمقطع أم مختلف أجزاء الكلمة أو الجملة.

فالتطريز –إذن- جزء من الفونولوجيا في حين أن بعض اللسانيين وعلى الخصوص أصحاب المدرسة الإنجليزية وكذا الأمريكية يرون أنه من الأجدر أن يتضمن التطريز بعض الملامح التي تنتسب إلى الفونوماتيك la phonomatique (وهي حسب الاصطلاح الشائع في أوربا جزء من الفنولوجيا يدرس الفونيمات على الخصوص ،أي أصغر الوحدات التمييزية)[3].

إن هذه العناصر أو الظواهر فوق المقطعية –كما سبق أن ذكرنا- هي عناصر صوتية ليست بالفونيمات، وإنما هي وحدات وظيفية لا وجود لها ذاتيا، بل ترغم على الاتحاد مع فونيم واحد أو عدة فونيمات لتتحقق في السلسلة الكلامية، وهي غالبا ما تدخل على الفونيم فتغير

[1] - نفس المرجع السابق ص: 94-95.
[2] - مبادئ اللسانيات العامة ص 77.
[3] - J. Dubois, Dictionnaire de linguistique, p/389.

في ارتفاعه أو تواتره أو مدته، كما تدخل على تراكيب أكبر من الفونيم من مثل المقطع والكلمة والعبارة والجملة.

ويميز علماء الأصوات بين عدة أنواع من الوحدات فوق المقطعية نذكر أهمها وهي:

- التنغيم l'intonation
- النبر l'accent
- اللحن أو النغم la mélodie ou Ton
- المد La durée
- الوقف La pause

وسنرى هذه الصفات بتفصيل فيما يلي:

- التنغيم:

لقد قال نيتشه: "لا ننقض في الغالب رأينا في حين أن الذي جعله على تلك الشاكلة هو في الحقيقة تلك النغمة التي عبرنا بها".[1]

فالتنغيم مسألة تخص الشعور والتفاهم والاقتناع، ويكون مقبولا وصحيحا لما نعتقد على الخصوص ما نقول، ويلعب التنغيم دورا تقريريا في التواصل والعلاقات الإنسانية. فمثلا في الدارجة الفاسية نستعمل جملة "الله أكبر" في تنغيمات صوتية عدة ففي: التعجب نقول "الله أكبر !" وذلك عندما يقوم شخص ما بعمل نستنكره، وفي النداء للصلاة ننادي "الله أكبر". وفي التأسف والحسرة على وفاة شخص ما نقولها أيضا، كما نستعملها في السخرية عندما نستنكر قول شخص كاذب، وذلك بتنغيم يختلف الواحد منه عن الآخر وفي سياق ينبئ بذلك.

ولا يخص هذا الأمر الدارجة الفاسية فقط، بل نجد مثله في العديد من اللهجات واللغات ،ومن ذلك الفرنسية فقد ذكر "ليونيل بلنجر" أن bonjour ينطق بها على ثمان تنغيمات لكل منها معنى خاصا.

ومن الثابت أن رجل المسرح يعتمد كثيرا على خاصية التنغيم الصوتي لكي يشخص حالة مرض أو بؤس أو إعياء أو استفسار أو سخرية أو شجاعة وذلك لاستثارة عاطفة أو حب تطهير من عقدة ذنب أو تشجيع على خير.

إن التنغيم يشرح العديد من المواقف والعواطف والإحساسات إنه يبين لنا ما يكنه المرسل.

[1] - Lionel Bellenger : l'expression orale, p : 65.

وقد حاول "ليونيل بلنجر" أن يقنن هذه التنغيمات بتصنيفها حسب الجمل إلى ثلاثة أصناف:

- صنف الجمل التصريحية Les phrases déclaratives
- صنف الجمل الاستفهامية Les phrases interrogatives
- صنف الجمل التعجبية Les phrases exclamatives

ولأجل تحقيق هذه التنغيمات قال: إنه بإمكاننا أن نصعد التنغيم أو نحذره أو نوازنه أو نتيقن من شدة قوته أو بقلتها وضعفها وذلك في الصعود والانحدار، ويتشكل ذلك كتابة في الأسهم الصاعدة أو المنحدرة ومثل ذلك الجملة التصريحية التالية التي تصلح للتأكيد والإخبار.

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

حيث يمثل السهم الصاعد التأكيد ويرتفع معه التنغيم، ويمثل السهم المنحدر الإخبار وتفسير ذلك أن الله الذي رفع السماء بغير أعمدة وبعزته وجلاله قد سما بآل بيت جرير –صاحب البيت الشعري- إلى العزة والسؤدد.

إذن فإثارة الانتباه بذكر الله، جعلت المستقبل أو المستمع ينتظر ويصغي للخبر الذي أتى به جرير بعد ذلك.

وهكذا فبابتعادنا –كما قال ليونيل- عن سرعة النطق وكثافته، ومفاجأته للسامع، عن إيجازه وليونته نحصل على متغيرات في الأسهم الصاعدة التي يسميها اللسانيون المنفتحة والأسهم المنحدرة وتسمى بالمنغلقة fermantes، مما ينتج متغيرات في التنغيم. وقال ليونيل "إن الجملة الاستفهامية ما هي إلا جملة منفتحة أي لها سهم صاعد وتوعز إلى انتظار الجواب.

وقال أخيرا إن الجملة التعجبية تثير انتباهنا إلى الشحنة حيث تظهر نغمتان بينهما طبقتان صوتيتان فقط، وتوجد في المقابل لغات تربط بين النغمات الانسيابية والطبقات الصوتية، وهذه اللغات هي تلك التي يميز فيها المرء مثلا نغمة عالية متصاعدة عن نغمة عقيمة، علما بأن كل نقطة في المسار الصوتي للنغمة الأولى تقع أعلى من مثيلتها في النغمة الثانية.. ونستطيع في بعض اللهجات الفيتنامية أن نحدد ست نغمات موزعة على طبقتين صوتيتين، وهي: 1- نغمة متصاعدة عالية – 2- نغمة متصاعدة عميقة – 3- نغمة موضعية عالية – 4-

نغمة موضعية عميقة – 5- نغمة "مختنقة" عالية – 6- نغمة "مختنقة" عميقة .وهكذا نرى أن بإمكان النغمات الموضعية والنغمات الانسيابية أن تتواجد جنبا إلى جنب".[1]

ونجد أن كثيرا من الباحثين يخلطون بين معنى نغم أو لحن Mélodie وبين التنغيم l'intonation، في حين أن التنغيم كما سبق بيانه –يتميز عن النغم، بحيث أن الأول يمثل إنجاز شخص ما لملفوظ، وكذا إرادته في تغيير معنى الملفوظ أو الجملة حسب ما يهدف إليه.
أما النغم أو اللحن فإنه موجود في اللغة أصلا بحيث نرى –كما بين ذلك مارتيني- أن "lo ko lo" تعني في نغمة ما معنى "الثمرة" وبنغمة أخرى "استحضار الأرواح".

وفي المغرب نميز مثلا بين نغم كلام الحسانية –ونغم كلام دكالة ونغم كلام مراكش ونغم كلام وجدة.

-النبر L'accent

يراد بالنبر الضغط على أحد المقاطع وإبرازه بالنسبة للمقاطع الأخرى المجاورة له، ويتم ذلك بتغيير في قوة المقطع المعني أو ارتفاعه أو مدته فعند النطق به يلاحظ أن جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط، بحيث يصبح الصوت واضحا في السمع.

وقد أعطى جورج مونان للنبر ثلاث معان:

أ-فنولوجيا: يطلق النبر على ظاهرة تطريزية تطبع المقطع وتهيء تعارضا بين هذا الأخير وبين المقاطع الأخرى حسب الوحدة النبرية، ويميز النحاة القدامى بين عدد كبير من النبر، وبالأساس بين النبر الأسلوبي Ton والنبر النغمي (أو اللحني) mélodique المتصف بارتفاعه الموسيقي الكبير للمقطع المتأثر، والنبرة النشيطة dynamique (أو التي تمتاز بقوة في التنفس...الخ) كل هذا يستند إلى تشديد في قوة النطق.

ب-النبرة التعبيرية (أو التحريضية) لها قيمة تعبيرية فقط- ونميز في هذا المضمار بين صنفين من النبرات الأولى وتدعى بالنبرة الثقافية وهي التي ترتكز في الفرنسية على إظهار المقطع الأول من الكلمة، ويقوم آنئذ بدور فاصل، أي معين للحدود، في حين أن الثانية (في الفرنسية مثلا) هي النبرة الانطباعية التأثيرية، وتكتسي شكل امتداد لصائت الكلمة وتقوم بدور رفع الصوت فقط.

[1] - نفس المصدر ص: 79.

ج-النبر الغريب: وهو أن ينطق شخص ما لا ينتمي لنفس اللغة أو لنفس الإقليم أو المنطقة بحسب ما وجد في لغته من نطق فيحول مثلا نطق Pardon الفرنسية إلى Bardon لعدم وجود /p/ المهموسة في لغته، فينطقها حسب ما في لغته، كما هو الشأن في العربية.

وهذه المسألة فنولوجية بالأساس، وتبين لنا ما إذا كان هذا الشخص ينتسب لنفس اللغة أم لا.[1]

ويعرف مارتيني النبر بقوله إنه: إبراز مقطع صوتي فيما يسمى بالوحدة النبرية، وهذه الوحدة هي في معظم اللغات ما يدعى عادة الكلمة.[2]

وقد أثبت إبراهيم أنيس وجود نوع آخر من النبر سماه بالنبر الثابت Accent fixe وهو لا يستخدم للتفريق بين المعاني، بل كوحدة فاصلة تميز بين الوحدات النبرية في الكلام: "لذلك نراه يقع في معظم اللغات على المقطع الأخير من الكلمة ويحمل بذا وظيفة نحوية.

ولابد من التذكير هنا أن النبر قد يكون نبر مجموعة كذلك، فعندما تدخل كلمة ما تركيبة نحوية (مجموعة كلمات) تفقد نبرها لصالح التركيبة كلها، فعندما نقول بالفرنسية"joli" يقع النبر على المقطع الأخير الملفوظ، وعندما تدخل هذه الكلمة في تركيبة مثل:

"le joli garçon" تفقد نبرها الأصلي لصالح النبر الموجود في نهاية التركيبة (أي المقطع الأخير من "garçon" وهذا يعني أنه في اللغات التي تتضمن النبر الثابت يغير النبر مكانه لصالح المجموعة أو التركيبة النحوية التي يرد فيها"[3]. وبناء عليه فإن النبر يخص مقاطع الكلمة من حيث الارتفاع والانخفاض، والتنغيم يخص الجملة في تغيرها النطقي، والنغم أو اللحن يخص الكلام في تلوينه النطقي.

ـ معدل النطق: المد والوقف le débit : la durée et la pause

يعطينا معدل النطق قياس السرعة التي نتكلم بها ونقيم المعدل بعدد الكلمات المنطوق بها في الدقيقة، هذا المعدل يتراوح ما بين 120 إلى 160 كلمة في الدقيقة[4].

والمعدل يخضع لعدة عوامل:

ـ تجربة التخاطب.
ـ قابلية الفكر للتصورات أو الأحداث التي يتم نقلها.

---

[1] - G.Mounin ; Dictionnaire de linguistique, p : 3-4.
[2] -مبادئ اللسانيات العامة ترجمة أحمد الحمو، ص: 89.
[3] -د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص: 196.
[4] - Lionel Bellenger ; l'expression orale. P : 62.

- التحكم في اللغة من ناحية المفردات والتراكيب المنتجة مباشرة.

كما يخضع معدل النطق أيضا للطريقة التي نتنفس بها فإذا كان المتكلم يعلم جيدا كيف يستنشق الهواء بفمه وأنفه دون أن يحدث ضجيجا، غالبا ما يستطيع أن يغير وبدون انزعاج- معدل النطق.

علينا ألا ننطق بجمل طويلة تستغرق دفعة التنفس لأنه -لكي- نصل إلى النهاية وإسماع صوتنا للآخر، نميل إلى إنهاء الكلام بسرعة، وهذا ما يسبب الاختناق والأخذ في الكلام بارتجاج ثانية، إن الذي يؤدي إلى تنفس تزامني قبيح هو التكلم بسرعة وبارتجاج وبلا روية.

فيم يخدم معدل النطق تعبيرنا الشفوي؟

أولا: يمكن لمعدل النطق أن يحقق ويقوي الشحنة التأثيرية لكلامنا ومن ذلك: -معدل ثقيل وهادئ مع توقفات طويلة تكسب الكلام تأثيرا وسطوة وتبجيلا وجهورية.

أما إذا كان معدل النطق سريعا وفيه استعجال فيعني ذلك النشاط والقلق والعجلة.

وأخيرا- فإن معدل النطق وليد النبر وهو بالفعل وليد كلامنا إذ أن هذه الحركية تعطي الحياة للتلوينات التي توجد في هذه المادة بحيث تتسع لتصبح غنية.

إن معدل نطق ثقيل ومنظم قد يحدث الضجر والنوم ويزعج أو يخدر، ويحتاج معنى فكرة ما أن ينضوي تحت حركة ما، وإلا فإن الإسفاف يهدد الفكرة،ومعدل النطق السريع عكسه.

فمعدل النطق -إذن- يتبع عن قرب لعبة النبر، وعندما يكون معدل النطق منتظما (ثقيلا أو سريعا) فإنه يهدم الموارد أو المعطيات النبرية، وتساعد تغيرات معدل النطق على الأخذ بعين الاعتبار اختلافات مقاطع الخطاب.

ويعني هذا أن العجلة في الكلام تظهر عندما نحكي بخوف ما جرى أو- لربما- إبان التذكير بشيء ما، كما أن التثاقل في الكلام يحدث أثناء التعريفات أو الشروح.

ومعدل النطق يكون ثقيلا عند طرح سؤال ما، ويعني اختيار معدل نطق اختيار سرعة ما لتلقي الرسالة، إن الاستماع المريح هو الاستماع الذي يكون فيه معدل نطق الكلام متوسط السرعة.

ولكي نقدر على الاستخبار حول ضبط معدل النطق نستعين بالنظر إلى الغير –أي مشاهدة وجهه على الخصوص- مما يؤدي إلى الهيجان أو السكون أو الرضا أو السخط أو التذمر.

وينتظم معدل النطق أيضا، إذا شكل من حركات انطلاقا من فترات صمت، وهي تقوم بدور هام جدا بالنسبة للضبط الذي نريد أن نلحقه بمعدل النطق نفسه،وبالفعل عندما نجد كلاما حيا خفيفا وسريعا لكنه مقطع بفترات قد تطول أو تقصر من الصمت، فإننا نحس به أكثر مما نحس بكلام طويل وصوت متسلسل دون توقف.

إن التوقف على مستوى الاستماع يسمح "بهضم" الجمل ويعين على استقبال جمل أخرى.

إن الصمت يحدث وضوحا وجلاء وقوة للكلمات التي يحيط بها، وهو ما يسميه آخرون بالوقف، وهو في السلسلة الكلامية انقطاع يقع في نهاية المجموعة النفسية ويسبقه انخفاض وفتور وتغير هابط في التنغيم الصوتي،وقد يطول الوقف في الزمن أو يقصر، ولكن مدته تكون متناسبة عكسا مع عدد وروده في الكلام.

إن الثنائية (وقف لا وقف) يمكن أن تحمل وظيفة دلالية في بعض اللغات.

ويتكلم علماء الأصوات عن الوقف الفاصل الذي لا يأتي في نهاية المجموعة النفسية بشكل طبيعي، بل يظهر في وسط كلمة أو عدة كلمات متتالية. ويكون دوره في هذه الحالة دورا تحديديا فاصلا، بمعنى أنه يتخذ وظيفة تمييز عناصر نحوية ودلالية ضمن السلسلة الكلامية ففي اللغة الفرنسية مثلا يقوم الوقف الفاصل بدور رئيس في التمييز بين:

L'//amoralité و La// moralité

أما في اللغة العربية فإن الوقف يقوم بدور هام على صعيد الفصل بين المقاطع، وخاصة فيما يتعلق بقراءة القرآن الكريم، ولا يرى اللغويون العرب فيه نهاية المجموعة النفسية التي يرتاح عندها المتكلم فحسب، بل يعتقدون كذلك أن الوقف عملية يستعملها المتكلم بغية إفهام السامع المضمون الدلالي للرسالة، فهم يعرفونه هكذا "قطع القراءة في نهاية كلمة (عبارة أو جملة) إما ليرتاح القارئ، وإما لإتاحة الفرصة أمام السامع للفهم".[1] وغالبا ما يكون الوقف بالتسكين، كما أن له أشكالا عديدة منها الوقف بالإشمام وبالتضعيف وبالروم وبالنقل[2].

ويلاحظ أن ما أشار إليه إبراهيم أنيس وبسام بركة وغيره يتعلق الأمر فيه بالوقف والابتداء في القراءة القرآنية لأن الوقف عند دارسي القراءات علم ضروري لمعرفة معاني القرآن، وهو معيار دقيق لحسن الفهم ودقة الملاحظة وتكامل المعاني، ولا يحسن هذا العلم إلا من حسن علمه، واتسعت دائرة ثقافته القرآنية وملك ناصية فهم الموقف.

---

[1] -إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص 169

[2] - بسام بركة، إيميل يعقوب مي شيخاني قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: مدخل الوقف.

ونظرا لأهمية الوقف في الدراسات القرآنية فقد انصرف بعض العلماء للتأليف في علمه وبيان مواطنه ، وهو من أهم ما اهتم به قراء القراءات، نظرا لأن التنفس أمر ضروري خلال القراءة، ولا يمكن الاستغناء عنه، لما يؤدي إليه ذلك من خلل في المعنى.

وقال ابن الجزري في أسباب الوقف: "لما لم يمكن لقارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد ولم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل بل ذلك كالتنفس أثناء الكلمة وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتعين ارتضاء ابتداء التنفس والاستراحة، وتحتم ألا يكون ذلك مما يخل بالمعنى ولا يخل بالفهم"[1].والواضح أن هذا الأمر يحدث عند القراءة ، لكن ما يعنينا هنا هو الكلام وما يقع فيه من وقف ، ومن أجل توضيح ذلك بجلاء فإن الكلام المكتوب –كما يتضح عند معالجتنا لعلامات الترقيم الحديثة- يعكس ما نقوم به أثناء التلفظ من أخذ النفس جراء وقوفنا على الكلمات سواء كانت حروف معاني أو أسماء أو أفعال بحيث يتجلى ذلك في الكتابة في ذلك البياض الذي يفصل بين كلمة وأخرى، ثم تأتي لحظة أطول من ذلك لتجسد الجمل وأشباه الجمل فنكتبها باستعمالنا للفواصل المنطوقة وغير المنطوقة.

فإذن من أجل تقييد أوابد التواصل الشفوي كتابيا عمد الإنسان إلى اختراع نظام علامات الترقيم الذي جمع –بعد مرور الزمن- بين ما ينتمي للقواعد الكتابية بغية ضبط القراءة فيما بعد، وما ينتمي لشعوره بأمرين هامين هما ما عثر عليه في كلامه من قبيل وقوفه وابتدائه، ووصله وفصله في كثير من مواقع كلامه، لأنه لا يستطيع أن يأتي على التلفظ باسترسال دون انقطاع وذلك تبعا لتوقفاته وحاجته إلى أخذ النفس بحثا عن راحة أثناء النطق، إضافة إلى أن الصمت هو الذي يميز الكلام- فبضدها تتميز الأشياء- ويأتي على الإنسان حالات ومواقف يتشابك فيها قوله مع قول الآخر فيتداخل الكلام فيسرع بدون أخذ نفس، ولكننا لا نثبت هذا في الكتابة، بل قد نقتصر على مثالية الكتابة ونهمل ما عداها ظنا منا أن ذلك لا يحدث إلا في الكلام لأننا نعتبر أن الكتابة أرقى والكلام أدنى، في حين أن الأساس هو الكلام وأن الكتابة ما أتت إلا لخدمته وحفظه وتقنينه.

وما يلاحظ أيضا في الكلام –وهو ما يجب أن يجسد كتابة- هو حدوث التلوين النطقي التطريزي الذي ينوب في كثير من الأحيان عن الأدوات التي نستعملها في أساليبنا اللغوية مثل الاستفهام والتعجب وما إلى ذلك بتنغيم ما ، كما أن التوقف عن الكلام فجأة لإتاحة الفرصة للآخر بالتدخل، والتناوب في الكلام والاستشهاد بقول الغير، والانقطاع عن الكلام لمدة أطول كل هذه السلوكيات اللغوية تظهر في المكتوب حاليا في شكل علامات كتابية.

[1] - النشر في القراءات العشر ص 224.

فإذن نحتاج لنظام علامات الترقيم لتحقيق أهداف رئيسية وهي:

- قواعد كتابية نضبط بها الكلام من أجل القراءة، وهي وضعية اصطلاحية لا غير وهي قواعد تضبط وتستنسخ تقريبا ما هو موجود في الكلام أصلا.
- قواعد من أجل ضبط التواصل غير الكلامي أي التطريزي.

وعلامات الترقيم-باختصار-هي كما يلي:

النقطة(.) عند نهاية التعبير،والفاصلة(،)تعكس الوقف الذي يحدث لأخذ النفس والشرطة(-) لتبادل الدور في الكلام، والعارضتان(-كلام يتوسطهما ليس له محل من الإعراب-) ،وثلاث نقط للحذف(...)إذا كان الكلام لم ينته بعد، والنقطتان بعد الكلام لإظهارالتفسير(:)، والقوسان لتمييز الشرح()عما سواه ،وهو شيء مقتبس من الفرنسية وإلا فالعارضتان تقومان بهذا الدور،وعلامة الاستفهام (؟)ضرورية في الكتابة عندما يعكس الكلام الاستفهام تبعا لتنغيم معين، وإلا فأداة الاستفهام تبين ما المطلوب من الجملة، وعلامة التعجب ضرورية في الكتابة (!) إن كان في الجملة تنغيم يشعر بذلك وإلا فأداة التعجب الكلامية كافية لبيان المراد ،والمزدوجتان("") لإظهار الاقتباس والتنصيص عليه .فهذه باختصار علامات الترقيم التي يطرد استعمالها اليوم في الكتابة العربية.

*الحركاتية:

أصلها من الإغريقية Kinésie، وتعني حركة الجسد والروح.[1] وتدرس الحركاتية التواصل غير الكلامي، أي كل الحركات والإيماءات المستعملة كعلامات للتواصل، إما في حد ذاتها أو مركبة مع الكلام المنطوق.

وعندما نتكلم، فإننا نرى –أثناء اجتماع ما أو خطاب شعبي أو أثناء إرسال تلفزيوني- أن علينا إبلاغ الجمهور.

إن التكلم هو إظهار العلاقات التي تربط بين الفكر والجسد في لحظة من الزمن، فالأحناك المنتفخة والبسمة المنحرفة الصفراء والحاجبان المعقدان والجبهة المجعدة، والذقن الحاد وجحوظ العينين والتنهدات والترنح كلها "تعابير" أخرى- مجازا- تعزز الكلام أو تصححه أو تلي الكلمات الحقة في السلسلة الكلامية، وقد قال برجسون :"تزاحم الحركة الكلام عند

[1] -Lionel Bellenger : Expression oral p :48.

2-نفسه

3-نفسه ص49 بتصرف

الخطيب وهي غيورة منه بحيث تتسابق معه للفكرة وتطلب أن تكون هي أيضا ذات تأويل"2.

ومن أجل هذه الغايات يرى ملير G.A. Miller أن الطبيب النفسي الماهر، هو الذي عليه أن يتعلم سماع أشياء أخرى غير الكلمات، وليثق في الإشارات غير الكلامية. وآنذاك لن يكون هناك معاجم، ولا أنحاء تساعدنا على تحليل التواصل غير الكلامي، لكن هناك أبحاثا جارية منذ عشرين سنة، حيث أن الجدال حول الدلالات العالمية للحركات والإيماءات تعود إلى داروين وإلى مؤلفه الشهير "التعبير عن التأثيرات عند الإنسان والحيوان " the expression of the emotions in man and animal"[3].

ونظرا لما يضطر له الإنسان أثناء التعبير في ظروف معينة تجعله يريد تغيير الحديث، كأن يحضر شخص لا يرغب المتكلم في أن يعرف أخباره، فيستخدم المتكلم حينذاك عينه للغمز، فيغمز مستمعه أو المتحدث معه رغبة منه في أن يغير مجرى الحديث أو ليكفه عن التحاور معه،وقد يضطر المرسل في أحوال أخرى أن يستبدل الكلام بالإشارة بيديه أو بتحريك جسده في اتجاه معين أو بإيماء من وجهه، وذلك تبعا لملابسات الظروف التي تحيط به وكذلك تبعا لمقدرة المستقبل الحسية فلا يمكن لمرسل بصير أن يستعيض عن الكلام بإشارة من يده إن صاحبها كلام، فقد يلتبس الأمر على مستقبله الأعمى فلا يفهم قصده. كما يحدث أن يكون المستقبل قد أدار وجهه يمينا أو يسارا فلا يستطيع النظام الحركاتي أن يكون بديلا للكلام في تلك الآونة.

ولذلك وجدنا التداوليين قد أعطوا هذا الجانب أهمية بالغة حيث قال أوستين فيما دعاه بما يصاحب التلفظ بالكلام ومستتبعاته في فقرة من الباب الذي خصه للعبارات الإنشائية الصريحة: "قد يساعد التلفظ بالكلام استخدام الحركات والإشارات من غمز وتحريك للأيدي وهز للكتف وتقطيب للوجه وعبوسه وغير ذلك، أو أفعال طقوسية غير لفظية، وهذه الأنواع من التعابير الحركية تستخدم أحيانا بدون أن يحرك الإنسان لسانه، وأهمية هذه الطرق والوسائل في التعبير واضحة لا تحتاج إلى شرح"[1].

ويرجع الفضل للأمريكي بورد ويسل Birdwhistell في محاولته (سنة 1950) تصور تعريف لعلم الحركات الجسدية والإيمائية سماه بالحركاتية La kinésique. إن برودوسيل أنطربلوجي منقطع للسانيات، وقد دافع عن موضوع نمطية الثقافات، كما اعتبر أن تعبيرات الوجه وحركات الجسد تشكل نظام تواصل كاللغة المتكلم بها.

[1] A.L. Austin : quand dire c'est faire.

لقد شرع "بورد ويسل" في بناء التواصل غير الكلامي للإنسان على نموذج لساني، ونعلم جيدا أن اللغة –حسب مارتيني- ذات تقطيع ثنائي (أو تمفصل مزدوج)، الأول يستند إلى الوحدة الصوتية وهي الفونيم، والثاني يحيلنا على أصغر وحدة لها معنى: الوحدة الصرفية المونيم.

وعلى هذا النمط تم تقطيع الحركاتية la kinésique إلى "الكينيم kinème أو الكين" وإلى "الكينيمورفيم" المماثل للمورفيم.

وقسم بوردويسل الجسم إلى ثمانية أقسام تحتوي بالنسبة لسكان الولايات المتحدة على 50 إلى 60 كينيم، وعندما تلتقي كينيمات المناطق المختلفة فإننا نحصل على "كينيمورف" معقد.

ويبقى علينا أن نفهم ما يمكن أن تحمل اللغة غير الكلامية لكي نقدر على التواصل الشفوي.

ونستطيع تجريبيا أن نميز أشكال التواصل غير الكلامي، ومن ثم تصنيف الاستعمالات الممكنة للتعبير الجسدي، وبالتالي إبراز التواصل بين الثقافات عبر نظام للتواصل غير كلامي.

الأشكال المختلفة للتواصل الحركاتي: التواصل غير الكلامي كما قلنا سابقا – كاللغة المنطوقة يمكن أن نتطرق له من ثلاثة جوانب كما قال "ليونيل بلنجر":

1- فهو من جانب يصلح للتحديد أو الوصف أو التعيين.
2- ومن جانب ثان يصلح للتعبير عما نشعر به أو عند إضافة قيمة ما أو الحكم على شيء ما.
3- ومن جانب ثالث لما يتعلق الأمر بمظهر منسوب لثقافة معينة أو مكان أو غير ذلك.

فالتواصل غير الكلامي الوصفي: نميز فيه بين تلك الحركات والإيماءات الكثيرة على النحو التالي:

1- التعبير المصاغ لإقامة قواعد نحوية لما هو غير كلامي حيث يعبر شكل الحركة عن الجزم أو النفي أو الاستفهام أو القصد المشروط أو الإنكار...الخ.

وتساعد اليدان والعينان على إبراز تلك الطريقة فلكي نستفهم نرفع شيئا ما أجفان عيوننا، كما نعقد شيئا ما الحواجب والجبهة أثناء رفعنا لرأسنا بشكل طفيف.

2- التعبير الإشاري: وهو في الحقيقة حركات للأصبع (السبابة على الخصوص) وتصلح لتعيين المتكلمين، وموضوع التخاطب والمكان الذي نستحضر فيه الأشياء...الخ.

3- الحركات الوصفية: وهي طبيعية جدا ويبدو أنها الأكثر شيوعا في العالم، وبعضها متفق عليه (مثلا نعبر عن سمك شيء ما بتقريبنا في شكل منقار الإبهام والسبابة، ونترجم قولنا "إنه أحمق" بوضع سبابتنا على صدغنا، كما نترجم "لقد نسيت شيئا ما" بضربنا على الجبهة بكف اليد، ويصحب قولنا إنه جميل "تكبير فتحة العينين"...الخ.

***التواصل غير الكلامي التأثري:** إن التعبير عن المشاعر والتأثيرات معقد جدا وغني في نفس الآن.

ونستطيع أن نلاحظ –في ثقافتنا- بعضا من الحركات والإيماءات التي نضفي عليها دلالات اعتباطية آتية من التأثيرات، وذلك مثل تحريك طرف الرجل ويعني ذلك القلق وعدم الصبر، وحك شحمة الأذن، ووضع السبابة على حافة ملتقى الشفتين، يعني درجة الانشغال أو التردد في مسألة ما...الخ.

والذراعان المنفتحان يرحبان، كما أن وضع اليد في موضع القلب تدل على الجهر بالصراحة إلى غير ذلك.

التواصل غير الكلامي الرمزي: قبضة اليد تعني الاتحاد والتضامن. وقبضة اليد المرفوعة إلى المرفق تعني العداوة مع الخصم، وكل شكل من أشكال تقطيب الوجه أو انبساطه ترافق الكلام لتعززه وفي بعض الأحيان لتنوب عنه.[1]

أما د. هدسون في لسانياته الاجتماعية[2] فقد قسم السلوك غير الكلامي إلى شواهد العلاقات (وهو ما يعكس الدراسة التجاورية la proxémique التي سوف نراها فيما بعد) وشواهد البنية[3] (وهو ما يتحدث فيه عن الحركات المساعدة للكلام) وقسم ثالث خصصه لشواهد المضمون.

وما يهم هنا هما القسمان الأخيران اللذان يمكن جمعهما في الحركاتية la kinésique، فمما لا شك فيه أن التواصل غير الكلامي يساعدنا على تحديد بنية التواصل، وهكذا هي شواهد البنية حيث يكون التواصل الكلامي منمطا بوضوح مثل التواصل غير الكلامي، فالسلام مثلا بالقول الذي ينتسب إلى التواصل الكلامي يوازيه نمط السلام بالأيدي، وهو ما يحل محله في بعض الثقافات حك الأنف، أو تكمله في ثقافات أخرى الأحضان والقبل، وذلك مثل تقبيل

[1] - حسب ليونيل بلنجر في التعبير الشفوي L'expression oral
[2] - ترجمة الدكتور محمود عياد (علم اللغة الاجتماعي)
[3] - وهي ما ترجم عن الإنجليزية ب Structures Markers

الأيدي بين الكبير والكبير، والصغير والصغير، والكبير والصغير، والصغير والكبير الشائعة عند التونسيين وفي بعض المناطق المغربية، وذلك حسب العلاقة الموجودة بين المشتركين في التواصل، كما يحل مكان التقبيل والأحضان وغيرها انحناءة عند اليابانيين والصينيين، ويبدو أن السلام بالأيدي في بريطانيا –كما قال هدسون- non verbal Cues هامة للغاية بالنسبة لبنية الخطاب وذلك من جهة التناوب في الحديث، إن أخذ الأسئلة التي يجب أن نطرحها عند التناوب في الحديث، هو كيف يشير المتحدث إلى أنه على استعداد للتوقف عن الكلام والسماح للآخرين بالبدء في الكلام؟

ومن أهم الإشارات التلقينية في مثل هذه الحالات "حركة العينين"، وقد اتضح من الدراسة أننا عادة ما ننظر في عيني المتكلم (بخلاف الياباني الذي يكلمه معلمه وهو مطأطئ رأسه ينظر إلى الأرض احتراما له) حينما نستمع لفترات أطول، ونتخذ موقفا مغايرا عندما نتكلم، ولما تكون على أهبة الاستعداد للانقطاع عن الكلام، ونود أن نبدأ في الاستماع، ننظر في عيني المستقبل أو المستمع توقعا لدورنا كمتلقين، وعكس ذلك فإن المتلقي ينظر إلى الأسفل عندما يوشك أن يشرع في الكلام تمهيدا لتحويل دوره من مستمع إلى متكلم.

وليست حركة العيون هي الإشارة الوحيدة التي تدل على تغيير وشيك للدور، ففي بعض المؤسسات كالمدرسة والمؤتمر والبرلمان توجد إشارات نمطية رسمية لتغيير الدور وذلك مثل رفع الأيدي، عندما نرغب في الكلام، وهناك أيضا إشارات أقل درجة من حيث النمطية الرسمية، وذلك مثل التحرك للأمام في المقعد أو التململ في الجلسة أو السعال لتمهيد الحنجرة للكلام، وهناك أيضا وسائل لمجابهة مثل هذه الإشارات، وذلك إذا لم يرد المتحدث التوقف عن الكلام ،مثل أن يتعمد النظر بعيدا عمن يطلب الكلمة حتى لا يتمكن الثاني من أن يلفت نظر الأول، وقد يدرج البعض هذا السلوك غير الكلامي في الأنظمة التحتية sous-codes.

أما شواهد المضمون –حسب هدسون- فهي تصلح في التواصل غير الكلامي للدلالة على مضمون الخطاب (أو الرسالة) وهناك أمثلة واقعة لهذا النوع من الإشارات في معظم الثقافات، وذلك مثل استعمال حركة الرأس المستخدمة لكل من هذين المعنيين، فبعض الثقافات مثل أوروبا الغربية والولايات المتحدة تستخدم الحركة من أعلى إلى أسفل للدلالة على "نعم"، أما الثقافات الأخرى مثل شرق البحر الأبيض المتوسط فتستخدم الحركة من أسفل إلى أعلى، بينما تستخدم شبه القارة الهندية حركة مائلة أو دائرية، ولكن يبدو أن استخدام حركة الرأس للدلالة على "نعم" أو "لا" واسعة الانتشار إلى درجة أنه يمكننا افتراض أنها إشارة "شمولية" عالمية بالرغم من صعوبة معرفة السبب في ذلك.

وهناك أيضا حركات أخرى كثيرة تساعدنا على الإشارة إلى المضمون، فبعض الناس يستخدمون أصابعهم للعد والإحصاء، وتعد بعض المجتمعات العد على الأصابع وسيلة متعارفا عليها لإظهار العدد، وتوجد في الواقع اختلافات بين قبائل شرق إفريقيا في قواعد العد على الأصابع، وهذه الاختلافات تعتمد على نقطة بداية العد، وهل يبدأ العد من الإبهام أم من الخنصر؟

وهناك أيضا اختلافات أخرى بين هذه القبائل في الحركات المستخدمة للدلالة على طول الطفل، وذلك حسب اتجاه كف اليد إلى الأعلى أو إلى الأسفل على رأس الطفل، ولكل ثقافة مجموعة من الحركات الجسدية خاصة بها للتعليق على الناس والأشياء، مثل الحركات المختلفة في الثقافة البريطانية والمقصود منها مثلا الدلالة على أن شخصا ما قد فقد عقله أو أن الطعام جيد.

وينبغي علينا ألا ننسى حركات الإشارة المستخدمة والمرتبطة بأسماء الإشارة مثل: هذا أو ذاك، هنا وهناك ،ومن النادر أن نستخدم التعارض القائم بين هذا وذاك، في نفس الجملة (مثل: إن هذا أكبر من ذاك) دون استخدام واحدة من الحركات الإشارة الإيضاحية المصاحبة، حتى لو كانت هذه الإشارة مجرد إيماءة باتجاه الشيء المقصود.

وليس من الصعب أن نقارن بين المتحدث وقائد الفرقة الموسيقية الضخمة المكونة من عدد متنوع من أعضاء الكلام، والأعضاء المرئية الأخرى، في جسمه، والتي ينبغي عليه التحكم فيها، فالأداء الجيد يقتضي من القائد القدرة على التنسيق بين كل هذه الأعضاء، أيا كانت سرعة الأداء، وأيا كان عدد الأعضاء المشاركين في أداء أية لحظة من اللحظات، ولكن مهمة المتحدث مهمة أكثر صعوبة من مهمة قائد الفرقة الموسيقية لأن عليه أن ينسق بين أدائه وأداء قادة الفرق الأخرى في نفس اللحظة التي يقوم كل منهم فيها بقيادة فرقته الخاصة- أي مع المشتركين في التخاطب.

وليس من الغريب أن نتصور أن الناس يفضلون القيام بأداء الأدوار المحفوظة، والقطع الجاهزة التي سبق إعدادها وذلك بدلا من الارتجال الفوري.

ومن ذلك مثلا طرفان العين مثل الغمز وبعض إيماءات الوجه مثل: الابتسامة والضحك والتكشير والضحكة الصفراء والغضب مع تقطيب الحاجبين وجحوظ العينين، وهنا أسوق مثالا على ذلك استثارني وأنا أقرأ كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني حين أتى بقوله: "... ألا ترى إلى حديث الجمحي حكى عن بعضهم أنه قال: أتيت الجمحي أستشيره في امرأة أردت التزوج بها، فقال أقصيرة هي أم غير قصيرة؟ قال فلم أفهم ذلك.

فقال لي: كأنك لم تفهم ما قلت، إني لأعرف في عين الرجل إذا عرف، وأعرف فيها إذا أنكر، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر، أما إذا عرف فإنها تخاوص، وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو، وإذا أنكر فإنها تجحظ.أردت بقولي قصيرة أي هي قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها"[1].

وقد وجه "بوردويسل كبير عنايته للخاصية الثقافية للمحسنات الحركية les illustrateurs والمعدلات الحركية les régulateurs فالمحسن الحركي حركة تصاحب التعبير الكلامي زيادة على الصفات التطريزية. وهذه المحسنات الحركية لا توجد أبدا بمعزل عن الكلام ويتلقنها المجتمع جيلا عن جيل، وذلك مثل حركة الحاجبين وحركات اليد التي باستطاعتها أن ترسم التأكيد أو النفي أو غير ذلك.

أما المعدلات الحركية فإنها تحافظ وتعدل التبادل الكلامي وذلك مثل حركات رأس المستمع الدالة على "نعم" أو على موافقته للخطاب أو مثل اتصال النظرات، ويعلم المتكلم اعتمادا على مثل هذه الحركات، هل عليه أن يتابع الكلام أو أن يستأنف أو أن يتوقف أو أن يسرع...الخ؟

وهكذا فليس التواصل غير الكلامي موضوع دراسة فقط، بل يجب على المتكلم أن يتحكم في جسمه لكي يزيد من قدرته على التواصل، وتصير لغة الجسم آنذاك موضوع تعليم،ومن ثم نستمد الدروس في التعبير الجسدي وتقنيات الإيماء من الاستئناس بالمسرح وببعض تعاليمه، مما يأتي على بيانات مكملة –غالبا- في هذا المجال الذي أهملته المدرسة.

فيجب الشعور بوجود التواصل غير الكلامي والإحساس بوجود نظامه. إن أول هم للخطيب –مثلا- هو أن يكون على علم بمفاتيح الحركاتية التي يقوم بها كل واحد حسب طريقته، أي بحرية ومهارة أو بصفة إبداعية، أو عكس ذلك بتمنع وتكلف ودون إلهام، وكذا بقصور ذاتي وارتباك وميوعة أو تخنث.

وقد أعطى المانييطوسكوب le magnétoscope (شريط مغنطيسي لتسجيل صور التلفزيون) إمكانيات تحقيق أبحاث في المجال غير الكلامي. وهنا يكتشف المشاركون في التخاطب دائرة معارفهم بكل ما في الكلمة من معنى. بحيث يصيرون متفرجين في أنفسهم، علاوة على ما يستندون إليه من ملاحظات الجماعة، وذلك بالتنبيه على التفاعل الحاصل بين ما هو غير كلامي وبين ما حصل عند مخاطبيهم من تفاعل أو استماع وبذلك يتعلمون وضع ترتيبات لقدرتهم على التواصل.

[1] - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص:49.

إن المسألة ليست مسألة إلغاء بعض الإيماءات أو بعض الحركات فينا، بل هي مسألة التمرن على وضع المكونات الحركاتية في خدمة التبادل، وهذا يعني أن حركات ما، يمكن أن تشوش أو تقلق أو تحرف اتجاه التفكير (النظرات الحائرة الإيماءات المزعجة الطائشة والعادات المستهجنة الدائمة، أو السعال أو الابتسامة المرسومة المكررة).

إذن على المرء أن يحرر توتراته وانقباضاته بحل وإرخاء التقوقع العضلي. إن التحرك في هذا الاتجاه يعني إخراج الطاقة ورفع ذاتنا كلها في خدمة ما نريد قوله.

إن التمحيص في الإيماءات يمكن أن يؤدي بنا إلى مقاربة جيدة للمزاج الشخصي، فلقد فهرس الدكتور إرمين Ermaine التعابير والإيماءات الناتجة عن التحريك المؤلف لـ52 عضلة أساسية توجد تحت جلد الوجه كما فهرس 16 نظرة ممكنة، فقال أن "الطريقة التي نمثل بها حياتنا ترتسم على وجوهنا، إما بصفة دائمة مثل التجاعيد والتعابير، وإما بصفة مؤقتة تخدع إيماءاتنا وخلال مقابلة ما، فإن الذي يستطيع أن يقرأ الإيماءات يرى بجلاء ما يشعر به مخاطبه في أعماقه".[1]

وقد تعرضت تحليلات بورد ويسل إلى انتقادات ديتمن Dittman 1971 وكندن 1972 وبويسك Boussac 1973، علما بأن التواصل غير الكلامي ما هو إلا وسيلة ضمن أخريات لإرسال الأخبار، ومن المهم أن نضعه في إطار أنسقة التواصل التي تشكل فيها تلك النظرية أحدث معرفة علمية وبهذه الطريقة ستتجلى خصائص التواصل غير الكلامي العامة التي من ضمنها التجاورية la proxémique وهي ما سوف نراه مع "إدوار هول".

* التجاورية : La proxémique

وتنتمي مثل سابقتنا الحركاتية إلى حيز المقام وهي نظام عرفي للمسافة التي تفصل بين المرسل والمستقبل، تلك المسافة التي تختلف من ثقافة إلى أخرى، والتي نحتفظ بها بيننا وبين مخاطبنا، وهي المكان الذي نحتله في مجلس رفقة أو حول طاولة...الخ.

وهي علامات تدل على وضعنا الاجتماعي، وتشكل نظام رموز تختلف أدواته بحسب الثقافات.

[1] -Lionel Bellenger. Expression oral p :60.

ويعنى العلماء الإثنوغرافيون واللسانيون التواصليون حديثا في الولايات وفي غرب أوربا بتأسيس هذين العلمين الحركاتي –كما سلف أن ذكرنا- والتجاوري على أسس جديدة.

وإذا كانت الحركاتية لصيقة بجسم المتكلم وذاته، فإن التجاورية تهتم بحيز المكان أي المقام المباشر للمتخاطبين وقد طرح "إدوارهال" مؤسس هذا العلم السؤال التالي: بأي طريقة يبعث المكان الرسالة؟ وأجاب قائلا:

"إن الأحداث المكانية تعطي للتواصل تنغيمه ونبره وتتجاوز في كثير من الأحيان الخطاب ودفقة الكلام وتغيير المسافة بين شخصين وهما يتحاوران، وهذا ما يساهم في عملية التواصل الناجح، فالمسافة العادية بين غريبين أثناء حوار ما تزيد من أهمية النشاط التفاعلي المكاني، فإذا اقترب أحد المتحاورين اقترابا، فإن الرد سيكون مباشرا وأوتوماتيكيا –أي أن الآخر يبتعد. وإذا اقترب الأول من جديد فإن الآخر يبتعد من جديد.

لقد رأيت أمريكيا يبتعد على طول ممر، وذلك لأنه وجد أن غريبا ثقيل الظل يحاول الاقتراب منه، وتكرر هذا المشهد مئات المرات، فالأول يحاول أن يزيد من المسافة التي تفصل بينهما لكي يشعر بالراحة، والآخر من أجل نفس الغاية يحاول أن يختصرها، وهذا مثال نموذجي ضارب في عمق الثقافة التي توجه السلوك".[1]

إن ما يفشل ويضلل فهمنا للثقافات المختلفة هو أنه في بعض الأحيان يوجد في ثقافتنا أناس يحبذون الاقتراب pressants من بعضهم وآخرون يحبذون الابتعاد والنفور distants وذلك تبعا لطريقتهم في استعمال المكان.

واستنتج "إدوار هول" أن متغيرات الصوت –بالنسبة للأمريكي- مرتبطة بتحويلات في المسافات الخاصة مثل أن يكون المتكلم:

1. قريبا كل القرب من مخاطبه فيكون هناك همس في غاية السرية والمسافة هي من 10 إلى 20 سنتم.
2. قريب من مخاطبه، فيكون هناك همس مسموع شيئا ما وسري والمسافة هي من 25 إلى 35 سنتم.
3. مقترب من مخاطبه، فيكون داخل قاعة صوت هادئ وخارجها صوت عادي وسري المسافة من 40 إلى 60 سنتم.
4. في مسافة تتراوح ما بين 60 إلى 100 سنتم يكون الصوت هادئا والكثافة مرتفعة والخبر شخصي.

[1] - Edward T. Hall: Le langage silencieux ; p : 206.

5. في مسافة تتراوح ما بين 120 إلى 150 سنتم يكون الصوت عاديا والخبر شخصيا.
6. في المسافة مع الجمهور ما بين 160 إلى 240 سنتم يكون الصوت عاديا ومرتفعا شيئا ما والهدف إعلام الجمهور
7. تكون المسافة شاملة للقاعة ما بين 240 إلى 600 سنتم عندها يكون الصوت قويا والهدف إخبار مجموعة من الناس.
8. وفي مسافات قد تكبر أو تصغر داخل قاعة ما بين 600 سنتم إلى 740 سنتم أو في الخارج إلى حدود 30 مترا، يكون الصوت على مداه، مثلا: عند الوداع.

ولاحظ "هول" أن مسافة التخاطب في أمريكا اللاتينية تقل شيئا ما عنها في الولايات المتحدة، ولا يشعر ناسها بالارتياح إلا إذا اقتربوا من مخاطبهم، تلك المسافة التي تقلق ناس أمريكا الشمالية وتجعلهم يتراجعون إلى الوراء وهكذا يقولون عنهم أنهم يحبون الابتعاد وأنهم باردون منغلقون ونافرون وقال المؤلف: "ونحن كذلك نلومهم من جهتنا على أنهم ينفخون في آذاننا، ويهاجموننا إلى غاية أنهم يبصقون في وجوهنا".[1]

أما الطريقة التي ألفها من عاش من أمريكي الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية –دون أن يشعروا بمواقفهم إزاء المكان- فهي بقاؤهم بقرب مكاتبهم واستخدامهم للكراسي والآلات الكاتبة ليجدوا المسافة المريحة بينهم وبين اللاتينيين.والنتيجة أن هؤلاء اللاتين يوشكون أن يتخطوا هذه الحواجز لاختصار المسافة كي يريحوا أنفسهم[2].

وبالفعل يرجع الفضل إلى هذا الأمريكي في الأعمال الأولى المعمقة التي تخص التجاورية، وأعماله تلك تؤرخ مباشرة لما بعد الحرب الثانية. تلك المرحلة التي لاقى فيها العسكريون والدبلوماسيون ورجال الأعمال أسوأ الأحوال للتفاهم والتآلف مع زمان و مكان التواصل الاجتماعي عند الأسيويين والإفريقيين والأوربيين، وقد نشر "إدوار" بحثه الأول the silent language سنة 1959.

ويرى "بيير غيرو" أن في كل مظاهر التجاورية نوعا من "سيميولوجيا المكان والزمان". فدراسة وضع المتخاطبين تعني فهم الطريقة التي يملؤون بها المكان الذي يتكلمون منه والمسافات التي يحافظون عليها بينهم وإدراكهم لاستعمال الزمان في التواصل الاجتماعي الذي ينشئونه. فإن قلنا عن شخص ما أنه "مبتعد" distant، فذاك يعني أنه يحتل مكانة هامة، وإن قلنا أنه "مقترب" Pressant، فذاك لأنه قريب من معاونيه ويحترم الوقت.

[1] - نفس المصدر ص: 206.
[2] - نفس المصدر ص:210. بتصرف

إن كل هذه الرمزية في التواصل الاجتماعي تتخلل الكلام وتنفرد على الخصوص بالتعبير الشفوي لكل فرد على حدة.

وقد طور "إدوار هول" أبحاثه وصاغها في قالب جديد في كتابه الثاني الذي أصدره سنة 1966 تحت عنوان the hiden dimension [1] بحيث صنف المسافات إلى أربعة:

1- المسافة الشخصية personnelle (من 45 إلى 120 سنتم) وتسمح هذه المسافة بتمرير الأخبار بين متخاطبين دون خطر ولا مساوئ بحيث يرى بعضهما الآخر، ويتفاهمان جيدا ومن الممكن أن يتسالما باليد ويشعر الواحد منهما بالآخر.
2- المسافة الاجتماعية (ما بين 120 سنتم و 210) وتشكل حيز طاولة أو مكتبا مما يستحيل معه الارتباط الجسدي، ويكون الصوت جهورا والنظر صافيا، لكن الإحساس الشمي والحراري منعدم.
3- المسافة الحميمية (ما بين 0 و 45 سنتم) وتنتمي إلى الاحتياط والتأثر أو العدوان والتهجم (وتدخل هذه المسافة في عدة مواصفات حيث يكون النظر بانحراف والصوت منخفضا والاتصال مرحا أو عنيفا، ويتصل الجلد بالجلد وكذا الروائح...الخ).
4- المسافة الجمهورية publique وتكون من 4 إلى 8 أمتار وزيادة.

وهو مقام الخطيب الذي يتوجه إلى الجمهور (وقتها يرتفع الصوت، ويتسم النطق بالفصاحة، وتأخذ الحركة شكلا ما وأما النظرة فتصبح شاملة...الخ).

وعلى المتكلم أن يراعي لا شعوريا ،أو في انتباه بسيط تلك الأعراف الثقافية وهذه الأحداث التجاورية، إنها تؤثر في الكلام وتوجهه كيفما كان وكيفما صار.

ومخاطبة شخص ما مجهول في مصعد ضيق يفترض مسافة حميمية تفرض تآلفا اجتماعيا ويترتب عن تلك المسافة المفروضة ضجر وتراجع خفيف إلى الوراء، ثم غض للطرف ثم الجفوة...الخ.

وعكس هذا نلاحظه في إيماء الخطيب الحزين المقيم عاليا معزولا في منبر أو منصة باحثا عن المسافة الحميمية مع المستمعين المحافظين على المسافة الجمهورية، ويمكن أن يكون تنظيم المحيط المباشر للخطاب موضوع اتفاق مثل أن نضع المستمعين في صفوف، أو في حلقة أو في فوضى. إن الذي يتكلم له عاداته ومركزه وأصدقاؤه الذين يعتمد عليهم ويتآلف معهم.

[1] - وقد ترجم إلى الفرنسية سنة 1978 تحت عنوان la dimension cachée.

ونجلس في المطعم إما جنبا إلى جنب أو وجها لوجه، وفي الاجتماعات نضع الطاولات على شكل U أو V أو في شكل دائري O أو مربع أو مستطيل، وتحدد قوانين التكريم بتصرف الخدم في إعداد المكان، ونعين المكان الذي نتكلم منه (خشبة مسرح منصة أو منبر)، ونغلق الأبواب أو نفسح المجال ونضع الحواجز، ويرفع الخطيب أو المحامي على سواعد قوية وسط الزحام، وترتب الأماكن: فنضع الرئيس في الوسط والنساء بمحاذاة الرجال...وعلى المتكلم أن يكون متيقظا لأن التصرفات تكون على حظ سواء مع المسافات أمارة على النوايا، ومن الضروري أن نراعي الحدود التجاورية لأجل ضمان قدرة أحسن على التواصل[1].

وقد حاول الكتاب الأنجلوساكسون أن يطوروا أبحاث "إدوار هول" في هذا المجال وعلى الخصوص "فاست J.Fast " في كتابه Body langage والكاتب "كوفمن" في كتابه Behavior on public's وكذا "فاستون "Waston في كتابه Proxémic Behavior وقد قارن هذا الأخير المسافات التي تفصل بين المتخاطبين أثناء الحوار، ولاحظ أن الحيز المكاني الشخصي يزيد في الاتجاه الآتي: "العرب والهنود الباكستانيون والأوربيون الجنوبيون والأمريكيون اللاتينيون والآسيويون، والأوربيون الشماليون، والفروق لها دلالة، إلا إذا عارضنا المجموعة الناشئة بالثقافات الثلاثة الأولى مع الثقافتين التاليتين لها، وكذا مع الثقافة الأخيرة".[2]

ويظهر مبدئيا أن هذه التصورات المحتملة تقترب من الاتفاق وإجماع الكثير عليها، ونجد في قاعدة العديد من النماذج عوامل الاقتراب والنفور التي يمكن أن تصنف هي بدورها في مختلف التغيرات، مع العلم أننا لا نعرف دائما كيف تتألف –وإن ارتبنا في التخليط في مصطلحاتها- وذلك بسبب مصدرها الحدسي، وقد قدر "إدوار هول" أن السلوك التجاوري قابل لأن يقاس انطلاقا من بعض المتغيرات وارتأى فاستون أن يحتفظ بخمس من هذه الثوابت أو المعايير:

1.المحور الاجتماعي النابذ والمحور الاجتماعي الجابذ L'axe sociofuge sociopète

2.العوامل الحركاتية Les facteurs Kinesthésiques

3.الاتصال اللمسي Le contact cutané

4.الاتصال المرئي Le contact oculaire

[1] - P. Guiraud : le langage du corps p.92.
[2] - Jacques Corrage : les communication non verbales p.175.

5.قوة الصوت L'intensité de voix

ولم يجد فاستون أي تباين بين هذه المتغيرات وذلك من خلال مجموعات ثقافية وصفها انطلاقا من 110 طالب ،وتأكد لديه أن هذه العوامل لا تقيس بالضبط نفس الظاهرة، وأن عليه ألا يعتمد عليها.

وعلى هذه الشاكلة –أي اعتمادا على الاختلاف بين الثقافات- نلاحظ أنه في العلاقة الحميمية يزيد الخبر المكاني إذا أعقبتها معايير أخرى مثل اتجاه النظر أو المواقف.

وإذا كان من الواقعي أن النفور ينتمي حقا إلى الدفاع عن وحدة الجسم أو تقدير "الأنا" فمما لا يقبل الجدل أن هذين الإجراءين يخضعان بنفسهما إلى معايير متنوعة جدا، وذلك مثل الاشمئزاز النفسي والتقزز الجسدي والقوالب الثقافية والشعور الشخصي والمتطلبات الأخلاقية...الخ.

وتجدر الإشارة إلى أنه يوجد ضمن عوامل الانجذاب والنفور، الاقتراب والابتعاد، فهناك إمكانية أن يؤثر المستقبل في كمية ونوعية الأخبار التي يتلقاها بتحركه في الحيز المكاني الذي يفصله عن المرسل.

ولقد تصور "هول" أن الحيز المكاني بين الأفراد شديد الارتباط بهذا النمط من الظواهر، ومن ثم يكون الحيز المكاني وظيفة لقنوات الحواس المستعملة ولمجموع الأخبار التي يستطيع الفرد أن يستقبلها، وكل ثقافة تفضل نوعا من الحواس المستقبلة. ويرى "هول" أن العربي –مثلا- يستخدم مسافات أقصر من تلك التي يستخدم الأمريكي، لأنه يغلب القنوات اللمسية والشمية على الأخريات.

وتصنيفه للحيز المكاني إلى أربعة مناطق ينطلق من هذا المبدأ الأساسي. ففي الحيز المكاني الحميم (ما بين 0 و 40 سنتم) تكون الروائح والحرارة والاتصالات اللمسية هي التي تسيطر، علما بأن النظر القريب جدا يشوه الصورة.

أما الحيز المكاني (من 40 إلى 120 سنتم) فيمتد إلى حدود اللحاق بجسد الغير، والمسافة الاجتماعية(ما بين 120 إلى 350 سنتم) تنتهي إلى النقطة التي يكف الحوار فيها عن أن يكون ممكنا.

وأخيرا المسافة الجماهيرية (من 3,5 فما فوق) لا تمكن من الاستماع إلى حوار عامي[1]. فإذن يجب أن نقبل الفكرة القائلة بأن تنظيم الحيز المكاني ينطلق من قنوات التواصل لأنها

[1] -نفس المرجع السابق ص: 176-177.

وسيلة من وسائل مراقبة الأخبار واستعمال كميتها ونوعيتها المدهشة والمبتكرة. ولقد سبق أن لفت "هدسون" انتباهنا في كتابه "علم اللغة الاجتماعي" وخاصة عند تقسيمه التواصل غير الكلامي إلى شواهد العلاقات وشواهد المضمون إلى هذه المسألة بالذات.

ونشير إلى أن شواهد العلاقات هي الدراسة التجاورية عنده حيث قال عنها أنه "ليس من الصعب أن نتصور أن المسافة المادية (المكانية) التي تفصل بين شخصين تتناسب مع المسافة الاجتماعية في كل الثقافات، وبالتالي فإن الذين يشعرون بتقاربهم الروحي سيقتربون من بعضهم بعضا نسبيا عند التعامل، وبذلك تقع علاقات المحبين في جانب، وتقع في جانب آخر المواقف غير الشخصية والرسمية، حيث تكون المسافة الفاصلة بين المتحدث والمتلقي مسافة كبيرة، كما هو الحال في المسرح. وقد تصل إلى حد عدم القدرة على رؤية المتحدث، كما هو الحال في المذياع والتلفزيون، وتتمثل الاختلافات بين الثقافات المختلفة بتحديد المسافة التي تتلاءم مع درجة معينة من التضامن..."[1].

وهكذا تتآلف شواهد العلاقات التي تشكل التجاورية وشواهد البنية وشواهد المضمون التي تشكل الحركاتية وكذا الصفات التطريزية لتشكل هذه الثلاثة التواصل غير الكلامي، وبإضافة التواصل الكلامي -الذي يشكل الأساس- نحصل على التواصل بشكل عام على المستوى اللساني الشفوي.

ماذا نعني بالتعبير الشفوي-إذن- ؟

يمكن إعطاء خمسة أجوبة لهذا السؤال، الذي أصبح يفرض اليوم نفسه بقوة. فالكلمة أصبحت وسيلة للحركة، وطريقة للتعبير، وقوة للإقناع، وسلطة حقيقية. فتطور الوسائل السمعية البصرية، والطرق التربوية،والعمل الجماعي،أعطى للكلمة المكانة المرموقة التي تحظى بها اليوم في مجتمع لا يعترف إلا بالمكتوب، فكل القرارات تأتي مكتوبة : المقالات،والقوانين والعقود ...وهلم جرا، لماذا؟

بكل بساطة لأن" الكلمات تطير و المكتوب يبقى " .

* وبداية الكلام حقيقة فزيولوجية " فالكلام رياضة " كما يحبذ أن يقول رجال المسرح ، والكلام أيضا مهارة، مما يدفعنا لاستخدام جهاز نطقنا كله ، و الكلام هو التنفس أيضا و هو إخراج الصوت ، و الإسراع و الإبطاء و النطق بتموجاته و ترددات .

[1] - د. هدسون ترجمة د. محمود عياد: "علم اللغة الاجتماعي" ص: 210.

والكلام هو الحياة من خلال الجسد ، و الحركة هي وسيلة تعبير غير لغوية ، وخصوصا إيماءات و تعابير الوجه .

إذن فالبعد الفيزيولوجي ينطلق من الحلق مصدر الأصوات ، ثم الرئتان ثم اللسان والفم و الشفتان اللذان يلفظان الكلمة ، وبمعية الكلام كذلك حركات اليدين و النظرات و الوجه " إنها مرآة الفكرة التي تتبلور " .

والبعد الفيزيولوجي لا يشكل موضوع تعليم الأطفال ، أو تدريب البالغين .

و ليس من الصدفة تلك المعاناة التي يبديها بعض البالغين كلما تغيرت مناسبة الكلام في: الاجتماعات ،و الجلسات ، والعروض ... الخ .إن الأشخاص الذين استفادوا من تجربة مسرحية هم القادرون -وحدهم-على حسن استعمال كفاءاتهم الفيزيولوجية النطقية.

ثم إن الكلام المنطوق يأخذ بعدا لسانيا ، فهناك العديد من أصناف اللغات المنطوقة مثل **لغة الصبية ، ولغة الحانات ، ولغة رجال التعليم ، ولغة رجال الإعلام ، واللغات الحرفية " البناءون ، و عمال المناجم ... "**

فاللغة المنطوقة تختلف كثيرا عن تلك المكتوبة ، و لم يثبت أن وضعوا لها قواعد ، و من المفترض أن تعطينا عربية جديدة ، بتراكيب و أساليب غير معتادة ، و مصطلحات مغايرة ، و إمكانيات تعبير غريبة عما نعرفه باللغة المكتوبة .

فما يميز اللغة المنطوقة " العامية " هو تركيبها الموازي للفكرة ، و ماهيتها في التلقائية التي تتخطى قواعد المكتوب ، و تفزع من لا يمتلك القدرة على التعبير لأنها لا تمنح فرصة التصحيح أو الرجوع إلى الوراء .

فالمنطوق تركيب عفوي " وفقا لحالة ما " و المكتوب مصطنع ، فالتعبير الشفوي هو تسليط الضوء على حياة مفرداتنا ، و تجربة حية لمفهوم فكري يتطور على الفور .

* فالتعبير الشفوي تجربة تفكير حية اختارت طريقها تلقائيا للتعبير عن نفسها . فهناك من يسكت ليرسم ، أو يلحن أو يحلم و هناك من يتكلم إما مع نفسه أو مع الآخر حوارا ، أو نقاشا ، أو عملا جمعويا ، أو مرافعة ...

فاللفظة فكرة ولدت توا ، و الفكرة لا وجود لها بدون تعبير شفوي .

إذن فالتعبير الشفوي يجد كنهه في الفكرة ، ومن ثم فهو يعبر عن فكرنا و طريقه تحليلنا للأمور . فالقدرة على الكلام تعني القدرة على التفكير، والتعبير الشفوي هو مواجهة الذات و التعبير عنها ، وهنا ندخل البعد الذهني الثقافي للكلام . فالتعبير الشفوي عندما لا يكون داخليا يصبح أحسن وسيلة لتبادل الرسائل و التواصل بين مجموعة من الناس مثلا الخطيب و الجمهور .

* فالكلام يعني التحاور في مفهومه العام ، حيث يستدعي التهيئ - التركيب - حسب الرغبة ،و التوجيه و التطوير ،و إعادة الانطلاق و الختم ...

" هناك كلمات تشفي "

ومع هذه الأهمية ، يجب أن يستفيد التعبير الشفوي من تجربة الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الماضي في مجال التواصل خصوصا فرضيات و أعمال جاكبسون ، فالتواصل لا يعني تلك الطريقة التقليدية للاستظهار " اليدين وراء الظهر " ،بل هي علاقة هيبة بين شخصين أو أكثر ،فالكلام طريقة للتأثير في الآخر : الإقناع ، وإثارة الانتباه ،والإخبار ، و الترفيه ، وحب الاستطلاع هي -إذن- كلمة في طريق الولادة .

إن قطاع التعليم الأولي استفاد كثيرا من هذا المجال " ففي روض الأطفال نجد الحركة واللعب والغناء ... وأما الابتدائي فبدأ ينحو هذا الطريق باعتماد التعبير الشفوي و الحوار في الأساليب الدراسية ، بينما الإعدادي والثانوي لا زالا بعيد هذا المجال أو قريبا منه.

* أخيرا نضيف إلى السؤال الأول هل التعبير الشفوي يجب أن يخضع لتعليم و تدريب ؟

من الممكن الكلام دون تعليم - أي بدون" قدرة فيزيلوجية "- لكن هذه القدرة تصبح سلاحا في يد من يتقنها ، و نقمة أمام من لا قدرة له على مواجهة الآخر أو الجمهور ،و بالتالي فالقدرة على الكلام تصبح مفتاح النجاح الاجتماعي . ولهذا وجب تطوير طرق للتدريب والإتقان للكبار من خلال دورات تدريبية ،و العديد منها يقدم اليوم مشكلا أحدث الحلقات في

سلسلة النظام التعليمي ، من ثم سنحاول تفصيل هذه النقاط الخمسة المطروحة ، في نسق تحليلي ، مدقق ، و على القارئ أن يسلك الطريق الذي يراه مناسبا .

*مشاكل التعبير وإتقان عملية الكلام *

قسط كبير من حياتنا النفسية يجري عبر كلماتنا ، و من هنا هل الراشد قادر على التواصل و الكلام و التعبير عن نفسه ؟

قبل أن نصادق على طرح وجود الموهبة أو عدم وجودها يجب أن نبحث عن الطريقة المثلى لتحرير الكلمة حاضرا،من الممكن ذلك لأن المدارس تولي عناية كبرى للتعبير الشفوي .

1 - اجتياز مرحلة الارتباك :

أكثر ما يعانيه الكبار عند الكلام هو الارتباك ، الذي يبدو كحاجز يصعب التغلب عليه ، و هو راجع لجهلنا بذاتنا ، فالجسد يصدر طاقة تصاحب عملية النطق ، و هي التي تتحكم في الارتباك ، و تتحدى كل ما تفرضه علينا الحياة من جديد : الكلام مع الجماعة أو الرئيس ...أو غيره ، فالجسد يوضع في حالة مواجهة و صراع ، و تحدي من خلال عدد من العمليات الفزيلوجية : ارتفاع الضغط ، تسارع نبضات القلب ، تزايد عدد الكريات الحمراء و سكرية الدم ، عندها لا يقدر المتكلم على الحركة ، فيصيبه الارتعاش و الاحمرار و تشل أطرافه ،و يتشنج وجهه و معدته، وللخروج من هذه الحالة المعروفة عند المسرحيين- ومنهم إيفز فوريYves furet الذي يرى في الكلام رياضة تساعد على اجتياز حالة الارتباك - بعد عملية استرجاع الجسد للوضعية التي تستدعي الهدوء و انعدام الحركة ،و البحث عن الفراغ الذهني وعدم التفكير ثم البدء بالحركة ، فاليدين أولا ثم الأرجل بمصاحبة تنفسية عميقة ، و الهدف من كل هذا هو الخروج من حالة الارتباك و القلق .

وترى سارة برنهرديت Sarah Bernhardt أن هذا الارتباك مشهور ، ويأتي مع الموهبة لغاية أنها تنصح ممثلا شابا بعدم نسيان القلق و الارتباك .

2 - التعبير الجسدي :

إن الوقوف على حالة الارتباك ، يظهر ما للجسد من أهمية في العملية الكلامية ، فبمجرد فتح الفكين ، نصدر الأصوات و بالتالي نتكلم . فإحداث الأصوات لا يعني أن نتكلم و الجسد يذهب إلى أبعد من ذلك لتتمة هذه العملية و جعلها أكثر تلقائية ، و هذا ما يحس به الخطيب خاصة ، حيث يرى شبح القلق و الارتباك حاضرا و الحركات اليومية الميكانيكية غير كافية لإتمام عملية التواصل، وتظهر أهمية التعبير الجسدي في عملية الكلام ، وفي هذا الباب يقول شالاغيي C . chaLaguier " للجسد قدرة على إعطاء معنى لكل حالات الوجود، وقبل أن تدخل هذه الأخيرة في البعد الكلامي " فالجسد يجب أن يعرف نفسه و يبتعد عن الحركات اليومية متخيلا الصراع ضد الهواء والماء وحركات الحيوانات : فتصبح العضلات أكثر تحررا و طلاقة . وفي نفس الوقت فإن الارتخاء على الأرض يمكننا من معرفة مكامن قوة الجسد ، و مكان التقائها ، و بالتمارين ندرك أن منطقة الحزام البطني هي مركز الحياة و منطلقها ، وبالتأمل في الطاووس فإن الجسد يكتشف مركز قدرته فيجده على مستوى الكتفين و الصدر .وأخيرا العنق و الوجه حيث تصفي النظرة العبارة.

فالتدريب على النظر في الاتجاه المعاكس للجسد و التأمل في مناظر خيالية و تأثير الأستاذ على القسم بمجرد نظرة يظهر ما لأهمية النظرة في الحياة .

و للتخلص من حالات الجمود أو الحركات الميكانيكية ، نفتح باب اللعب للجسد في عالم من الحرية و المجانية ، بالرجوع إلى الطفولة دون هدف معين ، أو الانغماس في عالم من الرمزية ، أو التركيز على زجاج نافذة أو تقليد كراكيز ، هذه الألعاب تساعد على التحرر والانطلاق ولا ننسى عملية التنفس في هذا الباب كعملية الشهيق بحيث

تفتح أبواب الفضاء، و الزفير يعلن النهاية و التراجع و توالي الشهيق و الزفير كموجة لا متناهية .

و للتخلص من القلق -قبل أخذ الكلمة - يلجأ الخطباء إلى طرق للارتخاء يعرفها رجال المسرح و المغنون و بعض رجال التلفزيون ، فالارتخاء عمل نفسي و جسدي في آن واحد . ببساطة هو الإحساس بالارتياح الداخلي ، و خلق نوع من الفراغ الذهني قبل البدء قصد تركيز كل الأحاسيس على ما يجري . كطريقة شولز Schultz و جاكبسون Jakobsonفي الارتخاء و التركيز اللتان أعطتا نتائج جيدة . أما بوصو Bossu و شالكيي C . chalaguier فينصحان بطريقة ارتخاء أكثر تطورا تصاحبها عملية ارتخاء عضلي ،و تحكم في التنفس بحيث تبدأ بالنزول ببطء في حركة دائرية حول محور خيالي مع الشهيق، " فحالة الشهيق " هي عملية تنفس وتكون في الأرض على الظهر ثم على المفاصل، ويتحرك معها حالا : العنق ،والأصابع ، والمرافق ،والأكتاف ،والرأس، ويتم التحكم في التنفس أثناء سيطرة العقل على الجسد ،كما أن الموسيقى تساعد على الدخول في حالة من الخيال مثل سماع موسيقى Pink Floyd ،والصعود ببطء نحو الأعلى يمكن أن يكون على موسيقى Bach . والهدف من التعبير الجسدي هو خلق توازن بين ماهية الشخص وكيفية ظهوره للناس ،وهذه التعبيرات الجسدية تدرب اليوم تحت إشراف مدربين في أماكن متعددة مثل دور الشباب ،و الجمعيات المختلفة وفي مقامات عديدة مثل التكوين المستمر ودروس المساء والدروس الخاصة 1 .

3 - الاستئناس المسرحي :

نجد للخطيب الذي استفاد من تجربة مسرحية ، سمتان إيجابيتان في طريقة تعبيره الشفوية :

القدرة على الإلقاء السليم مع الحركة المناسبة ، و يمكن تقسيمها إلى ستة مراحل للتقطيع الإلقائي عند المسرحي :

1-لحفظ النص يقرؤه عشرة مرات أو أكثر بصوت عال مع فاصل عشرين دقيقة بين القراءات .

2 - مرحلة فهم النص و شرح كلماته ، و هنا يستخدم ، العين و الأذن و الوجه و العقل .

3 - القراءة الميكانيكية قصد هضم الكلمات ، و التحكم في التنفس والقراءة بصوت عال و فتح الفم و إتقان مخارج الحروف .

4 - بعد هضم النص تأتي مرحلة تحديد وقفات التنفس .

5 - يقسم النص إلى وحدات تنفسية و يقف على كل وحدة منها .

6 - إيجاد تنغيمات و إيقاع لإلقائه .

ولا ننسى -أخيرا- أن الإلقاء هو مكون من مكونات معنى النص بينما تحتاج الحركات المصاحبة للكلام لتدريب و إتقان ،كما رأينا أهميتها في الفقرة الخاصة بالحركاتية .

أما السمة الثانية للتدريب المسرحي فهي القدرة على تقطيع النص إلى وحدات و تنظيمها في إطار فكرة موجهة بحثا عن الوحدة في الموضوع ،فالخطيب لا يبحث عن التفاصيل بل يحاول إيصال فكرة عامة دون تناقض ،و هذه الفكرة هي التي تسهل عملية التواصل بين الخطيب و الجمهور،ويرى ستانيلفسكي stanilavski أن إعداد الممثل يبرهن على هذه الفكرة حيث ذهب إلى أن:

" مجموعة من الممثلين لا يقدرون على تحليل و تقطيع النص . فيضطرون لإقحام مجموعة من التفاصيل الزائدة و السطحية التي تغلب على الفكرة العامة . فلا يجب الاعتماد على التفاصيل بل إيجاد عقدة النص ... "[1].

أما السياسي الذي يبني حملته الانتخابية وخطبه دون الحفاظ على الفكرة العامة مثل " شعار ... الأفكار القوية " قد لا يفهمه الناخبون . إذن فالحفاظ على الوحدة الموضوعية في الحوار ، أو الخطبة صعب لكنه يضمن تواصلا ناجحا .

- لعب الأدوار و المنيطوسكوب " الفيديو "

[1] -Lionel Bellenger :expression orale p :120

كل الدورات التدريبية للتعبير الشفوي تعتمد اليوم على الفيديو . فهذه الآلة التي تمكن من التقاط الصورة و الصوت : و رؤيتها بعد ذلك ، أو متابعتها مباشرة على الشاشة بواسطة الكاميرا .

فالفيديو يمكن المتحاورين ، أو المشاركين في لقاء ما ، أن يروا ويسمعوا أنفسهم كما يمكنهم من أن يشاهدوا أنفسهم كمتفرجين .

إضافة إلى أنه يعطينا صورة عن كيفية تأثير طريقة الكلام على الأفكار ، بالنقصان أو المبالغة ، أو بتضمن الكلمات معاني أخرى . فالخطيب يدقق في انتقاء المفردات حسب أهميتها و يعرف خطر الارتجال و عدم الاستعداد ، كما يرينا الفيديو كيف تأثر نظرتنا للآخر على طريقة كلامنا ، فحسب المتلقي نغير طريقة الكلام والحركات والنبرات من الأب ، للرئيس ...الخ. فالمنيطوسكوب يمكننا من رؤية القناع الذي نضعه غير عامدين ، و نظن أننا نتكلم بتلقائية .

كذلك المكان له تأثير واضح على طريقة التعبير-وهو ما رأيناه في التجاورية- فالصراخ في المغامرات في الشارع ليس هو اللغة المكونة لحوار حول سجاد أخضر أو لغة رئيس الجلسة أو الجو العائلي أو في أي مكان آخر.

وكثيرا ما قام المدربون -خطئا- بأخذ الكلمة أمام الكاميرا ، و غالبا ما كانت النتيجة هي الجمود ،و القلق ، و لغة مصطنعة ... فالفيديو ليس هو التلفزة و الهدف ليس تعليم الناس البروز أمام الشاشة ،لكن الهدف هو إعطاؤهم صورة عن حياتهم اليومية ، في المتجر ، وعند لقاء الطبيب ،و في العمل ،و مع الأصدقاء... هنا تأتي الصورة غنية و معبرة عن نفسها ، أما المدرب فلا يجب عليه أن يكثر النقد بل يسطر نقط القوة في التعبير الشفوي فقط .

فهذه اللعبة تمكن من يظنون أنهم أقل قدرة واستعدادا على إيصال الرسائل بواسطة التكرار و أخذ الكلمة مرارا ، بكسب الثقة أكثر في أنفسهم.

- و ختاما فإن لعبة الأدوار و الفيديو ، تمكن من يتمرنون من تصحيح أخطائهم ، ورؤية أنفسهم وسماع الملاحظات من المدربين -و يستحسن أن تكون الملاحظات

بين المتدرب و المؤطر و ليس على الملأ - وبذلك يصبح الحاجز السابق شاهدا ومرآة لتقدم مستمر . اللهجة العامية.

1ـد-1-2التواصل المرئي: التعبير الكتابي

التواصل المرئي خاضع لحاسة البصر فما هي الكتابة؟

إن الكتابة واحدة من بين الأنظمة السيميولوجية المتداولة التي تخدم التواصل بين البشر.

وتعتبر من أهم الإنجازات التي حققتها البشرية خلال تاريخها الطويل، وقد تغلب بها الإنسان على عائق البعد المكاني والزماني لما كانت رغبته في التواصل جامحة مع بني جلدته. ولهذا كانت الرسائل والشواهد التي خطت فوقها أنباء الانتصارات أقدم أنواع الكتابة، لكن الكلام كان أبقى منها، ولجأ الإنسان إلى إعطاء الأشياء والمظاهر المختلفة معان رمزية معنوية قريبة جدا مما نسميه حاليا بالكتابة، وقد بدأت هذه المرحلة بملاحظة الإنسان للطبيعة، ولعل أول الملاحظات كانت بسيطة وساذجة، فالأغصان المتكسرة في الغابة دليل على مرور شخص أو أشخاص من فوقها، كما أن وجود بقايا الرماد دليل على أن قوما حلوا في ذلك المكان، وآثار الأقدام على الرمال ذات أهمية كبرى عند ساكني الصحارى، والآثار التي تترك على الثلوج ذات أهمية أيضا عند الإسكيمو، إذن لقد تعلم الإنسان القراءة قبل تعلم الكتابة.

وبعد الملاحظة عاش الإنسان مرحلة ثانية من التطور إذ صار يصوغ هذه الآثار بطريقة اصطناعية فهو يحطم خلفه الأغصان في الغابة كي يعرف أصحابه بمروره، أو قد يمحو الآثار الدالة على سيره كي لا تنكشف طريقه: ثم انتقل إلى استعمال علامات ورموز غير موجودة في الطبيعة، فالهنود الحمر يثبتون في الأشجار سهاما تدل على اتجاه طريقهم أثناء الصيد، وكثيرا ما يستشهد علماء الكتابة بالقصة التي ذكرها "هيرودوت" في القرن الخامس قبل الميلاد على الرسالة التي بعثها الصقالبة قبل خوض القتال معهم، فقد كانت مؤلفة من ضفدعة وفأر وعصفور وخمسة سهام وكان مضمونها يعني: "إنكم –أيها الفرس- إذا لم تتمكنوا من القفز في المستنقعات كالضفادع أو الاختباء في الجحور كالفئران أو الطيران كالعصافير فستغدون طعما لسهامنا غداة تطأ أقدامكم أراضينا".[1]

وكان الفن التصويري البدائي أول خطوة في طريق الكتابة الأولى لدى الإنسان وهي الكتابة التصويرية (البيكتوغرافية) وهي مرحلة محاكاة لصور الطبيعة حينما يريد

[1] -فقه اللغة وتاريخ الكتابة، عماد حكيم، ص: 160-161.

الإنسان التواصل عن طريقها، وهي مرحلة وصل فيها البدائي إلى القدرة على التعبير بواسطة اللوحات لكن إنسان هذه المرحلة لم يستخدم بعد تلك الكتابة بمفهومها الدقيق، ولعل التطور الفكري للإنسان لم يكن بعد قد أوصله إلى مرحلة ذلك الاستخدام الذي يهدف إلى إيصال الأخبار للغائبين أو تدوينها للأجيال القادمة.

وأدى تطور المجتمع، ومن ثم تطور التفكير واللغة أيضا إلى ضرورة وجود الرسائل المنتظمة القائمة على أسس مفهومة لدى المرسل والمستقبل.

وهكذا أخذت اللوحات البيكتوغرافية في التجزؤ إلى عناصر ورموز منفصلة ما لبث أن اكتسبت بفعل استخدامها المستمر، صبغة الثبات سواء من ناحية معناها أو من شكلها التصويري، وصار كل رمز منها يعني كلمة مفصلة، وعن ذلك ولادة شكل جديد من الكتابة سمي بالكتابة اللوغرافية من اليونانية Logos كلمة وGrapho اكتب.

وغالب الظن عند المؤرخين للكتابة اللوغرافية أنها أخذت عن الكتابة المسمارية وتلت هذه المرحلة مرحلة الكتابة المقطعية، فبعد أن تطورت احتياجات المجتمع بتزايد تطوره، اتجهت معظم كتابات العالم القديم (باستثناء الصين) نحو تلك الكتابة المتطورة المبسطة، والكتابة المقطعية تعني أن الرمز فيها يشير إلى مقطع من كلمة وليس إلى كلمة بطولها ويمكن تقسيم هذه المقاطع إلى:

مصوت+ صامت.

صامت + صامت.

صامت+ مصوت + صامت.

وتمتاز هذه الكتابة أولا بسهولة القراءة والاستعمال وذلك بسبب قلة رموزها إذا ما قورنت بالكتابة اللوغوغرافية، كما تمتاز ثانية بميزة خاصة حتى بالنسبة للكتابة الحرفية –اللفظية- الحديثة وهي سهولة التعلم لأن فصل المقطع من الكلمة أسهل من الناحية النفسية من فصل اللفظ ورغم ذلك تتراجع الكتابة المقطعية أمام الكتابة الأبجدية الحرفية، وقد تأخرت الكتابة الأبجدية في ظهورها من الكتابة المقطعية، وسبب ذلك أن الانتقال إلى الكتابة الحرفية الصوتية يفترض مرحلة من تحلل الكلام إلى أصوات.[1]

ولاشك أن ظهور هذه الكتابة كان ذا أثر عظيم لتطور الحضارة العالمية.

[1] - نفس المصدر بتصرف.

*تميز الكتابة: أسباب سموها على الشكل المنطوق

تشكل اللغة والكتابة نظامان من العلامات المتميزة. إن تمثيل الكلام هو العلة الوحيدة لوجود الكتابة، إن الكلمة المكتوبة لتمتزج بالكلمة المنطوقة –التي هي صورتها- بشكل حميم حتى أنها تستلب منها الدور الرئيسي.

تذهلنا –أولا- الصورة الخطية للكلمات كغرض مستمر ثابت، فهي أكثر قدرة من الصوت على تشكيل وحدة اللغة عبر الزمن ومهما يكن الرابط سطحيا في خلقه وحدة اصطناعية فإنه أسهل من الرابط الطبيعي والحقيقي: إنه الصوت.

- إن الانطباعات البصرية لدى معظم الأفراد هي أكثر دقة وديمومة من الانطباعات السمعية، ولهذا فإنهم يرتبطون بالانطباعات البصرية بشكل أفضل، والصورة الخطية تقضي إلى فرض نفسها على حساب الصوت.
- إن اللغة الأدبية تزيد للكتابة أهمية لا تستحقها إذ أن لها معجماتها وقواعدها كما أن التعلم لا يتم في المدرسة إلا بحسب الكتاب ونهجه، علاوة على ذلك يبدو أن الكتابة بمثابة قانون والحقيقة أنه قاعدة مكتوبة خاضعة لاستخدام صارم: إنه الرسم الخطي، وهذا ما يضفي على الكتابة أهمية أولية، إن الأمر ينتهي بنا لنسيان أننا نتعلم الكلام قبل تعلمنا الكتابة وبذلك تنقلب العلاقة الطبيعية رأسا على عقب.
- إذا ما حدث خلاف بين اللغة والرسم الخطي فإنه ليصعب دائما على غير اللغوي أن يجزم في النقاش، وبما أنه لا يحق للغوي نفسه التدخل في الموضوع، فالشكل الكتابي يسمو بشكل شبه قدري، إذ أن كل حل يستند إليه هو –في الواقع- أكثر سهولة، ولذا فإن الكتابة تمنح نفسها قياسا على هذا المبدأ أهمية ربما لا حق لها بها –كما قال دوصوسير-[1].

+ مقارنة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة:

إذا قارنا اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة فإننا نجد –لا محالة- فروقات هامة خاصة على :
-المستوى الصوتي حيث تنعكس في الفونيمات، بينما نجد أن اللغة المكتوبة مشكلة من خطوط تدعى الكرافيمات في كلمة ما، ومثال ذلك قولنا: "هذا" فعدد الفونيمات مع الشكل أربعة: "هاذا" في حين أنها مع الكرافيمات –أي الحروف- ثلاثة مع العلم أننا نهمل في الكثير من الأحيان الشكل في العربية لذلك يلجأ علماء اللغة إلى الكتابة الصوتية العالمية التي تعطي لكل صوت علامة.

[1] - محاضرات في الألسنية العامة، ص 40-41 ترجمة 1984 بتصرف.

- على المستوى النحوي التركيبي: هناك فروقات بين ما نكتب وما نقول، ومثال ذلك أننا نكتب: لم يقولوا، ونضع الألف للتعبير عن حذف النون التي عملت فيها أداة الجزم "لم" ولا نتفوه بها. كما هو الحال في الفرنسية حينما نقارن بين المكتوب والمنطوق فنجد مثلا: il rassemble في المفرد، وils rassemblent في الجمع فلا ننطق ent... وle chapeau في المفرد، les chapeaux في الجمع ولا ننطق x.

والملاحظ أيضا أن في اللغة المنطوقة استعمال:

- ألفاظ المحاكاة كثيرا وألفاظ التعجب مثل "آه"، أي "إخ" و"أخ" و"أوف" و"بش" و"يوم" و...الخ.

- استعمال التكرار كثيرا.

- نستعمل بعض الجمل ولا نكملها وقد يختل التركيب فلا نعيره كبير اهتمام.

- ننهي كلامنا بجمل دخيلة أو ليس لها معنى.

- نهمل تصريف الأفعال كما يجب.

أما لغة الكتابة فهي أقل اقتصادا، ذلك أنك مضطر لاستحضار المقام بكل تفاصيله، ومن جملة ذلك: المتكلم والمستمع والأطراف المتدخلة في الحوار وجميع الشروط الفيزيقية والمادية والنفسية والاجتماعية للمشاركين في حدث التواصل، إن لغة الكتابة تحاول أن تضبط أكثر.

أما على مستوى التعبير: فاللغة المنطوقة تملك وسائل لا تملكها لغة الكتابة تأمل C.V. وC.N.V (التواصل الكلامي/ التواصل غير الكلامي). أما لغة الكتابة فتحتم عليك أن تذكر الزمان والمكان والأطراف المشاركة في حدث التواصل فتعين اسمهم وجنسهم وأهميتهم ،وكل حدث ارتكبوه في تواصلهم مع الغير، وتحاول أن تصف حركاتهم وسكناتهم الجسدية...الخ. فلغة الكتابة في هذا المستوى كذلك ليست اقتصادية.

ومن أمثلة ذلك ما تجده مسطورا في الروايات والقصص ولو كانت قصيرة، والمسرحيات –طالت أم قصرت- وسيناريوهات الأفلام التي تبرز ما خفي، وما أضمر في حدث التواصل من مرجع مادي يتصوره كاتب السيناريو، أو مفتش الشرطة أو أي محلل آخر.

والشاهد على أن لغة الكتابة أقل اقتصادا من اللغة المنطوقة التي قد لا نعير فيها كبير اهتمام لسياق الحال الذي قد نكون نحن بدورنا منغمسين فيه ونشكل أحد مكوناته، ما يمكن أن أنقله من قصة قصيرة للكاتب سعيد الريحاني تحت عنوان "لكل سماؤه" :

"على الأفق الوردي، ترسو شمس المغيب باسطة –للتواصل مع الشاطئ- جسرا بلوريا يتلألأ على صفحة البحر الذي يداعب بأمواجه الخفيفة قدمي الطفل الحافيتين: يدفعهما بلطف حين يتقدم نحو الصخور ويسحبهما معه حين يتراجع إلى زرقته، يدفعهما ويسحبهما،...

سأل الطفل أباه مشيرا إلى البحر:

- أبي، أهنا تعيش القروش؟

أجاب الأب مطمئنا صغيره:

- نعم يا عزيزي، لكن بعيدا من هنا... هي تفضل المياه الدافئة في أعالي البحار.
- هي قوية !
- نعم: القرش هو ملك البحر...
- وهنا في البر، من ملك البر؟
- السبع، يا ولدي، السبع هو ملك البر والغاب.
- ومن الأقوى، السبع أم القرش؟

كان الطفل يبدو متحمسا للموضوع، ربما كان يتصور –أمام عينيه- كل سؤال وكل جواب قصة مصورة وينتصر لأحد شخوص الحكاية.

انتبه الأب للأمر فأجاب على السؤال بسؤال آخر:

- وكيف لأحدهما لأن يتفوق على الآخر وكل يعيش في مملكته؟ السبع في الغاب والقرش في البحر، وحتى إذا ما حاول الواحد منهما أن يغير على الآخر مات اختناقا، إما على التراب، إذا كان قرشا، أو داخل الماء إذا كان سبعا.

ابتسم الطفل راضيا ينظر إلى البحر بإكبار وسأل:

- وماذا هناك في البحر
- الحياة.

لم يفهم الطفل قصد أبيه فاستدرك الأب الموقف:

- يوجد في البحر نفس ما تراه على البر حولك، يا ولدي: الجبال والهضاب والوديان والأغوار والأشجار والأحجار والنباتات والضياء والظلام... إن الحياة هنا في البر، تقابلها حياة موازية في البحر، وحيوانات البر تقابلها كذلك أسماك في البحر.
- وهل تتسع كل هذه التضاريس والأحياء والأشياء داخل البحر؟
- ما يوجد في البحر أكبر حجما وأكثر تنوعا مما يوجد في البر.

ضيق الطفل عينيه وهو ينظر بعيدا إلى الأفق:

- ولكن سطح البحر هادئ بلا التواءات ولا رؤوس تطل من الماء !!!
- لا يغرنك السطح يا ولدي.

رفع الأب بكفه وجه طفله إلى الأعلى وقال له:

- هل ترى تلك القبة الزرقاء الهادئة؟
- السماء يا أبي؟
- تلك سماؤنا وسماء السباع، أما سطح البحر فهو سماء الأسماك والقروش.

ثم بعد فترة أضاف:

- إذا خرج البحريون عن سطح البحر –سماؤهم- اختنقوا وماتوا، وإذا نحن –البريون- أطللنا برؤوسنا خارج سمائنا احترقنا ومتنا !

ثم استطرد:

- لكل –يا ولدي- سماؤه، هناك أشكال من العوالم وأشكال من المخلوقات وأشكال من طرق التفكير وأشكال من سبل العيش... هناك اختلافات لا نهائية في هذه الحياة. وهذه الاختلافات هي سر الحياة الكبير ونبع غناها الأكبر، ولولاها ما كنا لنستمتع بهذه اللحظة وبهذه الوقفة على هذا الجمال الذي سيجعلنا نعود لبيت أكثر تجددا وأكثر سعادة.

كانت الشمس قد بدأت تسحب بساطها المضيء عن سطح البحر وتختفي رويدا رويدا في الأفق بين السماءين حيث شعت السعادة في جوارح الطفل وهو يعلن من وحي اللحظة الملهمة:

- الحياة رائعة، يا أبي !
- قالها وهو يضم يده إلى يد أبيه: الأب ينظر إلى السماء والطفل إلى البحر".[1]

[1] - محمد سعيد الريحاني: موسم الهجرة إلى أي مكان ص 13-14.

فلغة الكتابة –إذن- في هذا المستوى ليست اقتصادية إنها تذكر الأمكنة والأزمنة وأحوال الكائنات الجامدة والمتحركة فيها، خلاف ما تجده في تواصل شفوي حيث تجد نفسك في غنى عن ذكر ملابسات الأحوال هاته.

وعلامات الترقيم التي يشتمل عليها نص "لكل سماؤه" تحاول –بدورها- أن تنقل شيئا ما من تلوينات النطق، إنها تثبت ما يوجد من تواصل كلامي وتواصل غير كلامي يتجلى في النظام التطريزي ذو الطبيعة الصوتية أيضا.

إن أول ما يطالعك في هذه القصة هو لحظات الصمت التي يمثلها البياض بين الكلمات وهي أقصر اللحظات في تعبيرنا وتليها الفاصلة التي تعبر عن أخذ نفس أوسط لاستئناف الكلام بعده ثم تتخلل العارضتان سياق الكلام، لتدرك من خلال ذلك أن الكلام اكتسى صبغة أخرى تفسيرية أو تكميلية، ثم النقطتان اللتان تنبئان بدورهما عن بدء التفسير أو بدء القول، ثم لاحظ النقط الثلاثة المتتالية المرسومة بعد متوالية لفظية إشعارا بأن هناك كلاما مبتورا أو أن الكلام لم ينته بعد، وتتخلل النص في كثير من المواقع. ثم نجد الشرطة التي تشعر بالتحاور والتناوب في الكلام، وتفاجئك علامة الاستفهام بالحضور -وهي تمثل هنا تكرارا- ذلك أن الجملة التي فيها أداة استفهام تتجلى فيها تلك الوقفة غير المنتظرة مثل: - أبي، أهنا تعيش القروش؟

إلا أنه قد لا نحتاج إلى أداة استفهام في طي كلامنا ونستعمل بديلا للأداة تنغيما معينا، لذلك نحتاج أثناء الكتابة لعلامة الاستفهام ويكون حضورها ضروريا.

ثم تطالعك في هذا النص علامة التعجب التي ليست كسابقتها علامة الاستفهام تكرارا بل حضورها هنا ضروري لأنه تنغيمي فقط ينتمي لتلوين تطريزي لا غير ومثال ذلك قوله:

- هي قوية !

ومعناها حدوث انفعال في النفس وفي بعض الأحيان تكتب ثلاث مرات أو مرتان دليلا على التعجب والاستنكار مثل قوله:

- ولكن سطح البحر هادئ بلا نتوءات ولا رؤوس تطل من الماء !!!

ثم نجد نقطة النهاية وهي كثيرة تعبر عن وقف لأخذ نفس أطول من نفس الفاصلة. والفاصلة المنقوطة، وأثناءها يتم البحث في الذاكرة وتترتب الأفكار ويتبعها إصدار المتواليات اللفظية، وقد عرفها الغير بأنها تعبر عن كمال الإفادة، وقد تكون نهاية القول.

لم يستعمل الكاتب المزدوجتين في قصته ليدل بهما على أنه اقتبس من غيره أو استشهد أو استدل بقول الآخر، إلا أن المزدوجتين أطلتا علينا في البدء عند ذكر عنوان القصة فوضعه بين مزدوجتين. إن علامات ترقيم أخرى لم تظهر في النص مثل القوسين وقد عوضتهما العارضتان وأما الفاصلة المنقوطة فلم يكن لها محل في النص.

ـخصائص اللغة المكتوبة:

1- تعتبر الكتابة إضافة إلى كونها نظاما فهي قناة موصلة تدوم أطول من الكلام لأن الكلام كما قيل: أقوى هدرا والكتابة أبقى نظرا.

ولقد أقسم الحق سبحانه بما يخطه القلم في قوله: "نون والقلم وما يسطرون"[1]، ومن سورة أخرى "اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم".[2]

وقد قال الشاعر:

الخط يبقى زمانا بعد كاتبه وكاتب الخط تحت الأرض مدفون

وقال المثل اللاتيني: verba volant- scripta manent

ونقل هذا المثل إلى الفرنسية في قولهم: « la parole s'envole et l'écrit reste »

فإذا صح أن الكلام في الماضي لا نقدر على نقله بأمانة –أي كما هو- فإن الكتابة طيعة لذلك.

2- من خاصية الكتابة الحفاظ على الموروث المعروف عبر الأجيال أي تواصل جيل مع جيل.
3- من خاصية الكتابة تقييد الكلام بحيث تحد من غلواء التغيير فيه ومن ثم يكون نظاما محافظا أكثر على سلامة التواصل الحاضر والآتي.
4- نظام اللغة المكتوب أرقى من نظام اللغة المنطوق، هذا بغض النظر عن بعض الكتابات الهجينة الأدبية منها والعلمية التي سجلت مؤخرا (مثلا قصة: نحن لا نزرع الشوك للروائي السباعي).
5- اللغة المكتوبة ليست هي اللغة المشتركة، فإن صح أن اللغة العربية الأدبية –مثلا- كانت مشتركة في أسواق العرب مثل سوق عكاظ تنظم بها الأشعار وتصاغ بها الخطب فإن اللغة المشتركة قد لا تكتب، ومثال ذلك الدارجة المغربية إلا ما وجد لماما.

[1] - سورة القلم الآية 1.
[2] - سورة العلق الآية 3-5.

وقال ابن خلدون [1] في شأو الكتابة والخط بعد أن عدها من الصنائع الإنسانية: ..رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس... إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يتميز بها عن الحيوان ،وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة فتقضى الحاجات ،وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم..."

ـ خصائص اللغة المنطوقة

1. اللغة المنطوقة أسبق من اللغة المكتوبة.
2. ينتج الإنسان الكلام المنطوق بنسبة أكبر مما ينتج الكتابة.
3. إن جرثومة التغير تكمن في الكلام أي في اللغة المنطوقة.
4. إن طبيعة اللغة المنطوقة معرضة للضياع والنسيان رغم تطور وسائل تسجيل الأصوات.
5. من خصائص اللغة المنطوقة اعتمادها على الأنظمة المرافقة للكلام خلافا لما في نظام الكتابة.
6. حيوية اللغة المنطوقة –أي أنها تسبح في عالم المقام الذي نفقده- في كثير من الأحيان في لغة الكتابة.
7. لا تماثل لغة الكتابة لغة الكلام رغم قولهم أن لغة الكتابة خادم مطيع للغة الكلام، فإذن الكتابة ليست تضعيفا للكلام.

- ترتيب الرسائل الكتابية من خلال الوظائف اللغوية عند جاكبسون:

إن الوظيفة المرجعية للرسائل في التواصل الكتابي تأتي في كل رسالة من الرسائل ، إنها حاضرة في كل الرسائل المكتوبة تقريبا ، و بالفعل فالتواصل الكتابي ينقل الرسائل تبعا للزمان و المكان ، فالمستقبل يفهمها عندما تحيله على مراجع مقامية أو نصية ، فلا توجد رسالة مكتوبة في غياب الوظيفة المرجعية .

إذن فكل نص مكتوب إلا و يشكل مجموعة من العناصر المرجعية و تلتبس بها عناصر أخرى تنتمي لوظائف اللغة الأخرى ، و ببساطة نقول إن العناصر المرجعية تحدد المعلومات الأساس لرسالة ما : معلومات لا حصر لها وأخرى مقتضبة ، خام أو موضوعية ، إمع العلم أن العناصر الأخرى تحدد شكل هذه المعلومات بالنظر للهدف الذي يرمي إليه كاتب الرسالة ، فالكتابة - إذن - هي تشكيل و تنظيم لعدة معطيات

[1] - المقدمة –الفصل الثلاثون.

ليست بغير قصد و لا هي بريئة بل تظهر دقة الرسالة و أهدافها المتوخاة .
إن الوظيفة المرجعية هي ما نعين به موضوع الرسالة ، و تضاف إليها الوظائف الأخرى بحسب ما نلاحظه يطغى على الرسالة .
و هكذا يتم ترتيب الرسائل الكتابية تبعا للوظائف اللغوية :
1 - الوظيفة المرجعية و تحمل الخبر الأصلي الموضوع بدقة بدون تعليق و لا حكم .
2 - الوظيفة التعبيرية : يظهر فيها حضور للمرسل و أحكامه و مشاعره و نصوصه النقدية الذاتية و العاطفية .
3 - الوظيفة التأثيرية : و يظهر فيها مراعاة الكاتب للقارئ بحيث يستحضر النصوص المؤثرة و المقنعة و الجذابة .
4 - الوظيفة الانتباهية : و فيها نصوص تظهر الرغبة في ربط الاتصال أو التقليل منه أو قطعه .
5 - الوظيفة البيانية : و تظهر من خلالها نصوص موضحة و معرفة وشارحة.
6 - الوظيفة الجمالية : و يظهر فيها نصوص تعطي قيمة للرسالة بصياغتها في شكل معين .

تحفظات :

لا يمكن إضمار حقيقة تعقيد الرسائل المكتوبة رغم ما يظهر من بساطة ترتيبها ، فلا يجب أن ننسى - رغم هذا الترتيب - أن هذه الوظائف جد متداخلة في الكثير من الأحيان في الرسائل المكتوبة أو أن بعضها لا تظهر وظيفتها إلا بشكل غير مباشر .
فهل توجد نصوص ذات وظيفة مرجعية خالصة ؟ ألا يصدر كل نص من مرسل ؟ و نص ظاهريا مجهول الكاتب ، ألم ينتجه أحد ما أو مؤسسة ما ؟
و من جهة أخرى ألا تكون الموضوعية و الصلابة - في بعض الأحيان - أمارات على تدقيق معقد و فكر ثاقب ؟
في الحقيقة إذا حللنا أو ركبنا فإن النص المكتوب يحدد من خلال شخصية المرسل - سواء كان فردا أم مؤسسة - أو من خلال المستقبل .
إن أي نص يحمل أمارات قصد ما إضافة إلى تمريره من المرسل إلى المستقبل .
و بهذا المعنى فإن الموضوعية و الصلابة و البرودة في حد ذاتها مقاصد ، وهي تسم بعضا من معالجة الخبر .

*الوظيفة المرجعية في الرسائل المكتوبة :

أ-الرسائل المرجعية الخالصة :

يحيلنا هذا النوع على ما رتبناه سابقا في الرتبة الأولى ، فالعناصر المرجعية هي التي تظهر لوحدها لا غيرها مما ينسب للوظائف الأخرى ، ومن ثم سنعالج نصوصا لا تنسب لشخص ما ، إنها موضوعية ، و الهدف منها إيصال معلومات خالصة لقارئ ما .

و بالتالي لا نلاحظ - أساسا - ظهور المرسل و لا المستقبل في هذه النصوص ، ورغم ذلك فهما نتيجة مشروع ما، وهو حمل بعض المعلومات الصالحة - أو غير ذلك - لقارئ مجهول لكنه مقدر .

و تغييب المرسل هو أيضا سند هذا المشروع ، فهو إذن متطوع ، فالموضوعية لا تصدر من ذاتها بل هي مجهود معين . إن إنشاء نصوص موضوعية يوضح - في بعض الأحيان - أنه من الصعب - بالنسبة للمرسل أو منتج النص - ألا يتدخل ، و من ثم سنميز في التعبير الكتابي صنفين من الرسائل المرجعية الخالصة .

1 - الإخبار l'information

2 - التقرير Le compte rendu

أ-1- الإخبار :

تحيل الرسائل الحاملة للخبر على أحداث ووقائع حية وظروف حدوثها والأرقام الضابطة والإحصاءات المفصلة لذلك ، ويكون الغرض إعلام الآخر - أي المستقبل - بطريقة واضحة ومباشرة ، مما يفرض أحداثا بسيطة وعديدة نسبيا تميل شيئا ما إلى الإيجاز والدقة ، كما أن الموقف المتخذ يهدف أساسا إلى التعبير بوضوح .

و من جملة الأخبار ما تنقله الصحافة ووكالات الأنباء من إعلانات إدارية و اقتصادية أو علمية والغرض منها التوثيق السريع ومثال ذلك :

- مذكرة موجهة لأعضاء مجلس النواب

نعلن - نحن رئيس المجلس - أن الاجتماع الذي كان سينعقد يوم الاثنين 15 مايو في الساعة 4 مساء ، قد أجل إلى الأسبوع القادم الذي سيصادف يوم الاثنين 22 مايو على الساعة 6 مساء .

- خبر اقتصادي

اجتمعت الحكومة يوم 24 مايو تحت رئاسة الوزير الأول " السيد إدريس جطو " و استعرض وزير المالية والخوصصة " السيد فتح الله ولعلو " حصيلة الرواج الاقتصادي للعام الماضي وحدد نسبة النمو في 3% .

نشر الخبر في جريدة الاتحاد الاشتراكي يوم 28 مايو 2004 .

إنه الخبر الذي يهتم به أصحاب البورصة وأرباب المعامل والشركات فهو يحتوي على أخبار اقتصادية محضة ، ويشترط في الخبر أن يكون ثخينا ، أي حاملا للمعلومات الكثيرة بعبارة موجزة .

إذن : من قواعد الإخبار أن يكون واضحا مقتضبا ومكثفا ، أي مشتملا على عدد كبير من المعلومات في أقل عدد من الكلمات .

أ-2 - التقرير Le compte rendu :

إن الفرق بين الإخبار و التقرير قد يبدو مصطنعا ، لكن الفرق يظهر في أن التقرير يتميز عن الإخبار بكون الإخبار يعلن عن الاجتماع في حين أن التقرير يصف مجرياته ، و يحيلنا التقرير كذلك على مراجع حقيقية (أدوات ، محاضرات ، اجتماعات إدارية أو تربوية أو رياضية أو عروض فنية ... الخ) .

في الحالة الأولى يظهر نصوصا من صنف وصفي ، و في الحالة الثانية يوجز لنا أحداث الرواية أو القصة أو المقابلة إلى غير ذلك ، فالتقرير الوصفي يضبط لنا بدقة وصفاء عناصر المراجع وعلاقاتها ، ويهتم بالحدث مثل تقرير عن حادثة ما بوصف المواقع والأحداث والزمن وما إلى ذلك، ويهتم التقرير بنشاط ما ، كتقرير اجتماع ما بوصف ما حدث في الاجتماع .

كما أن التقرير يهتم بموضوع ما كوصف لوحة أو أثاث ، وعلى أية حال فالمقرر لا يضيف أي شيء للأحداث ، لا يحلل ولا يصدر أي حكم ولا ينتقد ولا يمدح ، إنه يعرض هذه الأشياء فقط ،ومثال ذلك:

1 - <u>تقرير عن " ميترو باريس "</u>

ينحدر المارة في تلك الغيران الأرضية في دفعات متتالية ، يسرعون الخطو إلى " المترو " ومسارب هذه الغيران متعددة ، وعند كل مسرب تجد حواجز تمنعك من المرور إذا لم تدخل تذكرتك في الجهاز الأوتوماتيكي الذي يأمر الرافعة بأن تدعك تمر ، و تجد على الجدران إعلانات الأوقات التي سيصل فيها " المترو " إضافة إلى الاتجاهات التي ترشدك إلى الناحية التي تقصدها ، وعلى الحيطان

التي لا تتعدى مترين و نصف تجد في الغالب صور إشهار وكلمات مكتوبة بخط بارز أحمر أو أسود تلفت الانتباه ، و في تلك الممرات الأرضية تجد بعض الباعة والمتسولين ، و لكن الكل منشغل بمسابقة الزمن للحاق بالمترو الذي سينقله إلى المكان الذي يعمل به ، و بمجرد ما يقف المترو يزدحم الركاب في مداخله المتعددة في اتجاه واحد لا يلتفت بعضهم إلى بعض ، فالكل منشغل والكل متسابق وأصنافهم كثيرة وأجناسهم مختلفة تجمعهم وسيلة النقل هذه .

تقرير وصفي عن نشاط أو اجتماع ما : والتقرير من هذا الصنف يشتمل بالجملة على :

- تاريخ و مكان و ساعة الاجتماع مثلا .
- طبيعة الاجتماع : سياسي ، اقتصادي ، اجتماعي ... الخ .
- موضوعه و سببه : أي ما يسمى بجدول الأعمال .
- الأشواط التي قطعها الاجتماع : تقديم وعرض الخطب مثلا .
- تدخلات المشاركين وتحديد المؤسسة التي تحتضنهم .
- المناقشات ثم الاقتراحات والتوصيات والخلاصات التي توصل إليها المجتمعون .

و يلاحظ أن المقرر لا يتدخل برأي فيما يصوغه كما أن عليه أن يسجل كل مهم راج في الاجتماع و بذلك يمتاز التقرير الوصفي الجيد .

و مثال ذلك : "أمسية شعرية و فنية في حفل توزيع جوائز مسابقة الوديع الآسفي للشعر ، تقرير يونس الحيول ".

عاشت دار السلطان بآسفي مساء شعريا و فنيا بامتياز عندما احتضنت يوم 29 أبريل المنصرم حفل توزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة " الوديع الآسفي للشعر " التي تنظمها كل سنة جمعية أسيف لحماية التراث الثقافي والمعماري بآسفي ، و استهل رئيس الجمعية -السيد عبد الحي مشتي- المناسبة بكلمة موجزة تلتها كلمة أسرة الفقيد التي ألقاها ابنه عزيز الوديع في حين ألقى الدبلوماسي الفلسطيني واصف منصور شهادة مؤثرة في حق الراحل ، انتقل بعدها الحضور للاستماع إلى نصوص الشعراء المشاركين و هم يونس الحيول ، كمال أخلاقي ، عبد الرحيم السايل ، لبنى المانوزي ، صباح الدبي ، عبد الله السعيدي ، محمد بن سلطانة ، نور الدين الزويتين ، صلاح الوديع ، خالد بورقية ، و عبد الرحيم الخضار الذي تكلف في الوقت ذاته بتنسيق فقرات الأمسية .

و بعد تشنيف الأسماع بمقطوعات رقيقة للثلاثي الصغير جميل بشير ، فسح المجال لقصيدة الزجل ليعيش الجميع لحظات تألق رسمها الزجالان محمد بالعطار

و إدريس الماحي ، وهي اللحظات التي لم تنقطع بعدما تناوبت على المنبر كافة الأصوات المتوجة ، و هي على التوالي : ياسين الخرساني و محمد مقصدي و عبد الهادي روضي .

يونس الحيول ، التقرير عن جريدة العلم العدد 17/20446 جمادى الأولى الموافق 14 يونيو 2006 .

إذن تستوجب كتابة التقرير مراعاة الزمان والمكان والموضوع والأطراف المشاركة والكيفية التي جرى بها اللقاء لذلك تعمد للسرد في كتابة التقرير و تتحرى الموضوعية بدون البحث عن الإمتاع و الإقناع بل الوصف التام المتسم بالدقة من أجل إعلام القارئ بالحدث وقد يضاف إلى ذلك الحوار سواء كان مباشرا أو غير مباشر .

فإذن إعداد التقرير يستند كثيرا إلى حسن الاستماع و حضور البديهة والانتباه " فمن لم يحسن الإنصات لم يحسن الإجابة " فالإجابة هنا في التقرير هي حاصل تسجيل الوقائع و تقييد المعلومات التي سوف تخدم إعدادك للتقرير الوصفي لوقائع اجتماع أو ندوة أو محاضرة أو يوم دراسي أو مؤتمر وطني أو دولي أو ما شابه ذلك من الوقائع الشفاهية ؟

و قبل هذا كان التقرير يكتسي معنى سلبيا فقد كان إعداده موكولا للجواسيس أثناء الحروب الساخنة أو الباردة ، وهو قديم قدم التاريخ ، فتحري المعلومات عن العدو وسردها شفويا بالطريقة القديمة أو كتابيا بالطريقة الحديثة هو ما كان يسند لبعض البعثات العلمية و التبشيرية التي كانت تخضع المجتمعات التي كان سينظم ضدها حملة الغزو الاستعماري للبحث ،ولا غرابة في ذلك حيث نجد الكثير من التقارير قد أعدت في فترة ما قبل الاحتلال ، وأخرى أعدت أثناءه وهذا ما نجده في كثير مما ملئت به صفحات الجرائد والمجلات الصادرة في تلك الآونة مثل Hesperis و La revue du monde musulman.

و اليوم - ورغم تطور مهارات التعبير في تسجيل الوقائع- فقد أخذ بمنهجية من صاغ هذه التقارير حتى صارت من الأمور العلمية المعترف بها في إطار التواصل العالمي الكتابي منه و الشفوي .

و في هذا الإطار نجد أن تقييد المعلومات خاضعة -في حقيقة أمرها- لمن يطلب إنجاز التقرير في شأن واقعة حية اجتماعية أو طبيعية يجهلها أو هو غائب عنها ، فالأولى وهي ما يحصل في كثافة تواصلية كالمحاضرة والحوار والندوات والمؤتمرات والوقائع الحية التي تقع فيها المعاينة والحضور المكثف . ولا شك أن المراسل الصحفي يوكل له إعداد تقرير عن واقعة حضرها من هذا الصنف،والمبعوث الإداري مكلف هو

بدوره بالقيام بنفس الفعل ، و عضو جمعية - أيا كانت هذه الجمعية - إن كان رئيسا أو أمين مال عليهما إعداد تقرير كل بحسب ما وكل إليه من مهام ، و من ثم تحصل على التقرير الأدبي و التقرير المالي و هلم جرا .

و هكذا دواليك تجد عدة تقارير أنجزت بحسب الوقائع والمهمات و من جملتها ما ذكرته آنفا، وكذلك التقرير الرياضي،والتقرير الصحي الذي ينجزه الطبيب عن حالة مريض ، و تقارير أخرى ذات طبيعة أخرى .

و من المؤكد أن عملية إنجاز التقرير تتطلب حضور الانتباه والقدرة على التركيز بعناية فائقة حتى يتيسر تقييد المعلومات بكل أمانة وموضوعية .

فليس المطلوب هو تسجيل كل مجريات الأحداث لكن الأمر يتطلب شيئا من الدقة في تتبع ما ورد من مقول ومشاهد بكل موضوعية ،وتسجيله دون إصدار حكم أو تعليق ، وطرق تقييد المعلومات عديدة نقتصر على بعضها دون البعض الآخر و من جملة ذلك :

+الطريقة العمودية العادية :

و هي التي تعتمد على جمع العديد من المعلومات مميزين فيها بين ما هو أساسي و ثانوي و جزئي .

فإذا كانت البديهة حاضرة ، فإن مقيد المعلومات سيتتبع مجريات الحدث بادئا بالزمان والمكان وموضوع الحدث والمتدخل الرئيس ، ويراقب حتما تفاصيل الموضوع المعالج ثم الحضور المتدخل والمناقش ثم يخلص إلى ما نتج عن هذا الاجتماع من نتائج تكون في شكل توصيات أو برقيات أو اتفاقيات ... الخ .

و أثناء ذلك يعمد معد التقرير إلى الاعتماد على بعض الرموز ليبين الأفكار الأساسية من الثانوية وإلى رموز أخرى يفرق فيها بين الأمثلة والبراهين و الاختصاصات ، كما أنه يتجنب تسجيل الإطناب والإسهاب في القول .

و هكذا - إذن - يتجلى أن إعداد التقرير الوصفي بحسب هذه الطريقة فيه مرحلتان :

- المرحلة الأولى و هي تسجيل المعلومات و هي ما ذكر آنفا .

- المرحلة الثانية و هي مرحلة الصياغة و آنذاك يتأمل كاتب التقرير فيما تم جمعه مرتبا إياه مختزلا ما وسعه الاختزال مراعيا تسلسل الأفكار معملا فكره فيما جمع متوخيا الدقة والموضوعية ما أمكن .

+الطريقة الجدولية :

و تصلح هذه الطريقة عند إعداد تقرير يعتمد القراءة لا المعاينة ويتم وضع جداول لتقييد المعلومات على أساس أن يضع في كل خانة من خانات هذه الجداول عناوين

يبين بها ما سوف يرتبه فيها من مثل : صاحب النص ومصدره ، والأفكار الأساسية و الأفكار الثانوية ، والشواهد و الأدلة ،والنتائج أو الخلاصات .

+الطريقة التشجيرية :

و قد سماها البعض بالطريقة الاستكشافية و تصلح هذه الطريقة في إعداد التقرير الوصفي المعتمد على المعاينة كما يصلح في التلخيص المعتمد على القراءة . و بناء عليه تمكننا هذه الطريقة من إضافة معلومات جديدة دون أن نحتاج للحذف و الإلغاء و التشطيب على بعض الأفكار و تعديلها مثال ذلك :

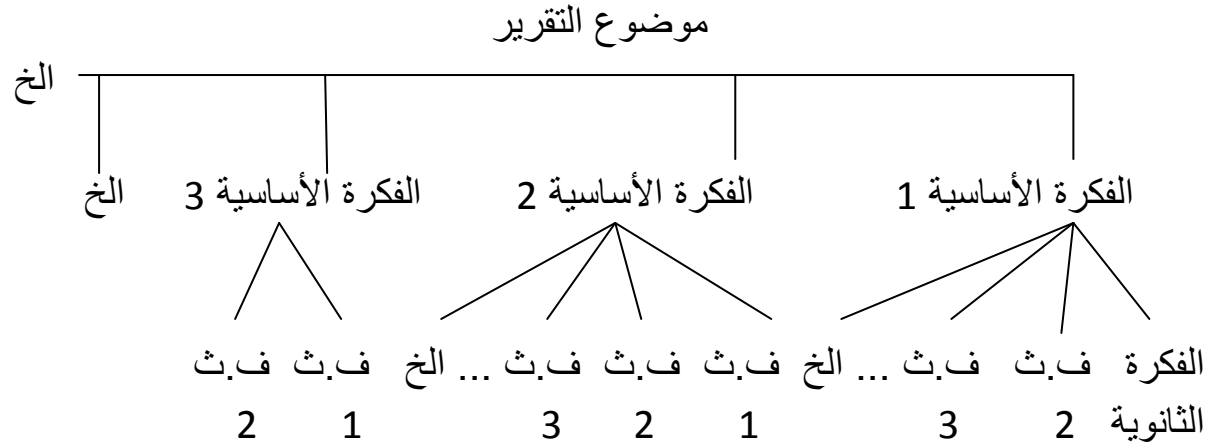

أ-2-1- تقرير التلخيص :

و يكمن دور المقرر آنئذ في تلخيص محتويات ما يقرأ من رواية أو قصة أو علم من العلوم . و قد تراوحت الكتب العلمية قديما بين شروحات و تلخيصات أو مقتضيات على متن معين ، فالتلخيص يهدف بكل أمانة إلى نقل الأفكار والأحداث الأساسية التي يحتويها النص - أي المتن - .

إن كاتب التقرير ينقل لنا هنا آراء الكتاب ويخبرنا بتسلسل أفكاره ويحرص -ما أمكن- على ألا يعلق وألا يحكم ، إنه يحترم الترتيب الذي أتت فيه الأفكار و الأحداث ، و يحرص الملخص - جاهدا في عمله- على الإتيان بالملفوظات المنطقية للنص ، كما يحرص على اختزال النص إلى الربع من طوله الحقيقي ، ويمكن أن نجد ملخصات أقصر من ذلك .

إن أمر التلخيص مرتبط بطبيعة مستقبل الرسالة ومزاجه ، فإن كان لبيبا يفهم بسهولة ورصيده المعرفي غني تكفيه الإشارة دون العبارة والتلميح عوض التصريح، فنعتمد عندئذ التلخيص الموجز المكثف ، لأن قارئ التلخيص يكمل مما أوتي من علم ، وإن كان لا يفهم بسهولة اقتصر في التلخيص على الأقل على الربع كما ذكر .

إن صعوبة التلخيص تكمن - أساسا - في البحث عما هو جوهري في النص ونقله بأمانة تامة ، ولا نعني بهذا أن الصعوبة يجب أن تحول - منهجيا - إلى إعادة صياغة جمل أو متواليات جملية من النص الأصلي وتحقيق نوع من الإلصاق ندعوه تلخيصا ، إنما المقصود هو التعبير بأسلوب موضوعي عن العناصر الجوهرية في النص .

إن المنهجية العلمية هنا تتجلى في :

- استخراج الفكرة الأساسية للنص و النوع الذي ينسب إليه (خطاب سياسي ، نص كوميدي ، نص روائي ... الخ ، بعد قراءتين أو ثلاثة .

و معلوم أن القراءة الأولى تكون سريعة إثرها تطلع على محتويات المقروء من خلال الفهرس .

ثم تليها القراءة العادية ، ثم القراءة المتأنية التي تتفحص من خلالها ما كتب ، ومن ثم تعمد إلى :

- استخراج الملفوظات التي تشكل حركية النص أو تنظيم هيكله . ومن خلال التصميم نضع الأفكار الثانوية ، ثم نصوغ الملخص .

إننا نجد مثلا جميلا في تمرين موجز صاغه ملخص سيناريو فيلم ما ، إنه يعبر عن تصميم مقتضب لفيلم ما أو رواية أو أعمال درامية و مثال ذلك فيلم : " أصدقاء من كندا " إخراج محمد الكغاط بطولة : رشيد الوالي و حنان الإبراهيمي :

لم تدم فرحة سناء طويلا ،فكلمح البصر تتحطم سعادتها و تهوي كقصر من ورق ، حين تجد نفسها - من دون أن تدري - محاصرة بسيل من أسئلة رجال الجمارك ، و قد تم العثور على كمية من الكوكايين مخبأة داخل أمتعتها وهي تهم بالسفر إلى كندا لتلتحق بزوجها هناك ، فكخيط عنكبوت تلتف حولها التهم ، دون أن تستطيع الإفلات منها ، لكن يقظة رجال الأمن بقيادة المفتش شكري ستصر على اقتفاء أسرار هذه الجريمة الكبرى و فك لغزها المحير .

منشور القناة الثانية المغربية - أبريل 2006 .

أ-2-2- التقرير الوصفي الملخص :

بعض الأصناف من النصوص التقريرية تجمع بين الوصف والتلخيص وهكذا نجد جذاذة تحتوي على :

أ-2-2-1قسم وصفي أو إخبار خالص و بسيط فيه :

- اسم الكاتب أو المؤلفون
- عنوان المؤلف الكامل أو المضبوط (أو ربما عنوان المقال)
- اسم الناشر (أو اسم الدورية) أو ربما السلسلة التي يتشرف ضمنها المؤلف
- المكان و كذا تاريخ ظهور المؤلف
- عدد الأجزاء و الصفحات

كل هذه الإشارات يمكن أن تكون متبوعة بوصف مقتضب لبنية الكتاب (الأقسام و الفصول و الفقرات و كذا الفهارس ... الخ) .

أما بالنسبة للمؤلفات الأجنبية فمن الحري بالذكر أن نشير إلى اللغة التي كتب بها المؤلف أولا ، ثم نحيل على المترجم إن وجدت هناك ترجمة.

أ-2-2-2قسم يلخص محتوى الكتاب أو المؤلف و يمكن أن يتفرع هذا القسم كذلك إلى لحظتين :

لحظة فيها إشارة مقتضبة للمحتوى الإجمالي للكتاب (الموضوع المعالج) ، و الموقف أو الرأي الذي يتبناه الكاتب (صنفه ، طريقته ، و منهجيته ... الخ) .

ثم لحظة صياغة ملخص ينبئ بما هو جوهري بحسب تصميم النص مثال ذلك :

كاستون باشلار : "التحليل النفسي للنار"، طبعة كاليمار باريس 1938 (سلسلة أفكار ، 185 صفحة) مؤلف من سبعة أقسام إضافة إلى مقدمة و خاتمة ، يقترح الكاتب فيه دراسة معاني النار في الحياة العادية ، وفي الأدب والفلسفة على ضوء التحليل النفسي .

تنبيه : يجب أن تحمل المذكرة والمنشور والتقرير والملخص دائما إشارات إلى مصدر النص (الأسماء و الأماكن و التواريخ ... الخ) ، و هذه الإشارات تختلف بحسب صنف الحدث المعالج ، ولهذا فكل وثيقة لا تحمل مراجعها معرضة بسرعة للإهمال .

ب-الوظيفة التعبيرية في الرسائل المكتوبة

تدخل الوظيفة التعبيرية في الرسائل المكتوبة في كل مرة نشعر فيها بأن المرسل يظهر أفكاره وآراءه و انشغالاته ، ومعلوم أن العناصر التعبيرية تشير إلى وجود أو حضور مستقبل الرسالة ، إنها تأتي على بيان الذاتية الحاضرة في الرسالة . و قد تكتسح هذه الذاتية كل الرسالة ، و بذلك تصير الناقل للتعابير الشخصية ، و من ذلك الرسالة الغرامية ، أو تتدخل الذاتية بطريقة غير مباشرة للحديث عن الذات كما في الترجمة الذاتية .

إن مختلف مواقف و آراء المرسل تعطينا أصنافا من الرسائل المختلفة و هي :

ب-1 - الرسالة ذات الطابع الشخصي Le message à caractère personnel :

ب-1-1 الرسالة الغرامية : لا شك أن قاعدة تعابير هذه الرسالة تكمن في أنها تختلف من شخص لآخر ، وكما عبر عن طبيعتها إبراهام مولز Abraham Moles قائلا : " إنها صنف من الرسائل على حظ كبير من الجمال ، و منتشرة بشكل أوفر ، و بذلك تسجل من جهة أخرى مدى رسوخ العلاقات البشرية .

فهي متنفس للشخص المنطوي ، و انطلاق للعاشق المتيم، وهي مجرد إقرار أو اعتراف من شخص إزاء شخص آخر ، و عامة إزاء الجنس الآخر ، إن أصالة الرسالة تكمن في أنها تشكل ضعفا و فقرا من ناحية مضمونها الدلالي : فالرسالة تظل هي هي ، نريد أن نعبر عن صدق حبنا ، إنها سلوك متكرر نشعر بذلك من خلال كل سطر مكتوب و بصياغات ملتوية و متلونة و مختلفة ، و بصور استعارة مجازية نعبر و نفكر .

و آنئذ يكتسي الإدراك والتصورات الذاتية الأخرى أهمية قصوى . فإذا تقاسم المستقبل نفس مشاعر المرسل فإنه يقرأ الرسالة دون عين ناقدة ولا معاتبة، بل يغض الطرف عما يبدو ناقصا (حبك الشيء يعمي و يصم) . فالتلميح يحل محل التصريح .

أما - و إن حدث - عكس ذلك فلم يتقاسم المشاعر معه ، فإن المستقبل سيحكم على الرسالة بدقة ، وبالتالي ستمثل له أمرا عاديا، وصورة باهتة ، وبدون قيمة أدبية أو عاطفية ، ومن ثم سيرفضها .

فالرسالة الغرامية - إذن - نسق إخباري إلا أنها موضوعة في إطار التواصل المتبادل إذا كانت كثافة المشاعر المقتسمة متساوية من كل جانب . إن الرسالة الغرامية أحادية الجانب توشك أن تشكل فاجعة لمؤلفها وفاجعة لمشاعره العاطفية ، ونكسة تنعكس على حياته بالجملة ...

إذن فالرسالة الغرامية تصير عقدا اجتماعيا كلما اكتست حلة كتابية ، خلاف ذلك يذهب القول أدراج الرياح (وقد تحل هذه الرسالة محل فك ما انعقد من حب و تلاق إلى نبذ و فراق يتجلى في صورة طلاق ، إن وجد شريك آخر في علاقتهما مثلا) .

و على أي حال ، إن الرسالة الغرامية الغالية في أعين الرومانسية (أهل الحب العذري) بدأت تقل وتندر بالنظر لتطور وسائل التواصل بكل أنواعه ، خصوصا مع التليفون ووسائل النقل السريعة - السيارة والطائرة - فالحب في الروايات والأفلام المعاصرة لا يستند إلى تبادل الرسائل ، بل البطل العاشق

المتيم يعبر عن هيامه وحرقة شوقه فيركب متن طائرة أو قد يركب سيارته وإلى جنبه عشيقته وقد يبعث تلغراما في أقصى الحالات1.

ب-2 التعبير عن حكم : التقرير النقدي Le compte rendu critique

خلاف ما نجده في التقرير الموضوعي - المشار إليه في الرسائل المرجعية ، فإن التقرير النقدي تظهر فيه انفعالات و آراء المرسل إزاء موضوع الرسالة ، إننا هنا لا نصف فقط بل نحكم و نقرر ، لكن من المهم أن نلاحظ أن هناك في الذاتية في الحكم،بعض الأحكام أوالانتقادات تستند إلى أحكام شخصية يأتي بها المؤلف من صنف : أحب و أكره ، معتمدة في ذلك على الذوق الفني أو العاطفي للكاتب ، وهناك انتقادات أو أحكام تستند نسبيا إلى بعض العناصر الموضوعية ، و هكذا نحكم على سلوك مشين في اجتماع ما باسم التقنيات السينماتوغرافية ، على اعتبار أن الحكم الذاتي الخالص ليست له إلا قيمة محدودة ، ولا ينفع إلا إذا تقاسم القراء والمؤلف الكاتب نفس الشعور، والآراء والأحاسيس .

و بالجملة فإن أي حكم ذاتي لابد وأن يستند إلى براهين و أدلة قاطعة من أجل تبريره ، مثال ذلك ما ورد عن " العصرية و المعاصرة " في كتاب النقد الذاتي لعلال الفاسي . و تجد ذلك في الكثير من الأعمال النقدية التي نحكم فيها على النص أو على كاتبه سواء كان هذا النص قصة أو رواية أو مسرحية أو رسائل من نوع آخر .

-1-Francis Vanoye :Expression communication p ;98

إننا نزاوج في التقرير النقدي بين الوصف والحكم ، وبذلك تتبع عناصر هذا التقرير النقدية الذاتية العناصر الوصفية أو تسير معها جنبا إلى جنب ، مثال ذلك ما انتقد به يحيى يحياوي:

" العولمة و رهانات الإعلام " يقول : " عندما تكلمنا عن الممكن في " النظام العربي " للإعلام و الاتصال السائد ، أشرنا إلى أن الممكن - في اعتقادنا - إنما يتجلى في التفتح على تكنولوجيا العصر ، لا من باب الانبهار و الإعجاب ، و لكن من منطلق توظيف ما يصلح لنا و يناسب بنياتنا الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ، و اعتبرنا هذا الأمر مختوما - على المدى القصير - في غياب الهياكل والسياسات التي من شأنها تفعيل آلة الإبداع والابتكار والتجديد التي ميزت الحضارة العربية الإسلامية على امتداد قرون من الزمن .

و قد أشرنا أيضا إلى أن الممكن يتجلى في قدرة الأقطار العربية على تكوين تكتل اقتصادي ، وقلنا إلى أن المبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان لابد من تكريسها لإنجاح هذا التكتل ومنحه فرص النجاح والاستمرارية .

فلا نعتقد بإمكانية الاستمرار في الاعتماد على الآخر لبناء القدرات الذاتية بقدر ما نؤمن بضرورة الاعتماد على الذات ، إيماننا بتطوير اليابان - مثلا - لطاقات بديلة حتى في ظروف وفرة البترول و بخس ثمنه .

استراتيجية التغيير تبدأ في اعتقادنا ، من تفعيل الهياكل العربية المشتركة وخلق هياكل أخرى ، ومن تكوين الموارد البشرية تكوينا عاليا ، و العمل على استقطاب القدرات المهاجرة "[1] .

فإذا تأملت في طيات هذا النص ستجد مزاوجة بين الوصف و الحكم انطلاقا من الأنا المتكلمة .

ب-3 - المحضر Le rapport :

يتميز المحضر عن التقرير الموضوعي - الذي ينتمي للوظيفة المرجعية - بما يضيفه من بعض العناصر الذاتية : كالتحليل والنقد والاقتراحات ... الخ ، فهو يهدف في الأخير إلى أخذ قرار أو الحسم في قضية ما وبالتالي إلى الفعل ، كما هو الحال في محاضر الشرطة وغيرها .

إننا نجد المحاضر بشكل متواتر في الحياة المهنية : محضر التدريب وما يعده موظف ما - من محضر - لمن هو أعلى منه رتبة ، و كذا ما يعده أحد الأطر لاجتماع إدارة أو ما تعده لجنة دراسة لوزير ... الخ .

أما حجم المحضر فمختلف ، إلا أنه يلزم أن يعد بشكل لائق ومضبوط وواضح ، إنه يحتوي على :

1 - صفحة خاصة بالمعلومات الأساسية من مثل : عنوان المحضر واسم المقاولة مثلا ، و التاريخ ، و اسم كاتب المحضر ، و اسم مستقبله .

2 - خلاصة أو تحليل موجز تذكر فيه التفريعات الأساسية و صفحاتها .

3 - توطئة تقدم بها موضوع المحضر ، ظروف تأليفه (تدريب مثلا) فكرته الموجهة .

4 - ثم تخصص جزءا مركزيا للوصف أولا - أي وصف السياق المقامي و مجريات الحدث و التجارب ، ثم نقد ذلك والحكم عليه ، حكم يستند إلى أفعال و شهادات وحجج قاطعة ثم التأكيد بملفوظات على النتائج ولائحة الاقتراحات ... الخ .

5 - ثم تختم المحضر بنتيجة : تعيد فيها موضوع المحضر معبرا عن حاصل ما توصلت إليه من نتائج و اقتراحات .

ب-4- التعليق (أنظر الوظيفة البيانية و الرسائل المكتوبة أيضا)

[1] - سلسلة شراع، العدد 33 ، ص : 89 و ما بعدها بتصرف .

رغم ما يمكن أن يقال - في هذا الصنف من النصوص - عن الشخصية والذاتية فإن رأي المؤلف يجب أن يظهر ويجهر به ، و تتطلب الكثير من التمارين المدرسية نفس المجهود الذي رأيناه في التقرير النقدي و المحضر .

و هكذا نجد في الأبحاث الجامعية والتعليقات كيف يعبر المرسل الكاتب حينما يتناول موضوعا معينا ؟ ما موقفه ورأيه إزاءه دون الاستغراق في تعابير و تحليلات تنم عن ذاتية لا تستند إلى مبررات وشواهد ؟ فالمشكل يتجلى في معرفة كيفية : تنظيم فكرة ، وبمعنى آخر يجب أن تتخذ طريقة نجعلها بها واضحة ، و بالتالي صالحة ، وأن نعطي قيمة لرأينا بالاستناد إلى حجج قاطعة مع العودة بين الفينة والأخرى إلى أمثلة موضحة (الأحداث والتجارب والمراجع المختلفة ... الخ).

و من الأهمية بمكان ترتيب هذه الحجج و اختيارها ، و هي أولى العمليات التي يجب أن تتحقق، ومن جهة أخرى فإن أسلوب تحرير هذه النصوص - أي التعليقات والمقالات و الأبحاث - سيبين - بلا شك - تأكيد الكاتب على ذاتيته و فطنته نسبيا ، ومن ثم يمكن أن نجد عدة عبارات نفصح بها عن رأينا دون تفخيم " الأنا " بشكل فظيع .

ب-5 - تغييب الأنا : الترجمة الذاتية (أو السيرة الذاتية) :

يمكن أن نعبر عن " الأنا " بطريقة ملتوية ولطيفة في نص مكتوب دون أن نجرح شعور الآخرين مؤكدين على الذات .

و حينها تصير " الأنا "جمعا " نحن " للمعظم نفسه ، إنها تعني شخصيات لها مكانة اجتماعية مثل " نحن ... عمدة المدينة ... " ، و قد نعبر بها عن مجموعة من الأفراد في شخص كاتب الرسالة ، مثال ذلك رسالة خطبة النعمان بن المنذر ملك الحيرة الغساني مدافعا عن أمة العرب أمام كسرى إمبراطور فارس ومن جملة ما قال : " ... فأما عزها و منعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها من الحجارة و الطين و جزائر البحور ... الخ " .

و من جملة التعابير التي تخفي ذاتية المتكلم البناء للمجهول ، كما أننا قد نبنيها للمعلوم بإسنادها لضمير الغائب ، ونحن نتحدث عن أنفسنا ، مثلا الترجمة الذاتية ، كقول طه حسين " كان الطفل الضرير ... " في روايته: "الأيام" ، و " حياة قلم " و " أنا " لعباس محمود العقاد و " زهرة العمر " لتوفيق الحكيم ، و " في الطفولة " لعبد المجيد بن جلون و" حياتي " لأحمد أمين ، و " كفاحي " لهتلر ... الخ .

و عبارة السيرة الذاتية في الغرب لم تتم صياغتها حتى متم القرن الثامن عشر الميلادي ، و قبل ذلك كانت كلمة مذكرات كثيرا ما تستخدم بديلا لها ، والسيرة الذاتية قد

تكون من قبيل الاعترافات لذلك تتبع الأسلوب السردي ، والدافع الرئيسي هو تخفيف الشعور بالذنب ، ومن أشهر الاعترافات : اعترافات القديس أوغسطين حوالي سنة 399 م ، وهو ما سماه أرسطو في الماضي بحب التطهير ، و قد تلت اعترافات أوغسطين اعترافات أخرى مثل " اعترافات تولستوي " و " اعترافات روسو " ، و " سيرة جون ستيوارت ميل " 1873 ، و سيرة " إدمونس " 1907 التي سماها " الأب و الابن " ، وسيرة رولان بارث بقلمه... الخ .

ج- الوظيفة التأثيرية في الرسائل المكتوبة :

نتحدث عن وجود هذه الوظيفة في الرسائل المكتوبة كلما كان الأمر يعني مستقبل الرسالة بشكل قوي، ومن خلال ما نراه ونسمعه من عبارات مباشرة عند استعمالنا للفظ المخاطب سواء كان فردا أم جماعة ، كما نلاحظ ذلك في الأوامر بصيغها المتعددة والنداءات بأشكالها المتنوعة ، وتظهر هذه الوظيفة في صيغها البسيطة ، فالنصوص تنص وتدرج مستقبل الرسالة مباشرة في عملية التواصل بحيث يحتل مركز الحوار الدائر في الرسالة المكتوبة ،ومن ثم ندفعه طوعا أو كرها للاهتمام بفحوى الرسالة .

سوف نتعرف على إجراء معتاد في نصوص إشهارية وسياسية ودينية، وفي الرسائل الخاصة و الحكاية السردية فيما يلي :

ج-1- الرسالة الإشهارية المكتوبة :

تدخل الرسالة الإشهارية المكتوبة ضمن الوسائل الإشهارية التي تشكل العنصر الأساسي في العملية الإشهارية ، فما هي هذه العملية ؟

صارت عملية الإشهار منتشرة في كل الأوساط سواء كانت متقدمة أو مختلفة ، و هي عملية تواصلية بلا منازع، فهي تنقل رسالة معينة للجمهور أو الفرد المستهلك عبر مختلف الوسائط الإعلامية من ملصق وجريدة وسينما وراديو وتلفزة ، وفق عناصر وإجراءات تحكمها ، ولقد تعددت تعريفات مصطلح الإشهار التي حاولت الوصول إلى مفهوم دقيق يحدد طبيعة الخطاب الإشهاري وتجلياته سواء على المستوى الدلالي والمعرفي أو تمثلاته الاجتماعية والاقتصادية، فعلى المستوى اللفظي لكلمة إشهار ، يعتبر أن المتداول حاليا هو ترويج بضاعة أو منتوج أو خدمة أو أفكار على نطاق واسع باستعمال وسائط معينة ، وفي الاصطلاح الفرنسي publicité تعني إلى حدود سنة 1789 ما يطبع من قوانين ومنشورات وأحكام قضائية ، وأطلق لفظ publicité في هذه الفترة على كل كاتب سياسي له معرفة بالقانون العام ، ولم تستعمل كلمة publicité بمعناها المعاصر إلا في

منتصف القرن 19 بمعنى إظهار مزايا شخص أو شيء معين ، وكان هذا المصطلح مرادفا لكلمة réclame أي إشهار المنتوج في نقطة البيع كما أنه تداخل مع مصطلحات أخرى كالعنوان adresse و البلاغ Avis و الملصق affiche و الإعلان annoce ، غير أنه تبين بأن الإشهار يقدم فكرة نشاط منسق و مدروس بخلاف المصطلحات الأخرى التي تعبر عن تقنيات مرتجلة .

أما في اللغة الإنجليزية، فقد ظهرت كلمة advertising منذ القرن 18 بمعنى تسجيل ملاحظات ولم تعرف معنى الاستمالة والتأثير إلا في بداية القرن مع ما شاهدته بريطانيا من تطور صناعي وتجاري و نمو ديموغرافي سريع .

أما بخصوص التعريفات الأخرى التي قاربت مفهوم الإشهار فنجد معجم Larouse يصف الإشهار بأنه مجموع الوسائل والتقنيات المستعملة للتعريف بسمة منتوج وحث الناس على اقتنائه وتوظيف خدمته .

غير أن التعريف الشائع بين المختصين هو العائد إلى جمعية التسويق الأمريكية القائل بأن الإشهار عملية أداء حصة مالية لوسائل الإعلام مقابل كسب حيز زمني في الوسائل الإعلامية يرجى منه استمالة الناس بمزاولة نشاط خاص أو تبني وجهة نظر معينة ، وهو تعريف يتماشى مع طرح " جمعية المعايير الأمريكية " بأنه وسيلة غير شخصية لتقديم الأفكار أو السلع والخدمات بواسطة جهة معلومة ، مقابل أجر مدفوع .

و مما سبق من تعريفات يتضح أن أوجه الشبه تنص على نشر المعلومات والبيانات عن المنتوجات والخدمات والتعريف بها عبر وسائل الإعلام المختلفة بقصد خلق حالة الرضا والقبول لدى الجمهور والتأثير فيه .

إن كل الإبداعات والابتكارات في النشاط الإعلاني سوف لن يكون لها تأثير في ذهن المستهلك إلا إذا تم نقل الإعلان إليه بصورته النهائية - أي من خلال الوسائل الإشهارية المختارة - و تحدد الوسائل الإشهارية في نوعين :

1 - الوسائل المقروءة والمطبوعة والتي تنقسم بدورها إلى إشهار الصحف والمجالات و الإعلانات البريدية و الإشهارية في وسائل النقل و الطريق .

2 - الوسائل المسموعة والمرئية وتنقسم إلى وسائل الاتصال السمعية البصرية المعروفة مثل : الإذاعة والتلفزيون والسينما ... الخ .

إن القانون محتاج للإشهار فلا يمكن بيع محجوز إلا بعد الإشهار ولا تطليق غيابي بدون إشهار ... الخ .

و من ضمن الرسائل الإشهارية المكتوبة التي تعتمد أسلوب التأثير في مستقبل رسالة النص الإشهاري الآتي :

احجز غرفة في فندق السعيدية

" هيا إلى المتعة على جنبات شاطئ السعيدية ، لا داعي لأن تزدحم أنت والأزبال على جنبات تلك الرمال ، نقاوة وصفاء ، وبحر هادئ و بلد طيب و رب غفور .

هلم إلينا فنحن بانتظارك ، نؤمن مزارك و ستعاشر خيارك ، و فندق السعيدية أيضا في انتظارك فبادر في مسارك " .

إنك تلاحظ في هذا النص مدى إدراج المخاطب في فعل الأمر الذي ابتدئ به في الإشهار : " احجز " ثم العبارات الأخرى الآمرة مثل : هيا ، هلم ، بادر ، ثم الضمائر المتصلة والمنفصلة مثل : أنت ، تزدحم ، انتظارك ، مزارك ، ستعاشر خيارك ، مسارك .

كما تلاحظ أن الأسلوب قد اتخذ صيغا مؤثرة فيها محسنات بديعية مثل الطباق و الجناس و الاستعارة ... الخ .

أضف إلى ذلك أنه من أجل إثارة الانتباه سوف تجد هذه الرسالة أو الخطاب مكتوبا على صفحة المجلة أو الجريدة أو أي دورية من الدوريات بخط جميل مطبوع بخط جميل وبحجم كبير وخاصة العنوان .

ثم ، تستغل الألوان كذلك في الطباعة إضافة إلى تعزيز ما كتب بشاهد صوري ، و من ضمن الخطابات الإشهارية التي تمرر الأفكار لاستقطاب الجماهير أيضا :

ج-2 - الرسالة السياسية المكتوبة :

لن نعالج هنا مفهوم السياسة بقدر ما سوف نركز على كيفية تمرير الخطاب السياسي في الرسالة المكتوبة ، إن الخطاب السياسي الحزبي يستند أساسا إلى المبادئ الإيديولوجية التي تحكمه ، ولا شك أن ممثل الحزب أو الصحفي المنتمي للحزب يكرس خطابا يبنيه مما ترسب في قناعته ومعتقداته ، و يحاول جاهدا تمرير رسالته إلى الآخرين بأسلوب التعدية ، ومن ثم يلجأ إلى أسلوب الإقناع والحجاج والجدل والبراهين وقد يميل أحيانا أخرى إلى المغالطة والتضليل .

والأمثلة على ذلك كثيرة خصوصا إذا تعلق الأمر باستقطاب الجماهير والبحث عن قاعدة حزبية لكسب الأغلبية المؤدية إلى كسب الرهان السياسي ، ومن جملة ذلك ما قيل في المنشورالموالي :

" إننا نريد أن نغير الحياة بأن نعيد المسؤولية لكل واحد منا في مضمار عمله ، وأن نخلق الظروف الضرورية من أجل محق الاحتقار واللامبالاة في العلاقات الإنسانية ، من أجل إيجاد سكنى لكل متسكع ومدرسة لكل جاهل ، وطرقا لكل

تائه ضائع ، ستكون الخدمات الاجتماعية طوع يديك ، والأنشطة الثقافية المفيدة والترفيهية ملء عينيك ،فنم قريرا فما بالقلب أراق .
فعلا ستأخذ حقك من الراحة و الحرية ، ومن أجل هذه الغاية تابع معي إلى النهاية ، ففريق الحزب الاشتراكي يبحث لك بالتأكيد ، وبكل عزم وصدق عن الحق والعدالة و التخلص من النذالة ،عن الاحترام المتبادل ، وعن الحرية الفردية والجماعية التي سيضمنها للجميع .
فإذا رأيت أن فريق الحزب الاشتراكي قد شق طريقه نحو هذه الأهداف النبيلة فإننا ندعوك لقراءة برنامجه ، و الاتصال عاجلا بأقرب مقر له ، و نتمنى أن نسعدك بالانضمام إلينا لنحقق جميعا ما نصبو إليه من اشتراكية و ديمقراطية و حرية . "
اشتراكي باريس
بهذا الخطاب و بغيره تجد أن تلك الأهداف النبيلة المسيطرة تثير انتباه القارئ (تغيير الحياة نحو الأفضل ، العلاقات الإنسانية ،الخدمات الاجتماعية ، الترفيه عن النفس ، الحرية ، الصدق ، العدل و التنمية) كلها عبارات إيجابية ، ثم تجد عبارات تدعوك لأن تحكم لتتخذ موقفا من مثل : (فإذا رأيت ... فإننا ندعوك ... و الاتصال ...) و يتم ختم الخطاب بعبارات أخاذة تسطر حسن النية والمشاعر النبيلة ، ثم إن تحكيمك لمخاطبك يشعره باتزانه ومكانته الاجتماعية والثقافية .
إن نصا مكتوبا -وعلى الخصوص في المجالات المهنية كالصحافة والإشهار- يهدف أن يخاطب جمهورا معينا من خلال معيار محدد ، فالقارئ لن يهتم بقراءة الموضوع إلا إذا كان يعلم أن الخطاب موجه إليه، مما يدعو المرسل الكاتب أن يكون عارفا - و لا شك - بالمستقبل القارئ ، و باهتماماته و مشاغله في الحياة و بثقافته ، لذا سيستعمل المرسل الكاتب مستوى من اللغة يلائم ما لدى مخاطبه ، و بهذا يظهر دور الجانب النفسي و الاجتماعي في الحدث اللغوي و في عملية إنجاح التواصل بين الفرد و الجماعة و بين الجماعة و الجماعة بمراعاة منطق التواصل الذي تتحكم فيه تلك المتغيرات التي درسناها في ما سبق ، و بدون شك فالأمر لا يتعلق بالخطاب السياسي فقط بل يشمل حتى رسالة الخطاب الديني و الوصايا ، فلنرى ذلك :

ج -3 رسالة الخطاب الديني و الوصايا :

يستأثر الخطاب الديني بحظ وافر في الحض على جانب العبادات و التمسك بالمعاملات التي نص عليها الشارع الحكيم ، فترى في نصوصه ما يأمر به و ما ينهى عنه و ما يحبذه ، و يستحسنه و يدعوك إليه من معاملات حسنة و أخلاق نبيلة ، كما ينص من جانب آخر على ركن العبادة و توحيد خالق الكون ، و في ديانات

أخرى على التعددية و نبذ الألوهية وفي أقصى حالات العودة إلى الطبيعة ، و لنا في رسالة لقمان " الوصية " لابنه و هو يعظه في قوله تعالى كفاية : " إذ قال لقمان لابنه ، و هو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، و وصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي و لوالديك إلي المصير ، و إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما و صاحبهما في الدنيا معروفا ، و اتبع سبيل من أناب إلي ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير .
يا بني أقم الصلاة وامر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، و لا تصعر خدك للناس ، و لا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، و اقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات و ما في الأرض و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ، و من الناس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير" [1] .
نلاحظ أن جملة من شروط الرسالة التأثيرية قد اصطبغت بها هذه الرسالة مع تنويع الخطاب، من مخاطبة الفرد إلى مخاطبة الجماعة رغم أنها وصية من لقمان لابنه ، و قد وردت مكتوبة إلينا ، في حين أن إنشاءها كان شفويا بدليل قوله تعالى : " و هو يعظه " .

كما أن هذه الرسالة تراوحت في أسلوبها و صياغتها بين النداء و الأمر و النهي ، و من جملة ذلك : " يا بني " هذا النداء الذي تكرر ثلاث مرات مما يظهر أسلوب التأكيد و الإلحاح الداعي إلى العمل بالوصية ، ثم نجد أفعال الأمر تتوالى بكثرة و من جملتها : " اشكر لي ... و صاحبهما ... و اتبع ... أقم الصلاة و امر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما أصابك ... و اقصد في مشيك و اغضض من صوتك " .
كما تجد نواهي كثيرة منها : " يا بني لا تشرك بالله ... فلا تطعهما و لا تصعر خدك للناس و لا تمش في الأرض مرحا " .

كما أن الرسالة تضمنت جانبا يخص توحيد الخالق بما يتطلب ذلك من عبادة و إخلاص و نبذ ما دونه والامتثال لأوامره ونواهيه ، ثم جانب المعاملات التي تتطلب

[1] سورة لقمان الآية من 12 إلى 19 بقراءة ورش من القرآن الكريم .

مراعاة الجانب الاجتماعي في التخلق بالسلوك الحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و الانتصار للحق و العدل والشيم النبيلة .

إن هذه الرسالة الوصية امتازت بأسلوب رائع في الإقناع ، بحيث شرع لقمان في وعظ ابنه بالإيمان بالله وحده انطلاقا من مفهوم الأبوة والبنوة ،ولشدما نجد الجدال قائما في كثير من السور القرآنية إما بين الأب و ابنه ، و إما بين الابن و أبيه- وهي أمثلة حية مستمدة من الحياة الواقعية ومن قصص النبياء- و يتجلى ذلك في جدال نوح لابنه العاصي الذي لم يركب معه السفينة بعد الطوفان ثم جدال إبراهيم مع أبيه الكافر في عبادة الأوثان و الأصنام، و لقد كان في قصصهم آية ، ثم إن لقمان الحكيم قد خير الابن بعد أن أوصاه بطاعة والديه -و إن كانا مشركين- بأن يدعهما و شأنهما ، و يعاشرهما في الدنيا بالمعروف إحسانا لهما ، فهو - إذن - يحضه من خلال هذا الأسلوب على الإيمان بالله و بالتالي مهد لما سيلي قوله من وصايا أخرى تهم عبادة الله من حسن المعاملة مع الناس ، و ختم ذلك بشكر من أنعم على العالمين رغم كفرهم لكنهم يجادلون في الله بغير علم ، و لا حجة و لا دليل ، و هي طريقة مجدية في الإقناع و الحجاج.

ج-4 - الرسالة ذات الخاصية المهنية :

تجد في هذه الرسالة مجهودا للوئام و التلاؤم مع مستقبل الرسالة سواء تعلق الأمر بخطاب موجه من آمر ذا سلطة ومكانة إلى مأموره أو العكس ،أو من مؤسسة تجارية إلى زبون ... الخ .

إن هذه الرسالة المكتوبة تحمل - بلا شك - أخبارا إليه لكنها تريده أيضا أن يتأثر أو ينفعل عند قراءتها .

و مما يشترط في نص هذه الرسالة :

1 - الوضوح والتعبير المضبوط وبعض أشكال تقديمها ، كما تحتاج لعبارات مؤدبة معروفة بحسب مقام خطاب المرسل أو المستقبل .

2 - يجب ذكر كاتب الرسالة ومعلومات بسيطة عنه ثم تذكر موضوع الرسالة قبل توجيه الخطاب أو الشروع فيه ، ثم نبدأ بكتابة رسالتنا في وسط الصفحة موجهين خطابا لمن يعنيه الأمر ، مع ذكر مكانته التي ذكرناها سالفا في أعلى الصفحة ، مثل : (سعادة الرئيس ... سيدي المدير ... الخ) ثم نتعرض لموضوع الرسالة بعدها .

3 - ثم تنتهي رسالتنا بعبارات مؤدبة لا نحتاج معها إلى ذكر العبارات التالية مثل : في انتظار ردكم ... أو نتمنى أن ... الخ .

- نخاطب شخصا رفيع الدرجة أو كبير السن بإظهار مشاعر الاحترام و المودة و الإخلاص و التحيات المحترمة .

- و نخاطب شخصا لا نعرفه أونعرفه قليلا بالتحيات المميزة و المشاعر المميزة أيضا .
- و إذا كان المخاطب أقل منك رتبة تخاطبه بنفس ما تخاطب به سويك .
- إذا كان المخاطب سيدة ، تعبر آنئذ عن مشاعر الاحترام .

أما المرأة فلا تعبر عن مشاعرها للرجل بل لا تعبر إلا عن الاحترام ، عدا إذا كان شخصية بارزة ، و هذه التحيات تنحصر في جمل من صنف : " تفضلوا - سيدي - بقبول ... تفضلوا لو سمحتم بقبول فائق الاحترام ... أرجوكم أن تتقبلوا ... الخ "

و من خلال ذلك تعيد ذكر مرتبته الاجتماعية أو الإدارية التي بدأنا بها في أعلى الصفحة ، و من ثم فعبارات اللياقة و الأدب ننهي بها خطابنا بقرب التوقيع أو الإمضاء .

ج-5 - الرسالة الحجاجية الإقناعية

يكتسي الحجاج أهمية بالغة في التعبير عن الآراء و دحض الرأي المعارض و تفنيده ، إننا نوجه عنايتنا في هذه الرسالة إلى مستقبلها و أكيد أننا سوف ننتظر حصول تأثير عليه إلا أن المدة قد تطول في التواصل الكتابي خلاف ما نجده في التواصل الشفوي ، و هذا ما أطلقنا عليه في موضع آخر بالاستجابة أو رد الفعل ، و لشد ما يظهر ذلك في كل آن و حين في حديثنا اليومي وفي المرافعات القضائية والشجارات، و لكي يصل الكاتب - خلاف المتكلم - إلى هدفه من رسالته و هو الإقناع ، من اللازم أن يستعمل طرقا في الحجاج متعددة مع الإلمام بمنهجية الحجاج و كيفية بنائه على مستوى الأسلوب بالربط بين الفقرات والأفكار، والبحث عن الأدلة والبراهين المختلفة مع إرادة إيصال المعلومات الكثيرة مصحوبة بالرغبة في تحويل الرأي وإدماج القارئ في الموضوع.

إذن فالخطاب الإشهاري و السياسي و الديني و كذا المهني يفرض استخدام البراهين و إعداد الحجج و ترتيبها على الشكل التالي :

- أن نكتب ما هو أهم في الموضوع المناسب ، و قد اختلفت الآراء في ذلك فالتفكير العربي يقدم ما هو أهم و التفكير الغربي يؤخره و يبرر ذلك بكون الأهم آخر ما يبقى في ذاكرة القارئ .
- تتبع تسلسل الأفكار بدقة أو بانتقاص .
- ضبط أسلوب التقديم و العرض بالعودة لأمثلة موضحة حية و بأسلوب احتوائي... الخ.

وهناك طرق أخرى ومناهج حديثة للإقناع ندرجها فيما يلي:

+التصميم بالتجميع Le plan par regroupement

و يتم ذلك بتصنيف الأفكار المنتمية لنفس الحقل ، كالحقل الاقتصادي أو النفسي أو الاجتماعي أو التاريخي ... الخ .

و مركز الثقل بالنسبة للمخاطب المهتم بالشؤون الاقتصادية يكون الحجة الأهم ، و الأفكار الخاصة بالجانب النفسي قد تشكل الحجة الأهم أيضا ، و هكذا دواليك يتم تقديم الحجج و الأفكار تبعا للمواضيع و الاهتمامات المتناولة .

+التصميم بالمعارضة Le plan par opposition

يتمحور هذا التصميم حول دحض و تفنيد نقطة تلو الأخرى في طرح ما ، و هو الطرح الذي قد يقدمه خصم لك ، و هو مكون من سلسلة اعتراضات محتملة لطرحك الخاص ، لذلك تعمد أولا إلى :

تقديم طرح الخصم

ثانيا - تفنده و تدحضه و تعارضه نقطة بنقطة .

ثالثا - تعرض طرحك البديل .

و في حالة ليس فيها طرح بديل تعمد أولا إلى :

تقديم طرح الخصم

ثانيا - تفنيد اعتراضاته الممكنة و المحتملة

ثالثا - تعرض الإيجابيات و السلبيات في طرحه .

ج-5-1 الأخطار المحدقة بكتابة الرسالة الحجاجية :

- التناقض الضمني خاصة في المواضيع التي فيها خلاف ، نتجنب هذا الخطر بضبط وجهات النظر أو المستويات المقبولة أو المعتبرة .

- الخشونة و الشطط في التعبير لن يخفي الحجج الواهية و قد لا تكون هناك حجج ، و هو ما يعطي انطباعا للمتلقي بأننا نريد أن نقمعه عوض أن نقنعه .

- إن الآراء المعتدلة و التردد في الأخذ بها و الأجوبة الغامضة تترك القارئ غير راض تماما ، ويتجلى ذلك في المثال الموالي:

تصميم محاضرة فيها حجاج ألقاها جون فرستيي Jean Forestier سنة 1956 على الاتحاد الفرنسي العمالي ، و كان عنوان المحاضرة كالآتي : هل اندثر الحماس في العمل ؟

المقدمة : هناك تصدع عميق بين واقع العالم المتقدم و الصورة التي بحوزتنا عن هذا الواقع، و هذا صحيح بالنسبة للعمل .

تعريف مصطلحات " العمل " و " الحماس " و التناقض الموجود بينهما و التفريق بين العمل و الحياة .

- الأسباب القبيحة للتذمر الاجتماعي : إن العمل شاق و هذه الظاهرة ليست جديدة ، و المشكل قائم ، فهل يمكن للإنسان أن يوافق بين حياته و عمله ؟

- العمل المقسم مختص جدا و لا يمكن للإنسان أن يستوعب إجراءات الإنتاج لذلك لا يفهمها ، لكن هذا السر الخفي يثير في كثير من الأحيان الحماس و ليس الضغينة ، و من جهة أخرى فالحماس مفقود أيضا في العمل غير المقسم .

- الأجور زهيدة ، و القدرة الشرائية ضعيفة ، كما أن التقدم بمستوى الحياة جد واضح ، و الحماس في العمل يكون دائما عند الشعب الذي يكون مستوى المعيشة عنده منخفضا .
- مستويات المعيشة متفاوتة و هكذا كانت دائما .

الأسباب الحقيقية للتذمر الاجتماعي : تكمن في فقدان معنى العمل .

الاقتراحات :

- المشكل سياسي و اقتصادي .
- يجب أن تتساوى الشروط الاقتصادية و الثقافية .

بتحقيق الانخراط التام للأفراد في المجتمع

- يجب أن يراعى في العمل القدرات الجسدية و النفسية للإنسان .
- يجب أن نكشف للإنسان وحدة حياته .

مقتطف من كتاب أفكار ناضجة

Jean Forestier, Paris, Gouthier

فالتصميم إذن بسيط ويظهر ذلك في:

عرض المشكل و طرحه ،و تفنيد الأجوبة السياسية المطروحة حاليا: ثم عرض الأجوبة الحقيقية و الحلول المقترحة .

و انطلاقا من نهج الكاتب يمكننا :

- ضبط الجواب الصحيح
- محاولة تفنيد ردود الكاتب (ولا يمكن أن نفعل ذلك إلا إذا فهمنا إلى ماذا يستند في دعواه و بالجملة، هل حقيقة أن ظروف العمل و التفاوت الاجتماعي كانا دائما موجودان مما يدعو إلى النفور من العمل؟) .

و في كل الأحوال يجب على كاتب الرسالة أن يضع نصب عينيه شيئين اثنين :

- أن يكون واضحا بمعنى ألا يستعمل أسلوبا مغريا مع توظيف الحجج و الشواهد و الأدلة .

إن هذه الوسائل و التقنيات ستتحول بسرعة إلى خطط منهجية ، و نرى أن التقدم الحاصل في علم النفس الاجتماعي، ووسائل الإعلام أديا بالفعل إلى استعمال نسقي لهذه الخطط الهادفة إلى إقناع الناس بدون أن يشعروا بذلك ، فيصير الإعجاب و الاقتراح و الإقناع مكرا وتضليلا ومغالطة ، و بذلك تجاوز مجمع التبشير - في المسيحية مثلا- الإشهار في دوره الإعلامي إلى سلوكيات تنتمي إلى فعل المنعكس الشرطي [1]. لذلك نجد أن فعل إيحاء

[1] الفعل المنعكس الشرطي في علم النفس السلوكي يعني أن فعلا ما أو سلوكا ما مقرونا بشيء نحبه بالتكرار، وقد نستغني عن هذا الشيء المحبوب و نبقي على الحافز لتحصل على الاستجابة .

الصور و الألوان و الأشكال و الكلمات و النشيد الوطني و العلم الوطني و الشعارات لا تصلح لأن نبرهن بها ، إننا لا نقصد أن نقيد أو نحصر الإشهار و لا التبشير المسيحي، و لا أن ندين دورهما الإعلامي ، لكن علينا أن ندرك الوسائل المستعملة ، و بكلمة أوضح أن نعلم كيف نقرأ رسالة إشهارية أو سياسية أو دينية و بالتالي نعرف كيف نستخرج منها الخبر ، و نضبط قيمة الحجج و ندرك آثار الإيحاء .

و في الأخير علينا أن نؤكد ثانية على مستقبل الرسالة لأننا نريد أن ننجح في عملية التواصل معه ، فالتواصل في حقيقته هو معرفة وجود الآخر ، و من جهة أخرى إيلاءه احتراما يليق به .

ج-2-5 - السرد Le récit :

في مجال السرد توجد تقنيات أيضا تسمح لنا بجذب انتباه القارئ والتأثير فيه بشكل من أشكال التأثيرات الممكنة ، ومثال ذلك : الانتظار و المفاجأة ... الخ .

إننا لا نراعي السرد الأدبي الخالص بل السرد المستعمل في مجال الإعلام : كالسرد الصحفي و الإشهاري ... الخ .

إن هدف الكاتب هنا هو أن يجعل من تلك الأخبار مأساة بالرجوع إلى مهارات استعملها القاص (أو القصصي) أو الراوي (أو الروائي) مثل :

- تقطيع الحدث إلى فصول أو حلقات أو مشاهد .
- تقييم الأشخاص و الديكور و الظروف .
- الإحاطة بالتغيرات الفجائية مثل انقلاب الدور و المفاجأة و حل ما انعقد ... الخ .

تأخير الحل بالاعتماد على التشويق و التعليق المؤقت ... الخ .

و هكذا فالأحداث المتنوعة والوقائع السياسية والاجتماعية ،ومؤلفات السيرة الذاتية للشخصيات كلها تخضع في الغالب لكيفية تشكيل السرد ، إن موضوعية الإخبار تعاني هنا، لكن مصلحة القارئ مصانة ،ومثال ذلك:

" لقاء سالفادور "

لن تبق" بولين " لوحدها مدة طويلة في باريس، هذه الفتاة الرقيقة المبادرة في حبها الصارمة في تعاملها ذات الوجه الجميل، لا يمكنها المرور في أي شارع دون لفت الأنظار، خاصة بطريق " السوربون " فهي تقيم و تدرس هناك، و هناك أيضا التقت ب"سالفادور".

هي صديقة لهذا الكاتب العبقري ،لكنه شاب منشغل ذو لون شاحب ، أنيق ووسيم و خفيف الظل محتال .

الأحقاد و الأحزان كانت كافية لإذابة حب " بولين " علاوة على اغترابها ووحدتها ، ففي الصيف اكتمل الباقي ، فقد وقعت في شراك أول معترض لطريقها . كان هذا الشخص ابنا

لأبوين ثريين ، مزارعين في جنوب أمريكا ، و لم تكن باريس بالنسبة له سوى مرتعا للتسلية .

ذهل بهذه الأجنبية الغريبة الأطوار و الباهرة الجمال ، تسلى بها لبعض الوقت، و حين أدرك أنها وقعت في حبه وشراكه اختفى ، و ترك لها برقية مكتوب فيها أنه مصاب بالتيفويد، و هو الآن معزول في غرفة علاج لردح من الزمن .

طفقت " بولين " تنتظر ، و لشدة ولعها به لم تشك في الأمر ، حتى ذاك اليوم الذي حطم فيه كبرياءها و صدم قلبها ، حين سقط نظرها على " سالفادور " و هو يتجول مرحا تحت الشمس متأبطا فتاة من خصرها .

دومنيك أربان

Dominique Arban : Elle, 10 Janvier 1972

فالحكاية المسرودة هنا ملخصة في عنوانها ، لكن أسباب المأساة لم يتعرض لها الكاتب بعد، لذلك يجب أن يتتبع القارئ الحكاية إلى النهاية.

- لقد تم عرض شخصيات الحكاية و تقييمهم في الفقرتين المبتدئ بهما .
- ثم تطرق الكاتب للحدث و هو لقاء " بولين بسالفادور " .
- انقلاب الحدث من لقاء إلى فراق فجائي ، مما يدعو القارئ للتساؤل و التشوق للحل .
- و يفاجئ الكاتب القارئ بالنتيجة المخالفة لما كان يعتقد أول وهلة ، و هو يتابع الحدث ، مما يحدث تأثيرا بالغ الأهمية عليه حينما ينكشف السر .

د-الوظيفة الانتباهية في الرسائل المكتوبة : توطئة للتواصل أو تيسيرله :

تذكير بالقاعدة : كل ما يهدف للفت الانتباه - في الرسالة - من أجل إقامة التواصل و الحفاظ عليه أو لربما قطعه ينتمي للوظيفة الانتباهية ، فعناصر التواصل - في رسالة انتباهية - هي التي تحقق هذه الوظيفة، وتوحد القنوات المادية والاتصال النفسي .

و ندرك أنه من الصعب في الكتابة أن نحقق اشتغال القناة المادية ، لأن التواصل هنا يختلف علاوة على الاتصال النفسي، ولأن المرسل هنا لا يستطيع أن يراقب انتباه المستقبل القارئ للرسالة .

و رغم ذلك هناك بعض المهارات التي نستطيع بها أن نيسر التواصل أو أن نثيره أو أن نتابعه ، فتيسير القراءة يجعل النص سهل الفهم في مدة وجيزة ، و لكي يحقق المرسل هذه الغاية يستند إلى عاملين اثنين لتيسير قراءة النص و هما : الكتابة و الطباعة .

د-1- الكتابة L'écriture

إن ما يهم أن ندرسه هنا - ليس الكتابة المخطوطة - لكن مشكلة اختيار الكلمات و البنيات الجميلة .

و هناك - حاليا - أبحاث قيد الإنجاز هدفها أن تضبط بطريقة ما يمكن أن نسميه : " قوانين تيسير قراءة النص " ، ولدينا حاليا بعض النتائج المحصل عليها من مثل اختيار الألفاظ ، و لقد تقرر أن الكلمات التي نذكرها بسرعة هي :

- الكلمات القصار (فالكلمات الطوال تحتاج كبير عناء في قراءتها) .
- الكلمات القديمة (فالكلمات الجديدة لا تفرض وجودها بسهولة) .
- الكلمات الأصول أو الجذرية (فالعمليات اللصقية من سوابق و لواحق و تركيب إضافي أو مزجي أو حذف أو قلب أو إبدال أو إعلال يتعب القارئ و يؤديه) .
- الكلمات من صنف المشترك اللفظي المتعددة المعاني (فكلما كانت معاني كلمة ما كثيرة كلما كان استعمالها متداولا بشكل أكبر و يسهل قراءتها و مثال ذلك :

- ضرب علي أخاه .
- ضرب الملك السكة .
- ضرب محمد لنا مثلا ...

فإذن يستمد القارئ - رغم تردده في الحصول على المعنى - دلالة الكلمة من السياق اللغوي .

و في النتيجة إذا أردنا أن نؤلف رسالة مقروءة بسهولة ويسر، يلزمنا أن نتخلص من الكلمات الطوال و الكلمات المركبة ، و من جهة أخرى الكلمات التي تشتمل على شحنة عاطفية تؤثر على انتباه القارئ ، ويعني ذلك مفردات الخطاب الشخصي (الحقل المعجمي للأسرة ، للأطفال ، للشخصية ، للنوع البشري ... الخ .)

و في الختام فإن بعض الكلمات المكررة يمكن أن تسهل عملية التواصل ، والنص الذي يحذف منه هذا الإطناب يصير مختزلا، والقراءة تصير بطيئة ، وخزن المعلومات في الذاكرة يصير صعبا ، وهكذا فإن ما يهمنا هو أن نكرر بعض الكلمات الأساسية من أجل فهم الرسالة ، وضبط تمفصلات الفكرة والجملة مع إضفاء الطابع الشخصي على الرسالة ،ومن ثم فإن الحذف والتشطيب يضعف بسرعة انتباه القارئ ، كما أن اختيار بنيات الجملة المناسبة ليس بقليل الأهمية ، إنه من اللازم الانكباب على مقدرة القارئ في إدراكه و حفظه المباشر لمجموعة من الكلمات ، إن هذه القدرة تتراوح حسب التجربة و الثقافة من 10 كلمات إلى 30 كلمة ،وبالفعل فالأمر يتعلق بصنف الرسالة التي ستؤلفها إضافة إلى الجمهور الذي سوف تخاطب، بل إننا يجب أن نقوم بما يلي :

- أن نركب جملة نستطيع التلفظ بجميع ما فيها .
- أن لا يتعدى طول الجمل قدرة القارئ المعين فيما سلف الذكر .

- الكلمات المستقلة نحويا لا يجب أن تكون متباعدة الواحدة عن الأخرى .
- يجب أن توضع الكلمات الهامة جدا في مقدمة الكلام من أجل فهم الرسالة (تقديم الكلم الهام) .
- يجب أن تكون البنية العامة للجملة معروفة حتى يتمكن القارئ من احتمال طبيعة الكلمات قبل قراءتها ، في حين أن تركيبا شادا أو جديدا مبتدعا يسيء إلى تسلسل الفكرة في الجملة ، كما يسيء لقراءتها وعلى هذا فإن التكرار والتلميحات تسهل عملية القراءة .
إن هذه القوانين تهدف إلى تطوير رسالة بسيطة تقبل الانتشار بسرعة وترصد المنفعة .
إن بعض الرسائل العلمية والفلسفية والأدبية لن تخضع لهذه القوانين وإن حدث هذا الأمر فستشعر بأنها ضعفت ، ورغم ذلك -وطبقا لهذه القواعد- أعيدت كتابة نصوص معقدة من أجل أن تصير مقروءة ، وعلى نحو من ذلك أعيدت كتابة بعض الأعمال الأدبية من أجل الأطفال .

د-2-الطباعة Typographie :

إن قارئا معينا لن يشاهد (أو يدرك) فقط أحرفا متقطعة بل كلمات و أيضا مجموعة من الكلمات .
فمن وجهة النظر الطباعية فإن قراءة الكلمات يتم تيسيرها على الشكل التالي :
- باستعمال الحروف المستقيمة و ذات الحجم المتوسط .
- باستعمال طول متوسط في الخط لا هو بالممتد و لا بالقصير .
- باستعمال فراغ بين السطر مناسب، خلاف ذلك فإن الأسطر المتزاحمة تزعج القارئ ، كما أن تشكيلة الصفحة La mise en page يحدث مشاكل متعددة ، و معقدة ، إنها تمكننا من جلب انتباه القارئ بالاستناد إلى تجميل يحتوي على تلوين (مثل الرسالة الإشهارية) ، كما أن إحكام وضع المعلومات في المكان المناسب يسهل عملية انتقاءها و قراءتها في الصحف و الدوريات .
و بصفة عامة فإن الكتابة و الطباعة و تشكيل الصفحة تهدف كلها لتسريع القراءة وانتقاء المعلومات بسهولة و يسر و مثالنا على ذلك :
- النص الإداري .
- السيرة العلمية .
فالنص الإداري مثل القوانين المنظمة لسير المصالح بما تمتاز به من ترقيم وترتيب بحسب الاختصاصات ، وفي كل اختصاص تجد طريقة لعرض القوانين من الفصول

إلى البنود إلى الفقرات وقد تحيلك فقرة على بند وقد يحيلك بند على فصل أو على فصول بحسب ترتيبها .

السيرة العلمية و كيفية صياغتها وهي المختصرة في حرفين هما : C.V و الملخصة لحياتك العملية والعلمية بدءا بعرض اسمك ونسبك ومكان ازديادك وحالتك المدنية (أأعزب أم متزوج ؟ وهل لك أطفال ؟... الخ) ثم تذكر الشواهد المحصل عليها وحالتك المهنية و الإدارية المنتمية لشغل معين ، و تعد ذلك في شكل جداول مقسمة إلى عناوين مثل :

- الاسم : ..... .
- النسب : ..... .
- تاريخ و مكان الازدياد : ..... .
- العنوان الشخصي : ..... .
- الشواهد المحصل عليها : ..... .
- التداريب : ..... .
- التجربة : ..... .
- الحالة العسكرية : ..... .
- الحالة الإدارية الحالية : ..... .
- تكوينات أخرى إضافية : ..... .

إن طريقة عرض هذه المعلومات هو المهم بحيث يعدها بطريقة تيسر القراءة ،والعودة إليها كلما تطلب الأمر ذلك.

ه-الوظيفة البيانية و التعابير الكتابية المنسوبة إليها :

إن الوظيفة البيانية هي لغة على لغة إنها وسيلة علمية ، ضرورية كلما احتجنا للتعريف أو التعبير عن أمر ما من أمور المظهر اللغوي (نظام العلامات اللغوي) ، فإن هذه الوظيفة تظهر أساسا على مستوى الكتابة في النصوص التفسيرية أو التربوية ، إنها لا تبرز فقط في الخطابات العلمية بل كلما كان الحديث عن الدلالات الخاضعة للغة أو لغيرها من الأنظمة التواصلية الأخرى .

و هكذا بين " رولان بارث " أن النصوص الموضحة لصور جرائد الموضة تشكل أساسا بيانا لنظام اللباس .

مثال ذلك : موضة Le smoking : فستان طويل ضيق الحجم له مسلك واحد (أي صدفة واحدة) و مفتوح من الظهر ، و من جانبي سرواله الواسع هناك عصا مخيطة من ثوب الساتان sitin .

فهذا النص يشرح صورة و يبينها و يجلب انتباه القارئ لتفاصيلها ، إنه يشكل نظام علامات لغوي مغاير يشرح علامات نظام الموضة ، ففي هذه الوظيفة بالذات ستظهر مهارة التعبير المتجلية في :

1 - التعريف La définition

2 - التحليل : L'analyse

3 - التفسير : L'explication

4 - التعليق : Le commentaire

ه-1- التعريف : La définition

أنواع التعاريف بالجملة - كثيرة - فهناك التعريف بالماهية ، و التعريف بالمثال ، و التعريف بالضد ، و التعريف بالوظيفة ، و التعريف التاريخي ، و هذا ما نراه واضحا حينما نتصفح أو نبحث عن تعريف في المعجم .

نطلق لفظ الصناعة المعجمية Lexicographie و نقصد بذلك تقنيات المعاجم فمن مهام المعجمي أن يحل مشكلة التعريف ، كيف نعرف كلمة ما ؟

وبالجملة يمكن أن نميز بين نوعين من المعاجم تتمخض عن نوعين من التعريفات :

- المعاجم الموسوعية التي تختار أن تعرف انطلاقا من الأشياء التي تحيل عليها الكلمات و تعطينا معلومات عنها .

- معاجم اللغة التي ترتبط بالكلمات بشكلها وأصلها واستعمالاتها خلافا لما سبق .

ففي المعاجم الأولى نجد تعريفات وصفية مضبوطة تحرص على تجميع الخصائص المميزة للشيء منطلقة مما هو عام إلى ما هو خاص .

مثل قولنا :

الأسد أنثاه اللبؤة ، من الحيوانات الكبيرة المرضعة الآكلة للحوم له وبر متوج على رأسه بلبدة أو عفرة ،و يعيش الآن في سفانا إفريقيا بعدما كان يعيش في الشرق الأوسط و كذا في أوربا ، يفترس ليلا الغزلان و الزواحف و الزرافات، و طوله متران، و حياته تدوم 40 سنة ،أما صوته فإنه الزئير .

فإذن تلاحظ أننا انطلقنا من الخصائص العامة إلى الخاصة ، من الحيوانات المرضعة الآكلة للحوم إلى صوته .

و في الحالة الثانية أي في حالة التعريف اللغوي فإنه يعوض التعريف الوصفي و يكون مصحوبا بالتعريف الاسمي و المرادفات اللغوية و الأضداد و يتم إكمال ذلك بأمثلة تحدد كل استعمال لتلك المفردات على حدة .

مثال ذلك لفظ :

سائل : صفة لجسم يسيل أو جار فالدم سائل ، والغاز يمكن أن يتحول إلى الحالة السائلة (ضد : غازية أو صلبة) مثل :هذا المرق سائل أو جار (مرادف لمائع) الأطعمة السائلة تعني يمكن طبخها .

و بعض المعاجم تمدد معاني مجال معين بإحاطة المعنى الأصلي بمصطلحات مشتتة أو مركبة كأن نضيف لمعنى السائل : أن كل سائل يأخذ حجم الإناء الموضوع فيه ، و أن تحول السائل إلى جامد يدعى بالتجميد ، و تحويله من سائل إلى مبخر وتدعى هذه العملية بالتبخر ... الخ .

و يمكن أن نلاحظ أيضا المعلومات المصاحبة التي يعطيها المعجم مثل كيفية النطق والشكل النحوي والاشتقاقي أو التاريخي كما أن الكلمات المتقاطعة هي أيضا نوع من المعاجم و انطلاقا من بعض التعريفات توجد كلمات نضعها في الشبكة .

و هناك تقسيمات أخرى لنوعية المعاجم أتت بها الدراسة الدلالية للمعنى ، فدراسة المعنى تتم من جانبين : الجانب الوصفي الثابت والجانب التاريخي المتحرك المتطور ، كما تدرس معاني الكلمات في لغة من اللغات ، وفي فترة من فترات استعمالها في مكان محدد ومجال محدد ، و تدرس أيضا من الناحية التطورية معاني الكلمات في لغة من اللغات أي من عصر إلى عصر حسب مراحل تاريخها ، و تجمع هذه المعاني كلها في شكل معاجم ، و المعاجم أصناف منها :

- المعاجم أحادية اللغة و ثنائيتها و ثلاثيتها .
- معاجم للناطقين بلغة المتن ، و معاجم للناطقين بلغة الشرح .

معاجم للغة المكتوبة و معاجم للغة المنطوقة .

- معاجم للتعبير و أخرى للفهم .
- معاجم لاستعمال الناس و معاجم للترجمة الآلية .
- معاجم تاريخية و أخرى وصفية تزامنية .
- معاجم لغوية و معاجم موسوعية .
- معاجم عامة و أخرى متخصصة .

و مما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقا بين مصطلحين متقاربين عند اللسانيين بحيث يميز هؤلاء بين مصطلح Lexicologie ومصطلح lexicographie ، ذلك أن الأول يعني علم المعجم بما يعنيه ذلك من أبنية الألفاظ و دلالتها وإعرابها ، و الثاني يعني الصناعة المعجمية .

و هكذا فعلم الألفاظ يدل على دراسة المفردات و معانيها في لغة واحدة أو في عدة لغات ، كما يهتم أساسا باشتقاق الألفاظ و أبنيتها و دلالتها المعنوية و الإعرابية و التعابير الاصطلاحية و المترادفات و تعدد المعاني .

أما الصناعة المعجمية فتشتمل على خطوات أساسية خمس وهي : جمع المعلومات والحقائق ، واختيار المداخل وترتيبها طبقا لنظام معين ، وكتابة المواد ، ثم نشر النتاج النهائي الذي هو المعجم ، والذي يمكن تعريفه على أنه كتاب يحتوي على كلمات منتقاة ، ترتب ترتيبا هجائيا ، و تكتب كتابة إملائية صحيحة حتى يتمكن القارئ من قراءة صحيحة مع ذكر الجانب الصرفي الذي تنتسب إليه ، ثم شرح معانيها و إضافة معلومات أخرى تتعلق بها سواء أعطيت تلك الشروح والمعلومات باللغة ذاتها أو بلغة أخرى ، ولذا فمن الجلي أن الصناعة المعجمية ، تعتمد على علم المفردات Lexicologie و لكنهما ليس شيئا واحدا ..

و تصانيف المعجم السالفة الذكر ما هي إلا واحدة من جملة تصانيف أخرى فالمعاجم الأحادية اللغة هي التي تكون فيها لغة المتن ولغة الشرح لغة واحدة مثل : " لسان العرب " . أما المعاجم الثنائية اللغة فإن لغة المتن تختلف عن لغة الشرح ، وكذلك الأمر في متعددة اللغات ، ومثال ذلك المعجم الفرنسي العربي ، والمعجم الفرنسي العربي الإنجليزي و هكذا دواليك .

أما معاجم اللغة المكتوبة ومعاجم اللغة المنطوقة فهي المعاجم المشتملة على لغتين واحدة منها ميتة أو غير متداولة و إنما هي في صحف الأولين كاللاتينية ، و مثال ذلك معاجم اللغات الحية مثل المعاجم الخاصة بالتعبير والتي تقابلها معاجم الفهم ، و لتبيين هذا الصنف نرى أن مهمة المعجم هي مساعدة الطالب على فهم الكلمات الصعبة التي يقرأها أو يسمعها ، ولكن التطورات الحالية التي شهدها مطلع القرن العشرين في وسائل المواصلات و الإعلام والعلاقات الدولية والتربوية أدت إلى ظهور اتجاه جديد في تعليم اللغات الأجنبية و يؤكد على التواصل والتعبير والتفاهم ،وأضحى دور المعجميين تمثيل مبادئ الاتجاه الجديد في معاجمهم الثنائية اللغة بحيث تصبح قادرة على مساعدة القارئ على التعبير باللغة الأجنبية شفويا وكتابيا ، و على فهمها لدى سماعها أو قراءتها .

أما معاجم استعمال الناس ومعاجم الترجمة الآلية التي أثارت عددا من المشكلات المهمة في تركيب المعجم الثنائي اللغة وعالجته فهي تعد من ضمن المعاجم المبرمجة بالعقل الإلكتروني ،وهي حصيلة ثانية لجهود اللغويين في حقل الترجمة الآلية ، فهناك عدة فروق جوهرية بين المعجم الذي يستهدف القارئ الإنسان والمعجم المصمم للترجمة الآلية . فإذا كان الهدف من المعجم الأول أن يزودنا بالمعلومات الضرورية التي يحتاجها القارئ ، وهذه المعلومات تكون عادة عن اللغة الأجنبية ،فإن على المعجم المخصص للترجمة الآلية

أن يحتوي على معلومات نحوية مفصلة عن كلتا اللغتين ، ويمكن إدراج الشواهد في معجم استعمال الناس في حين يحظر استعمالها في معاجم الترجمة الآلية ، ثم إن الشرح والتعريف مسموح بهما في المعاجم الأولى بينما هو محظور في الثانية .

أما المعاجم التاريخية ، فإنها تلك التي تجمع دلالات الألفاظ في لغة ما على مر عصورها متوخية في ذلك الدقة في الدلالة على تطور المعاني من فترة إلى أخرى، و مثال ذلك معجم " تكملة المعاجم العربية " لرنهارت دوزي .

أما المعاجم الوصفية التزامنية فإنها تصف دلالات الألفاظ في فترة بعينها ، و هذه المعاجم أحادية اللغة و مثال ذلك معجم الإنجليزية الوسطى .

أما المعاجم الموسوعية ، فإنها تشتمل على ثلاثة معلومات رئيسية :

أ - اشتمالها على أسماء الأعلام من أشخاص و أماكن و أعمال أدبية و علمية .

ب - تغطيتها لجميع فروع المعرفة .

ج - معالجتها للحقائق معالجة شاملة .

أما المعاجم العامة فهي التي تغطي أكبر عدد ممكن من مفردات اللغة بينما يعالج المعجم المتخصص قسما واحدا من تلك المفردات التي تختص بأحد فروع المعرفة مثل المعجم الطبي و المعجم الصيدلي و معجم النبات ... الخ .

و توجد عدة أصناف من المعاجم كمعاجم الصغار ومعاجم الكبار وما إلى ذلك ، إذ المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام ، و من ثم تحديد دلالة الكلمة ، ذلك أن الدلالة لا تقتصر على مدلول الكلمة فقط إنما تحتوي على المعاني كلها التي يمكن أن تتخذها ضمن السياق اللغوي أو سياق الحال ، و هي عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في العثور على الدلالة فمنها ما يتعلق بالمرسل - المتكلم - ، و منها ما يتعلق بالمستقبل المخاطب .

لكل هذه الأعمال هدف واحد هو تفكيك نص معين إلى أجزائه المؤلفة له ، إذ المقصود هو إضاءة النقط السوداء فيه واستخراج نطقه الصحيح ومحتواه المضبوط وتأويل نوايا المرسل و امتداداتها الدلالية .

ه - 2 - التحليل L’analyse

يكتفي بإبانة الأفكار و الأحداث الأساسية في النص و كذا علاقتها ، كما يبين على الخصوص أسلوب النص والنوع الذي ينتمي إليه . كما يوضح التحليل نوايا الكاتب ويرتب منطقيا أفكاره انطلاقا من الفكرة الأساسية التي يربطها بالأفكار الجزئية . ففي التحليل لا نعلق على النص ولا نحكم عليه ، ويبقى التحليل إذن موضوعيا ما أمكن و من أجل الإتيان بتحليل كما يجب نقوم بما يلي :

1 - نحدد الفكرة الأساسية للنص .

2 - نحدد أسلوب ما كتب و نستنبط ما فيه بحيث نظهر صنفه أو نوعه بإقامة دراسة لوظائفه المتنوعة .

3 - نحدد الأفكار الجزئية وعلاقتها بالفكرة الأساسية .

4 - نسطر التمفصلات المنطقية للنص .

ه- 3 - التفسير : L'explication

إن تفسير النص يؤدي حتما إلى عمق دراسته ، فالشرح يتألف من :

- مقدمة : نموقع النص في سياقه ،و نضبط ظروف تأليفه الزمكانية .

- نحدد بسرعة خصائصه الأسلوبية و محتواه و غايته (صورته ، أوصافه ، مقالة ، نقد ... الخ) .

- نصف حركيته أو تنظيمه العام (ما يسمى عادة بالتصميم) .

- نقوم بشرح مفصل مرورا بنسق النص .

و بدون تخريج أي كلمة يجب شرح كل ما ورد في النص بتفصيل ،و توضيح مراحله الصعبة بمراعاة الأفكار وتسلسلها (على الخصوص تغطية تمفصلات النص) و التعليق على هذا المظهر أو ذاك بالرجوع إلى الزمن الذي كتب فيه ،والنوع الذي ينتمي إليه و الهدف الذي يرمي إليه ... الخ .

يجب أن لا تقول الكاتب ما لم يقله بإسهاب ، و لكن أوضح وبين على الخصوص ، كيف ينتظم النص ، و بالجملة يجب أن يؤدي عملك إلى وصف و شرح تأويلي للنص .

-استخلاص نتيجة تحتوي على تركيبة سريعة للعناصر الأساسية في الشرح التحليلي و الحكم على الأهداف وعلى قيمة النص ، وهذا الحكم يجب أن يتعلق بالأهداف المتوخاة من النص ، ويتعلق كذلك بنوعية النص استنادا إلى عناصر التحليل ، كما يجب أن نتجنب الأحكام المسبقة و القطعية سواء أكانت إيجابية أم سلبية .

و من أجل الحصول على شرح أفضل يجب أن يسبقه تحليل كما أشرنا إليه سابقا ، فتفسير النص عادة ما يكون شفويا ، وتكون كتابته وقراءته طويلة و مملة لأنها تلزم صاحبه بالعودة إلى كل تفاصيل النص،ومن أجل ذلك نفضل التعليق أو التعقيب على الشرح في حالة الكتابة .

ب - 3 - التعليق (أو التعقيب) Le commentaire

يوجد صنفين من التعليقات : التعليق التابع أو التعقيب : C.Suivi

التعليق المركب : C.composé

يظهر التعليق التابع أو التعقيب في حالة شرح نص ما ، غير أنه ينتمي لنصوص طوال ، و لأجل ذلك لا يدخل في التفاصيل ، و يختبر النص في مجمله بنفس الهدف من التفسير بحيث يراعى تنظيمه وأفكاره وتوضيحه والحكم على أهدافه وقيمته ووظيفته .
التعليق المركب يتعلق بالنصوص القصار لكنه ينظم عناصر التحليل المفصلة في تصميم ، إنه تمرين صعب بحيث يتطلب الاطلاع على المنهجية ، خلافا لتفسير النص الذي يدرس نسق تركيب النص فإن التعليق المركب يرتب بطريقة منهجية - أي بالعناوين - العناصر المهمة المكتشفة بالصفحة .
و في تحليل أولي نحدد ما يلي :
- نوعية النص الذي تظهر من خلاله أسلوب ، و صياغته .
- تنظيمه المجمل و يظهر من خلال حركيته و تصميمه و تمفصلاته .
- الهدف الذي يتوخاه النص .
- الوسائل المستعملة للحصول على الهدف أو الغاية (انظر التحليل) .
و في الأخير ننشئ انطلاقا من عناصر هذا التحليل ، تصميما للتعليق مجتهدين في تحديد الجزء الوصفي أولا ثم نمر ثانية إلى تأويل و ضبط النص وآنئذ يضم التعليق ما يلي :
أ - مقدمة تثبت - ببعض الجمل - الفائدة الأساسية من النص و تعلن عن التصميم التابع له.
ب - تفصيل منظم في فقرات مثلا :
1 - الجزء الوصفي ويهتم بحركية النص والمواضيع الأساسية أو الأفكار الأساسية و علاقاتها .
2 - الجزء التفسيري : و فيه تأويل و بحث عن دلالات النص .
3 - الجزء الانعكاسي : ضبط أهداف النص و طرق الحصول على ذلك كما تبين في هذا الجزء بالذات مكانة النص و قيمته .
ج - النتيجة : إن الصعوبة تكمن في تحديد وجهات النظر أو المستويات التي ستؤدي بنا إلى الوصف والتأويل ، ومن هذه الناحية يجب تحديد نوعية النص بدقة مما سيقودنا إلى عقد دراسة انطلاقا من هذا العنصر .
إن التحليل والتفسير والتعليق أو التعقيب يرتبط عموما بالنصوص الأدبية و قد يرتبط بغيرها من النصوص .
خلاصة: لكل هذه الأعمال-أي التحليل والتفسير والتعليق- هدف واحد هو تفكيك نص معين إلى أجزائه المؤلفة له ، إذ المقصود هو إضاءة النقط السوداء فيه واستخراج نطقه الصحيح ومحتواه المضبوط وتأويل نوايا المرسل و امتداداتها الدلالية .

و-الوظيفة الجمالية في الرسائل المكتوبة

إننا لا نستهدف من وراء هذا العنوان النصوص الأدبية فقط بل كل النصوص ، فالوظيفة الجمالية التي سماها " جاكبسون " بالوظيفة الشعرية - علما بأن الشعر أرقى أساليب التعبير - تختص أو تمتاز بإعطاء قيمة للرسالة في حد ذاتها ومن خلال ذاتها ، و بالجملة تأتي الوظيفة الجمالية حينما يتعلق الأمر بالشكل أو البنية التي تدعم وتلون المحتوى .

ولا شك أن هذه الوظيفة تتقاطع مع جميع الوظائف الأخرى ، وهي حاضرة من أجل أن تصل الرسالة في الغاية والنهاية ، ومنذ الزمن الغابر والناس حريصون على تنميق رسائلهم بشتى الأساليب ، وما ورد في الوظيفة الانتباهية مكمل أيضا لهذا الجانب .

و يؤكد ما ذهبنا إليه أن نجاح فعل التواصل يتعلق هو أيضا بجمال الرسالة لذلك عمل علماء التواصل و اللسانيون جميعا على إبراز هذا المظهر من الرسالة ، و يتجلى ذلك فيما صنفوه من شروط في الصياغة وحبكة اللفظ المفضية إلى إعطاء صورة جميلة عن المحتوى .

و-1- فن النظم : Le rythme

يهتم بحركية الجملة أو النص في علاقته مع مقطوعاته و طولها المختلف ، ويمكن الحديث عن نظم الجمل أو المقاطع في نص مكتوب .

الجمل الطوال ، الجمل المنثورة ، المزدوجة أو الثلاثية التي فيها تقديم أو تأخير تغني محتوى النص .

و قد كان علماء البلاغة قديما في صراع حول الإعجاز القرآني : هل يكمن في اللفظ أو المعنى ؟

و اتضح بعد نقاش وجدال طويل أنهما وجهان لعملة واحدة فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، لذلك تجدهم قد قسموا البلاغة إلى ثلاثة علوم هي :

- علم المعاني
- علم البيان
- علم البديع

فعلم المعاني يتجلى في كيفية صياغة وحبكة الألفاظ المفضية إلى إعطاء صورة جميلة عن المعنى ، فهو يهتم بأحوال اللفظ التي بها أو بتلك الأحوال يطابق اللفظ مقتضى الحال و هو الاعتبار المناسب للمقام ، إذ البلاغة الموضوع فيها هذا العلم وما بعده : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومن الإتيان بكل من التقديم والتأخير والذكر والحذف والتعريف و التنكير و التأكيد ... الخ ، و نحوها في مقامه المناسب . [1]

[1] - راجع مفتاح العلوم للسكاكي .

و-2 - التشبيهات : Les images

إنها تستعمل بكثرة في الخطابات السياسية و الإشهارية أو غيرهما بحيث يأخذ بها المؤلفون أكثر من الشعراء ، إنها تشكل صورا من الخطابة باستعمال الاستعارات و المجاز و التشبيهات التي تغني الخطاب .

لذلك عمدت الشعوب إلى هذه الطرائق بالتعبير لتقريب المعاني من القارئ أو السامع، و من أجل الوضوح و البيان كان علم البيان ، و هو أحد علوم البلاغة أيضا .

أما علم البيان فهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق من التراكيب مختلفة في وضوح الدلالة بحيث تكون بعض التراكيب أوضح في الدلالة من بعض .

و عقد هذا العلم يرتكز على شرط الوضوح والخلو من التعقيد في فصاحة الكلام، لذلك يعمد الكاتب أو الناطق المتكلم إلى التشبيه والمجاز والكناية من أجل البيان والإيضاح2

و-3 - لعبة الأصوات : Le jeu de sonorités

إن التركيبة التعبيرية للأصوات لا حد لها، ومن أمثلتها المعروفة التوافق التقليدي في نموذج الأصوات المحاكية للطبيعة Onomatopée ، و تماثل الأصوات يؤدي إلى استيعاب للمصطلحات على المستوى الدلالي ، و ذلك ما نلاحظه حينما عمل علماء الأصول والفروع إلى الأراجيز الشعرية من أجل أن يستوعب الطالب المعارف المختلفة : انظر تحفة ابن عاصم وألفية ابن مالك ، و منظومة السبكي ... الخ .

فكلما استحلى القارئ أصوات الكلمات المنظومة في شكل يرن في أذنه إلا ويكون من الأمر اليسير لديه أن يحافظ عليها في الذاكرة ، ولنا في مثال جاكبسون ما يشبه هذه الحالة حين أورد حديثه عن تلك الفتاة التي فضلت أن تسمي ألفريد البشع L'Affreux Alfred .

و لذلك نرى أن ما يختص بلعبة الأصوات هاته هو علم البديع عندنا في البلاغة العربية . فهو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة - أي الخلو من التعقيد - لأنها *إنما تعد محسنة بعدهما ، وأ*نواع البديع كثيرة جدا تربو على المائتين مثل : الطباق و الجناس و الترصيع في الشعر والترصيع في النثر و هو السجع و المماثلة ... الخ [1] .

2-نفسه

[1] - راجع مفتاح العلوم للسكاكي .

و هكذا نحصل بعد هذا على علم جدير بالاهتمام حينما نريد أن نصوغ رسائلنا الكتابية مبدين اهتماما بالغا بجمالية الرسالة فنحقق بعدها ما نصبو إليه من فعل عائد أو استجابة نرغب في الحصول عليها أثناء عملية التواصل الناجحة .

خاتمة:

إن معرفتنا بمنطق التواصل يؤدي بنا - بلا شك- إلى معرفة بنية اللغة الموظفة في عملية التواصل الناجح بما في ذلك القدرة اللغوية كفاية ومهارة ، لكن هل يكفي معرفة القدرة اللغوية فقط ؟

إننا لا نتواصل ببنية اللغة فقط لكن يساعدها - وقد ينوب عنها- بنيات أخرى تنتمي لأنظمة علامات خفية مساعدة ،كالنظام التطريزي والنظام الحركاتي والنظام التجاوري إضافة إلى معرفتنا بمتغيرات المرسل -المستقبل ومتغيرات إجراءات التواصل ، وما يأتي في ركابها من الاطلاع على معيقات التواصل من تشويش -تتعدد مصادره- وكيفية الوصول إلى ذلك عند تحليل ندرك من خلاله الاستجابة الإيجابية أو السلبية ، ثم معالجة ذلك في إجراء أخير ينبيء بسر المهارة في التعامل مع ما يقتضيه الحال من إطناب أو إيجاز وصولا إلى نجاح أو فشل فعل التواصل .

فهرس المصادر والمراجع

- **بالعربية**

1- القرآن الكريم قراءة ورش عن نافع.
2- أندري مارتيني: مبادئ اللسانيات العامة ترجمة أحمد الحمو 1985 المطبعة الجديدة دمشق بسورية.
3- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية 1979 طبعة الأنجلومصرية
4- ابن خلدون: المقدمة الطبعة الرابعة 1978 دار الكتب العلمية بيروت لبنان
5- أبو الوليد بن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال طبعة دار المعارف القاهرة
6- أبو حامد الغزالي المستصفى من علم الأصول تحقيق حمزة بن زهير طبعة دار الكتب العلمية لبنان
7- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين دار الكتب العلمية بيروت لبنان
8- أبو هلال العسكري: سر الضاعتين تحقيق مفيد قميحة 1981 دار الكتب العلمية بيروت لبنان
9- أبو يعقوب يوسف السكاكي: مفتاح العلوم تحقيق وشرح نعيم زرزور 1983 طبع بيروت لبنان.
10- أبو محمد الجزري: النشر في القراءات العشر تحقيق علي محمد الضباع المطبعة التجارية الكبرى
11- بيير غيرو السيمياء ترجمة أنطوان أبوزيد الطبعة الأولى منشورات عويدات 1984 بيروت لبنان
12- بسام بركة إيميل يعقوب ومي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: دار العلم للملايين بيروت لبنان.

13- عبد القادر الجرجاني: أسرار البلاغة تحقيق محمود شاكر مكتبة الخانجي 1991 القاهرة مصر.
14- عماد حكيم: فقه اللغة وتاريخ الكتابة: المنشأة العامة للنشر والتوزيع 1982 والإعلان ليبيا.
15- فرناند دوصوسير: محاضرات في الألسنية العامة ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر 1984 جونية لبنان.
16- محمد سعيد الريحاني: موسم الهجرة إلى أي مكان طبعة: طوب بريس 2006 الرباط المغرب.
17- ميشال زكريا: الألسنية قراءات تمهيدية طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1984 بيروت لبنان
18- ميشال زكريا: الألسنية المبادئ والأعلام الطبعة الثانية 1983 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان.
19- نور الدين رايص: نظرية التواصل واللسانيات الحديثة مطبعة سايس 2007 فاس المغرب.
20- هدسون: علم اللغة الاجتماعي ترجمة محمود عياد الطبعة الثانية عالم الكتب 1990 القاهرة مصر.
21- مجلات: سلسلة شراع العدد 33 السنة...

• مصادر أجنبية

1- Austin (J.L) 1962 Quand dire c'est faire. Traduction et introduction de Gilles Lane 1970 E.D seuil Paris
2- Bateson, Birdwhistell,Goffman, Hall, Jackson, Sheflen Sigmon, Watz lavick : La nouvelle communication, textes receuillis et présentés par Yves Winkin E.D Seuil 1981 Paris.
3- Christian Bachman Jacqueline lindenfel, Jacky Simonin 1981 : Langage et communication Sociales E.D Hatier Paris.
4- Corrage (Jacques) 1980 : LA communication non verbale E.D : PuF(coll : Que sais-je)

5- Deniss Huisman 1983 : le dire et le faire : pour comprendre la persuassion propagande : publicité relations publiques : Essai sur la communication efficace. E.D : C.D.U et sedes.
6- Edward T.Hall : Le langage silencieux traduction française de jean meserie et Barbara Niceal, E.D ; seuil (Coll Point) Paris.
7- Elith Katz and Paul. F. Luzersfeld : Personnal influence the part played by people in the flow of mass communication (New York, Free Press 1956).
8- Francis Vanoye 1985 : Expression communication (Coll U) D.E.D. Armand collin.
9- Jean Baptiste Figes, Christian Pagire, Pierre Conille, Bernard Ferry : Dictionnaire des médias : Technique linguistique, sémiologie. E.D : Maison name 1972.
10- J. Dubois et Coll : Dictionnaire de linguistique 1973 E.D Librairie Larousse Paris.
11- Lionel Bellenger 1984 . L'expression orale. E.D : E.S.F.
12- P. WAtz la Wir, J. Helmick Beavin, Don Jackson : une logique de la communication traduit de l'américain par JAmine Morche 1972 E.D Seuil. (Cole points)
13- P. Guirard 1980 : Le langage du corps E.D : P.U.F. (Coll : Que sais-je)
14- Roger Mucchielli 1976 : Communication et Réseaux de communication, E.D : E.S.F.

الفهرس العام

القسم الأول: ظاهرة التواصل العالمية

توطئة

1- التعريف اللغوي
1- أ- استعمال مصطلح التواصل دياكرونيا
1- ب- استعمال مصطلح التواصل سانكرونيا
2- التعريف بالمثال
3- التعريف بالوظيفة
4- التعريف بالضد
5- التعريف التاريخي
5- أ- التواصل البشري
5- أ- 1- بعد التبادل
5- أ- 2- البعد المكاني
5- أ- 3- البعد الزماني
5- ب- أنماط التواصل
5- ج- التواصل التقني
5- د- نظرية التواصل وتلويناتها

6- التعريف بالماهية

6- 1- عناصر التواصل

أ- المرسل

ب- المستقبل

- متغيرات المرسل

- المستقبل من الناحية:

➢ الاجتماعية

➢ النفسية

➢ القدرة العقلية المعرفية

- تصميم التواصل البسيط

ج- الرسالة

1- نظام العلامات

2- القناة

3- الطاقة

4- موضوع الرسالة

د- المقام

6-2- إجراءات التواصل:

أ- إجراء التركيب

ب- إجراء النقل ⟵ التشويش

ج- إجراء التحليل ⟵ الاستجابة أو الفعل العائد

د- إجراء إعادة التركيب ⟵ الإطناب

القسم الثاني: مهارات التعبير

1-أ- ماهي مهارات التعبير؟

1-ب- كيف ندرك مهارات التعبير والتصرف فيها؟

1-ج- أي طريق نتبع؟

1-د- التواصل وملكة اللغة

1- د- 1 التواصل اللغوي

1-د- 1- 1 التعبير الشفوي:

*التواصل الكلامي:

- مستويات لغوية

*التواصل غير الكلامي

- التطريز

- النغم
- التنغيم
- النبر
- معدل النطق
- المد
- الوقف

-الحركاتية: الأشكال المختلفة للتواصل الحركاتي:

- التواصل غير الكلامي الوصفي
- التواصل غير الكلامي التأثيري

-التجاورية:

- ماذا نعني بالتعبير الشفوي؟
- مشاكل التعبير وإتقان عملية الكلام:
  - اجتياز مرحلة الارتباك
  - التعبير الجسدي
  - الاستئناس المسرحي
  - لعب الأدوار والمنيوطوسكوب
  - خاتمة

1- د- 1- 2- التواصل المكتوب: التعبير الكتابي:

- مقارنة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة

- خصائص اللغة المكتوبة
- خصائص اللغة المنطوقة

- ترتيب الرسائل اللغوية من خلال الوظائف اللغوية عند جاكبسون:
  - الوظيفة المرجعية

أ- الرسائل المرجعية الخالصة:

أ-1 الإخبار

أ-2التقرير

- الطريقة العمودية
- الطريقة الجدولية
- الطريقة التشجيرية

أ-2-1- تقرير التلخيص

أ-2-2- التقرير الوصفي الملخص:

أ-2-2-1- قسم وصفي

أ-2-2-2- تلخيص محتوى الكتاب

ب- الوظيفة التعبيرية في الرسائل المكتوبة:

ب-1- الرسالة ذات الطابع الشخصي:

ب-1-1- الرسالة الغرامية

ب-2- التعبير عن حتم: التقرير النقدي

ب-3- المحضر

ب-4- التعليق

ب-5- تغييب الأنا: الترجمة الذاتية

ج- الوظيفة التأثيرية في الرسائل المكتوبة:

ج-1- الرسالة الإشهارية المكتوبة

ج-2- الرسالة السياسية المكتوبة

ج-3- رسالة الخطاب الديني والوصايا

ج-4- الرسالة ذات الخاصية المهنية

ج-5- الرسالة الحجاجية الإقناعية:

- التصميم بالتجميع
- التصميم بالمعارضة

ج-5-1- الأخطار المحدقة بكتابة الرسالة الحجاجية

ج-5-2- السرد

د- الوظيفة الانتباهية في الرسائل المكتوبة

د-1 الكتابة

د-2 الطباعة

هـ- الوظيفة البيانية والتعابير الكتابية:

هـ- 1 التعريف

هـ- 2 التحليل

هـ- 3 التفسير

هـ- 4 التعليق

و- الوظيفة الجمالية في الرسائل المكتوبة

و-1 فن النظم

و-2 التشبيهات

و-3 لعبة الأصوات.

-فهرس المصادر والمراجع